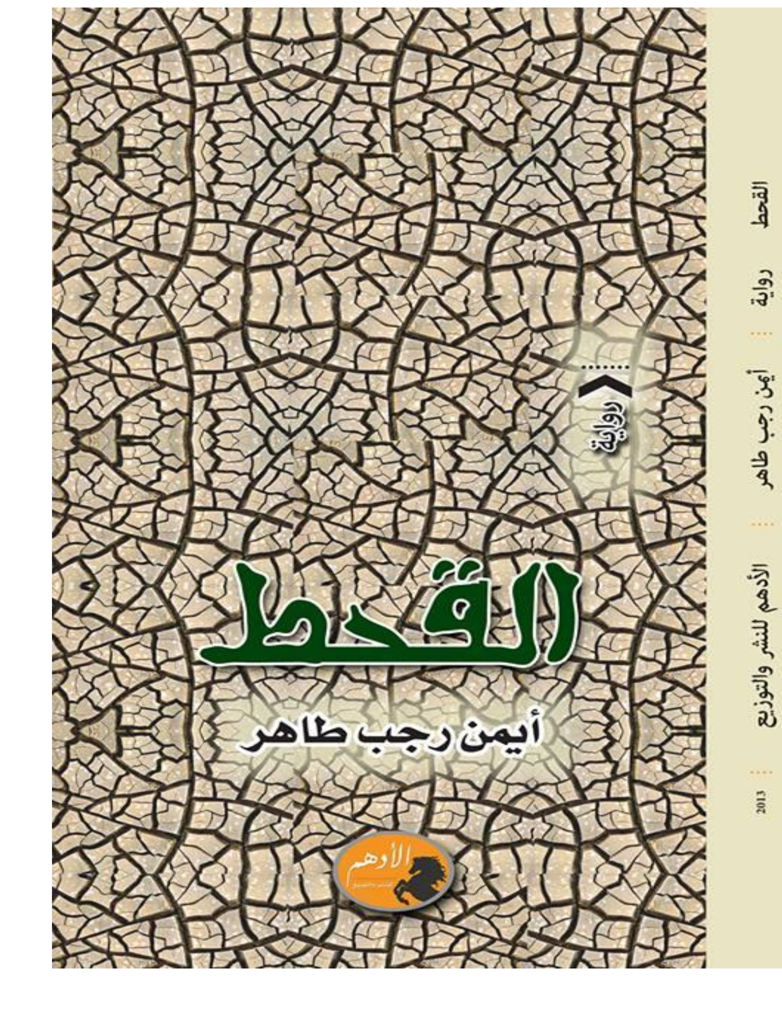


القحط رواية ... أيمن رجب طاهر ... الأدهم للنشر والتوزيع ... 2013

الغلاف: Dina Art



جال بعينيه فرأى الغروب يتمطّى بظلاله الحمراء على الغيطان الخاوية من أي خضرة فأوجس في نفسه خيفة ولكنه أقنع نفسه أنه وصل بعد موسم الحصاد والفلاحون يستعدون لحراثة الأرض وتهيئتها للزراعة فابتلع ريقه وخطا نحو البيوت الواطئة فمر بالساقية الساكنة فرأى القواديس الفارغة يغطيها التراب وعريشة
العنب اليابسة تكسرت أغصانها ونثرتها الريح حول الساقية .. تجاورها خلايا النحل الطينية وقد تهشمت وتبعثر الشمع الناشف حولها أما النخلات المتناثرة عجفت وتدلى جريدها الكالح والعراجين الميتة ملقاة هنا وهناك وعلى البُعد الشادوف المنصوب على حافة الترعة الجدباء يطيح الهواء الخفيف حبله الليفي والدلو ملقى بجانبه ..



القحط

رواية

أيمن رجب طاهر

الإهــداء

إلى الأعمام :

زكريا عبد الغنـي ودرويش الأسيوطي ومحمود ثابت وعبد الحـافظ بخيت ونعيم الأسيوطي ومحمد عبد المطلب وحمدي البطران ..

إلى الرفاق :

أحمد راشد والبلكي ومؤمن ومن أبناء عكاشة ثروت وأشرف وعبد الراضـي وشعبان وحمدي سعيد وفراج فتح الله ومحمود فرغلي ومحمد فاروق والعزازي وصابر فتحي وابتسام الدمشاوي ..

إلى الجيل الصاعد :

محمد زين وهويدا قطب و محمد فكري ومحمد صلاح وأحمد أسامة ومنـى سيد وكريم عكاشة وولاء عطا الله وشيماء جمعة وأحمد مصطفى ..

أبشّرهم

بـ

" إن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا "

قال بعض علماء مصر يصفها :

هـي فـي أول وقـت مسـكة سـوداء
ثم يركبها نيلها فتصير لؤلؤة بيضاء
ثم ينحسر عنها وتنبت فتصير زمردة خضراء
ثم يـشـتـد فـتـصـيـر تـبـرة صـفـراء
ثم تستحصد فتصير كيسة في صناديق الملوك وأكمام الرجال

فضائل مصر
لابن زولاق

(0)

".. وحدث أن سيدة غنية يجوع أطفالها فتلجأ إلى شكمجية حليها فرأت أنها تملك ثروة طائلة ولا تستطيع أن تشتري رغيفا لأطفالها فاختارت عقدا ثمنه ألف دينار وطافت به في شوارع القاهرة والفسطاط فلم تجد من يشتريه وأقنعت أحد التجار بشرائه مقابل كيس دقيق واستأجرت الحمّالين لنقله ولم تكد تخطو به حتى هاجمتها جحافل الجياع فاغتصبوا الدقيق فزاحمتهم واختطفت لنفسها حفنة وعجنته وصنعت قرصا صغيرا وأخفته داخل ملابسها وخرجت إلى الشارع صائحة :

الجوع الجوع .. الخبز الخبز

فالتفتّ حولها الجماهير الصائحة وساروا إلى قصر الخليفة المستنصر ووقفت على مصطبة وأخرجت القرصة ولوّحت بها وهي تصيح :

- أيها الناس .. فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار فادعوا لمولانا السلطان .

(1)

بقليل من الرماد المكوّم بجوار الكانون أطفأت أم الحسن بقايا النيران ولم تلبث أن رفعت غطاء الإناء فأحاطت بها سحابة من بخار الأرز فغطته في عجالة ونهضت متكاسلة وقبل أن تغادر الغرفة صوّبت نظراتها إلى فخذي الكانون لتتأكد من إخماد النار وخرجت مغلقة خلفها الباب .. خطت نحو باب البيت ففتحته وأطلت بوجهها الصغير فيطالعها الدرب خاليا في هذا الوقت بعد العصر .. فردت كفها أمام عينيها مدققة النظر فلم تلمح سوى بعض المارة في الشارع العمومي .. طال انتظارها حتى زفرت أنفاس الملل فلا أثر لعودة زوجها ميمون من دكان الورق .. بتأفف تغلق الباب وتستدير عائدة فيطالعها ابنها الحسن خارجا من الكنيف يريد تنشيف يديه فحدجته بنظرة معاتبة وهي تشير بيديها أمام وجهه ..

- اقتصد في الماء فعمك ريان لم يأت من يومين ..

أومأ الصبي علامة الفهم وقد ضاق صدره من نواهي أمه التي شعر أنها زادت في الأيام الأخيرة وذهب إلى غرفته والتى يتخذ أبوه نصفها مخزنا لبضائعه من قراطيس وأحباروأدوات للتجليد فنظر إلى أكداس الورق وطفق يسحب الواحدة تلو الأخرى ويطبقها صانعا لنفسه المراكب ويركنها ثم رفع رأسه إلى الخزنة الصغيرة المجوفة في الحائط والتي كانت أمه تضع فيها حلوى المولد النبوي وتاقت نفسه الجائعة إلى الهريسة التي يحبها واللعب بالحصان المصنوع من الدقيق المخلوط بالعسل الذي يقسّم أكله على مدار الأيام وتساءل في قرارة نفسه عن امتناع أمه عن صنعها وأرجع ذلك إلى ما أشارت به من قلة الدقيق لنقصان مياه النيل وتمنّى أن يفيض النهر حتى يأتيهم عمه الذي يعيش بعيدا بالدقيق وأيضا لا ينقطع عنهم ريان السقاء وتكف أمه عن أوامرها بالاقتصاد في الماء..

برغم يقينه من فراغ الخزنة الصغيرة إلا أنه سحب بابها الجريدي فوقعت نظراته على طبق الفخار ذي الحواف العالية وبنفس مكتئبة مد يده داخل الطبق فقبضت أصابعه على قطعة من الهريسة الناشفة فهرول إلى أمه ورفعها أمام وجهها .. هوّمت برأسها وافترت شفتاها عن ابتسامة باهتة وأشارت له بأن يأكلها فلاكها الحسن بين أسنانه فرحا وبرغم صلابتها إلا أنه استلذ بمذاقها الحلو ..

ربتت أمه على كتفه ومرة ثانية فتحت الباب لتستطلع الدرب فأجابها خواء المطرح .. أيقنت أن زوجها لن يأتي الآن فذهبت من فورها إلى مخزن الورق وسحبت كيسا من الكتان ونفضته من التراب .. وضعت داخله بعض القراطيس القديمة وذهبت إلى الحجرة الداخلية،اغترفت من الأرز في طبق فخاري كبير وغطته جيدا واضعة إياه داخل الكيس وربطته بالخيط .. قدمته إلى الحسن ففرد الولد كفيه .. ثبتت الكيس بينهما

وأشارت إليه بأن يذهب إلى الدكان، رفعت سبابتها محذرة أن يأخذ أحدٌ منه الكيس فأومأ رأسه إشارة الفهم ثم هزّت كتفه بشدة وهي تشير له بأن إذا رأى عند أبيه أحدا فليدخل بالكيس الدكان ومرة أخرى هز الولد ذو العشرة أعوام رأسه وأصدر أصواتا دالة على إدراكه لمقصد أمه .. انطلق تودعه نظراتها القلقة والمثبتة على ظهره المبتعد إلى أن انعطف خارجا من فتحة الدرب الضيقة .. تظل على شرودها حتى أفاقها صرير باب جارها المقدّس يؤنس الذي انفتح على طلة زوجته رفقة وبين يديها وعاء لم تلبث أن دلقت ما به من ماء آسن بجوار الجدار والتفتت إلى أم الحسن بابتسامة مشرقة والتى ابتدرتها ..

- يسعد مساءك يا أم بشير .. كيف حالك وحال عروستنا سمحة ؟

- بخير يا أم الحسن .. فرحها أول أحد بعد عيد الميلاد ..

- ربنا يتمم لها على خير ..

تمط أم بشيرشفتيها وتهز رأسها في حزن جاهدت أن تخفيه ..

- لكن غياب بشيرهو ما يقلقني فما يزال في الإسكندرية ولا حس ولا خبر ..

- لاتخافي وإن شاء الله يحضر فرح أخته ..

تهم أم بشير أن تقول شيئا لولا ظهور عربة ريان السقاء بصوتها المجلجل وهو يصيح وبجريدة ناشفة يلسع مؤخرة حماره الأعجف ويوقفه أمام بيت الشيخ عامر في أول الدرب .. يحمل إحدى القرب ويدخل البيت ثم يعود ويلقيها فارغة يتقطر الماء من فمها وتارة أخرى يجر الحمار إلى بيت رزق المزين فيخرج ابنه زين ويحمل القربة بنفسه داخل البيت وتتقدم العربة بعجلاتها المتهالكة إلى بيت ميمون الورّاق فتفسح أم الحسن له الطريق فيحمل القربة ويفرغها في الزير المركون خلف الباب .. يقف ملتقطا أنفاسه .. تدس أم الحسن في يده ورقة فيفتحها ويتهلل وجهه لقطعة الجبن .. يعيد لفها ويضعها على العربة ..

يحمل قربة أخرى وبدورها تفسح له رفقة الطريق وبعد إفراغها تعطيه رغيفين وبيد سودتها الشمس يلتقط ريان الطعام متلفتا يمنة ويسرة ثم يفتح إحدى القرب الفارغة ويدخل الرغيفين والجبن داخلها ويربط الحبل ..

- خير يا ريان .. من يومين لم نرك ..

- ربنا يسترها يا أم الحسن .. النيل مياهه قلت ..

- جف يعني ؟

يبتلع السقاء ريقه وهو يلتفت إلى تعليق أم بشير فيهز رأسه مكملا ..

- في طريقه .. فبعد أن كنا نعبئ القرب من الشط نضطر أن ننزل في الطين لنملأ من بطن النيل ..

بكفها تضرب أم بشير يدها على صدرها وتجحظ عيناها الكحيلتان ..

- سمعنا السنة الماضية إنه قلّ وقلنا أهي مرة وتعدي وبعدها يفيض ..
- قل أكثر من السنين الماضية يا ست رفقة وربنا يسترها ..
- يا رب ..
يحمل ريان آخر القرب ويتجه إلى بيت الشيخ رادع الكتامي ويقرعه فيأتيه صوت الشيخ الضرير من خلف الباب بأن يدخل فيزيح ريان الباب ويغيب برهة ويعود للسيدتين اللتين مازالتا واقفتين فيلقى القربة الأخيرة بجوار أخواتها وتقبض يده على لجام الحمار ويلف به خارجا من درب الريحان تودعه النظرات القلقة إلى أن اختفى فتلاقت عينا رفقة بعيني عالية وقرأت كلٌ منهما ما يختلج في نفس جارتها من خوف وبدون أن تنطقا انسحبت رفقة للداخل ففردت عالية كفها أمام عينيها مرسلة سهام نظراتها إلى خارج الدرب ثم زفرت أنفاس الضيق وهمت أن تغلق الباب لولا ولوج السيدة السمينة من فتحة الدرب الضيقة والتي ميزتها عالية فأحجمت عن غلق الباب مستقبلة أختها ثريا التي اقتربت يتبعها ابنها اليافع الفضيل ..
تحاضنت السيدتان وطبعت عالية قبلة حانية على جبين أختها الصغرى التي كشفت وجهها اللحيم بعد دخولها البيت .. سلمت عالية على ابن أختها فمد لها لفة صغيرة ...
- دقيق يا عالية ..
- عندي ما يكفي يا أختي ..
- أين الحسن يا خالتي ؟
- في الدكان عند عمك ميمون ... كيف حالك يا ثريا وحال الأولاد ؟
- بخير
قبل أن تنطق ثريا وقفت عالية وسارعت إلى الغرفة الخلفية .. تدير ثريا عينيها في أرجاء البيت المتواضع والفضيل يمسح كفه من التراب .. تعود عالية وبين يديها طاولة خشبية عليها أكواب منقوع النعناع فقدمته إلى أختها وابنها وجلست جوارهما صامتة فاحتسى الفضيل كوبه دفعة واحدة تبعته أمه التي نهضت بمجرد فراغ الكوب مستأذنة وعالية تجاهد لإبقائهما لكن ثريا أصرت على الانصراف معللة زيارتها القصيرة بذهابها إلى درب النحاسين لأن تاجرا اشترى منها مواعين من النحاس ولم تقبض ثمنها ..
- كان لازم أنت يا ثريا .. أرسلي له الفضيل أو واحد من إخوته ..
- ماطل يا أم الحسن ولا بد أن أنهي البيعة اليوم .
- أرسلُ لأبي الحسن ليذهب معك ؟
- لا .. معي الفضيل وإن لزم الأمر سأشكوه للقاضي ..
- وابنك الكبير قارون ؟
- يغيب أياما مع أصحابه ثم يعود ..

- بالذهب ؟
قالتها عالية وغمزت بعينها اليسرى فأطرقت ثريا وجهها وتلاقى حاجباها في حنق فطبطبت عالية على كتف أختها الوحيدة .. يقف الفضيل ويبتسم لخالته ..
- ممكن آخذ بعض القراطيس ..
أومأت عالية لابن أختها مشيرة بيدها نحو مخزن الورق وما إن انصرف الولد حتى ثبتت عالية عينيها في عيني أختها ..
- أخاف عليك يا أختي وعلى أولادك ..
- ما باليد حيلة .. تعرفين أن قارون سار سيرة أبيه الله يرحمه ..
تنهض ثريا وتخطو نحو الباب وعند المخزن خرج الفضيل وبيده حزمة أوراق وتبعتهم عالية حتى إذا ما خرجوا من البيت مدت ثريا لتسلم على أختها التي شدت على يدها .. هزت ثريا رأسها وهي تودع أختها ..
- على الأقل ضمنت الآن مقايضة الذهب والنحاس بالقمح ..
تنصرف ثريا وكالظل يتبعها الفضيل تودعهما نظرات عالية التي لم تلبث أن تغلق الباب وتجلس على أريكتها الخشبية القديمة .. تفرد مفرشها الصوفي المرقـّع .. تميل رأسها إلى الوراء وتلف التلفيعة السوداء حول رأسها .. تغمض عينيها فيمرق طيف أبيها وهو يجول في أطياء ذاكرتها التي ما زالت تتذكر موافقته على مضض تزويج ثريا من أيوب النحّاس الذي استغل إفلاس أبيها وأعطاه قرضا كبيرا ثم كسدت تجارته وعجز عن سداد الدين فاعتبره أيوب مهرا لثريا بالإضافة لضغط أمها التي أعماها ثراء أيوب ونقمتها على ميمون وتجارة الورق فوافق وهو مغصوب وبعدها بعام مات أبوهما ثم أمهما ..
يطفر فجأة وجه أيوب الفظ الذي لا يعرف في الدنيا إلا البحث عن الذهب في المقابر القديمة التي ينبشها مع اللصوص والإنجاب من أختها الصغيرة التي أصبحت في أعوام قلائل أما لخمسة أولاد تعيش معهم في بيت كبير في إحدى ضواحي الفسطاط .. تهز عالية رأسها وهي تتمتم ..
- الحمد لله على كل حال ..
تلوي عنقها في حدة فتلمح فأرا يهرول نحو السطح فتنقشع سحب ذكرياتها ولم تلبث أن تتمدد على الأريكة منتظرة بين الحين والآخر قدوم ميمون والحسن معا .

***

(2)

تميل الشمس نحو المغيب عندما وصل الحسن لدكان أبيه فيجده واقفا مع رجل لا يعرفه فهمّ أن يشير إليه ليخبره بقدوم الغذاء لكن حلمة أذنه المألومة تذكره بقرصة أمه المحذرة فدخل الدكان وبرفق وضع الكيس على الرف الخشبي ووقف جانبا ينتظر إلى أن أنهى أبوه كلامه وابتعد الغريب فدخل ميمون قاطب الحاجبين وهو يزفر محدثا نفسه ..

- أف .. ما عند أحد أي دراهم أو دنانير .. أهو كاتب اشترى مني الورق ولم يدفع درهما ولن يأتي لشراء الورق والحبر مرة أخرى ..

وكأنه لم ير ابنه إلا الآن فوضع كفه على كتف الحسن يهزّه ..

- لماذا جئت ؟!؟

يشير الولد الأخرس إلى الكيس القماشي فيرفعه ميمون ويسحب ما به ثم يدسه مرة أخرى في سرعة وانثنى نحو الحسن وبأنامله يقرص أذنه الثانية ويحدثه مؤنبا ..

- حذرتك وحذرت أمك بألا تخرج من البيت مهما يكن ..

يتملّص الغلام ويرجع للوراء وهو يحس بضيق يغزو صدره ويضع كفه على أذنه التى احمرّت حلمتها وارتعشت شفتاه الباكيتان لكن ميمون تمالك غضبته واستدار ساحبا ضلفتي باب الدكان .. يدس الكيس داخل عباءته الثقيلة وسار وهو يضع يده على كتف ابنه الذي لم يفهم سببا لقلق أمه وتحذيراتها أو معنى لغضب أبيه فسار بجواره محتارا حتى وصلا لدكان زيدان القصّاب فرمى ميمون السلام على أخيه الجالس أمام دكان الجزارة الخاوي من اللحم وحادثه وهو يمسح الدكان بعينيه ..

- ألم تذبح اليوم ؟

- لا اليوم ولا أمس ولا من أسبوع .. آخر ربع جاموس بعته كان من عشرة أيام ومن يومها لم أذبح أرنبا ..

يجلس ميمون جوار أخيه ..

- لم ؟

- قلّت البهائم هنا فرحل التجار إلى الصعيد والقليل منهم الذي يعود بعجول وبقر ..

يهز ميمون رأسه متضايقا ثم يتلفت يمينا ويسارا يستطلع الشارع شبه الخالي .. يميل على أذن أخيه ويوسوس له بصوت خفيض ..

- تعال لنأكل داخل الدكان لكن .. اقفل الباب

- لا .. أنا منتظر ولدي فاتك بخبر ذبيحة عند واحد صاحبه ..

- نأكل وننتظر فاتك ..

ينهض زيدان متكاسلا ويبتسم للحسن الذي يظل طوال الوقت ساهما وبكفه الغليظة يمسح شعر ابن أخيه ويقول له وهو يوارب الضلفتين..

- كيف حالك يا حسن ؟

تنفرج شفتا الصغير عن ابتسامة تكشف انتظام أسنانه البيضاء ويجلس على الأرض أمام أبيه وعلى الضوء الشحيح النافذ من بين ضلفتي الباب يخرج ميمون الكيس ويسحب لفة الورق ويفردها ليستقر الطبق الكبير، تظهر حبات الأرز الشهية محتفظة بسخونتها فدعا ميمون ابنه لتناول الطعام لكن الحسن هز كتفه متمنعا فامتدت الأصابع لتناول الأرز إلى أن فرغ قعر الطبق فمسح زيدان فمه بكم جلبابه وتناول قلة من خلف الوشرة التي كان يقطع عليها اللحم ورفع رأسه ليجرع الماء فيضحك الحسن لصعوط وهبوط تفاحة آدم في عنق عمه ولكن وقوف أبيه المتعجّل بتر ضحكته المكتومة .

يفتح زيدان باب الدكان فيجدد الهواء الساقع الرائحة الزهمة .. يخطو ميمون يتبعه الحسن فيطالعهم فاتك قادما إليهم ..

- مرحبا عمي .. أهلا يا حسن ..

يمد الحسن يده فيسلم عليه فاتك مبتسما لكن نظرة عمه ميمون الصارمة تخشّب الابتسامة من بين شفتيه ..

- سمعت أنك تشاجرت عند البركة يا فاتك ..

قطب زيدان حاجبيه وبوجه مخطوف التفت إلى ابنه ..

- تعارك ؟!؟ مع من وأنا لم أسمع ؟

رفع فاتك رأسه ورد في جرأة ..

- امرأة تعبر الطريق عند البركة وعلى رأسها قفة بها بط فهاجمها ولدان فدافعت عنها وأبعدتهما ..

- أبعدتهما أم كسرت ضلع أحدهما على ما وصلني ؟

قالها عمه ميمون غاضبا فزاغت نظرات زيدان بين ابنه وأخيه فوضع كفيه على رأسه

- يا للمصيبة ! كسرت ضلوع من يا موكوس ؟

- واحد من الزُعر..

زعق زيدان في ابنه ووكزه في كتفه صارخا في وجهه ..

- الله يلعنك ويلعنهم .

يطبطب ميمون على كتف أخيه مهدئا ..

- اهدأ يا زيدان .. هم ولا حاجة ..

- لكن لا نأمن شرهم ومكرهم .. المهم .. خبر الذبيحة ؟

- لا بهيمة ولا شيء .. مجرد بقرة من قلة العلف أسقطت عجلها ميتا ..

يضرب زيدان كفا بكف ويهز رأسه في أسى ..
- يا للأسف ..
يمد فاتك رقبته وهو يحادث أباه ..
- سمعت أن في الفسطاط ضبطوا جزارا يعلق لحم حمار .. والمصيبة أن الناس اشترت منه وأكلت ..
- الله يلعنه جزار .. الواحد يبطل شغل ويموت من الجوع ولا يسخر من خلق ربنا ..
يردف ميمون وهو يودع أخاه وابنه ..
- المضطر يا زيدان .. المضطر يا أخي .. السلام عليكم
يرد زيدان سلام ميمون الذي يلف ذراعه على كتف الحسن ويسيران عائدين إلى درب الريحان فيلقي السلام على حميد ابن الشيخ عامر القاعد بملل أمام البيت فيرد عليه السلام ويطالعه باب رزق المزين ثم يمر ببيتين مغلقي الأبواب لهجرة أصحابهما ولمح أدوات خصف النعال التي دائما يتركها نصيف الإسكافي بجوار عتبة بيته أما عبد البر غزّال الصوف فلم يكن يجلس جلسته المعتادة وهو يشد المغزل فقد عوّد أهل الدرب على غيابه أياما ثم يعود ومعه بالات صغيرة من أصواف الغنم ..
ودّ ميمون أن يسلم على الشيخ رادع الكتامي لكنه أعرض مقنعا نفسه بأن جاره العجوز يحب الراحة في هذا الوقت من آخر النهار قبل استعداده للسهر.. يدق باب بيته وينتظر هنيهة قبل أن تفتح زوجته فيدخل مغلقا خلفه الباب وبدون أن يسلم يصوّب لها نظراته النارية معاتبا ..
- حذرتك يا عالية من ..
تقاطعه في توسُّل ..
- حسبت أنك تبقى في الدكان للعشاء وخفت عليك من الجوع ..
- البلد لم يعد بها أمان ..
تشير عالية إلى ابنها الصامت ..
- ودروس المُحفـّظ في الجامع ؟
- اسمعي الكلام يا عالية .. لا يطلع ولا يدخل حتى الصلاة تكون في البيت .. كلامي ينفذ ..
- أمرك يا ميمون .. تعالى يا حسن ..
يهز الصغير وجهه المستدير ويغمض عينيه الواسعتين ويفتحهما فتمسح أمه على شعره الأسود الناعم وتصحبه إلى حجرته حيث مخزن الورق وتفرد قرطاسا قديما وتضع أمامه نصيبه من الأرز البارد فيأكل في نهم وتسقيه ثم تتركه مسترخيا على سريره الخشبي الصغير وعند الباب توصيه بأن يسحب الحِرام ليتغطى ..

تدخل رواق نومهما فتجد ميمون قد خلع عباءته وتمدد على السرير .. تسكب في المصباح اليسير من الزيت فانتعشت ذبالته واتسعت البقعة المضاءة من الجدار .. تمددت بجوار زوجها الذي يشبك أصابعه خلف رأسه وما تزال النظرة اللائمة لم تفارق عينيه فردت على نفسه القلقة ..

- أمرك يا ميمون .. الحسن لا يخرج من البيت أبدا .. ثريا أختي زارتني هي والفضيل وأعطتني كيس دقيق ..

يرتسم التوتر على وجه ميمون ويعض شفته السفلى وهو يعتدل في جلسته ..

- قلت لك لا تقبلي شيئا من أختك يا عالية ..

- لكن يا ميمون من شهر لا يوجد لدينا دقيق وأختي ..

يقاطعها ميمون وعروق رقبته تنفر من الغيظ ..

- زوجها أيوب النحاس مشكوك في دنانيره ..

- أهو مات ومات سره معه ..

- مات في الهرم .. أراد أن يخرج بذهب الفراعين كعادته في نبش المقابر لكنه دخل ولم يخرج ولن يخرج إلى يوم الدين .. الله يسامحها أمك التي كانت سببا في زواج ثريا منه .. كان من الممكن بقليل من الصبر يسدد عمي الدين لكن ..

يصمت ميمون وتهدأ نفسه وهو يعاود الاستلقاء جوار زوجته .. يسرّح بصره لسماء الغرفة الجريدي ..

- فاكرة يا بنت عمي .. خطبتك من عشرين سنة ..

- وتأخر زواجنا سنتين بسبب سفرك .

يعتدل ميمون في رقدته على جنبه الأيمن ورأسه تواجه زوجته التي سحبت الحرام الصوفي الثقيل ليتغطيا وهيأت أذنيها لسماع كلام زوجها المكرور ..

- نعم .. كنت مقاتلا في الفيلق الذي أرسله مولانا الخليفة علي الظاهر لإعزاز دين الله ليقضي على التمرد بجزيرة صقلية وأصبت بسهم في كتفي ونقلت إلى الإسكندرية ومنها عدت إلى القاهرة ..

- وبقينا سنينا لم ينعم الله علينا بالخلف ولما حملت بالحسن طرت من الفرحة ولما ولدته كان باسم الله ما شاء الله .. آية من الجمال ..

يتغيّر صوتها وتخرج كلماتها متكسرة ..

- لولا الحمّى وهو صغير .. تركته أخرس ..

- نحمده يا عالية .. غيرنا يتمناه .. أرجوك يا عاليه .. احرصي على الولد .. أصله طيب وقليل حيلة ..

- حاضر وربنا يكشف الغمة .. ريان قال أن النهر انخفض وحالته تحزن ..

لم يعلق على كلام زوجته واكتفى بأن جرع شربة ماء من القلة المجاورة للسرير وأغمض عينيه وطفر وجه ثريا البريء المغلوبة على أمرها أمامه وهز رأسه أسفا ولعن في قرارة نفسه أيوب وسيرته وجشعه في الامتلاك .. تنتظم أنفاسه فتسحب عالية باقي الحرام الثقيل عليه وتنهض متكاسلة .. برفق أطفأت المصباح وعادت للفراش وبذراعيها تضرب جنبيها لميمون الذي يغط في نوم عميق .. تمددت جواره وما بين الغفو والصحو تراودها أفكار مفزعة فاستعاذت بالله من الشيطان الرجيم واستحثت النوم فتعاطف مع قلقها وغمرها بأمواجه فاستجابت له وسبحت في بحوره العميقة .

***

(3)

يوغل الشتاء ببرده القارس فيزيد امتكاث الناس في البيوت ويبذلون كل غالٍ ورخيص لشراء الدقيق الذي ندر وجوده في كل نواحي القاهرة والفسطاط ولم تعد قوافل تجار الغلال تأتي سواء من الشمال أو الصعيد فركد حال المطاحن وأغلق الكثير من المخابز وحلت الحاجة والعوز كل بيت واعتمد الناس على أنفسهم في تدبير قوتهم الضروري الذي يسد أرماقهم اليومية فاختارت عالية قرطا ذهبيا قايضته بكيس دقيق صغير من إحدى قريباتها التي تعيش في ضاحية نائية بالفسطاط وعندما استيقظ ميمون وجدها تطرح أقراص العجين الصغيرة داخل الفرن وبالبشكور* تسحب المنتفخ منها .. من القفّة الصغيرة يتناول رغيفين ويلفهما بقماش ويذهب إلى بيت الشيخ رادع الكتامي .. برفق يقرع الباب وينتظر حتى يسمع عكاز جاره وهو قادم ..

- من ؟

- ميمون يا شيخنا .

يُفتح الباب فيطالعه الشيخ بقامته المديدة و وجهه الأسمر قليل اللحم .. كعادته يمسح لحيته الخفيفة .. يمد يده مسلما فيقبض ميمون على كف الشيخ الضرير ويجلسان على الدكة الصغيرة .. يضع ميمون لفة الخبز بين يدي الشيخ رادع الذي يتحسس ما بها ثم يميل بعنقه ناحية جاره ..

- شكرا يا ميمون لكن ابنتي سكينة أتت لي في الليل بالخبز ..

- لا شكر على واجب يا عم رادع وعلى كلٍ .. افطر.. العيش ساخن

- وأنت .. ألا تفتح دكانك ؟

- ولم يا شيخنا ومنذ أشهر لم يطلب أحد قرطاسا أو أنسخ له ورقة أو أجلّد كتابا ..

يقطب الشيخ حاجبيه ويمط شفتيه ويهم أن يقول شيئا لكن ميمون يواصل حديثه المتبرم ..

- تصوّر يا عم رادع .. آخر كتاب نسخته وتقاضيت أجره كان من سبعة أشهر ومن خمسة أشهر جاءني أحد تلاميذ داعي الدعاة وطلب مني أن أنسخ له كتاب الرسالة الوزيرية للوزير ابن كلس رحمه الله وأعطاني ربع الأجر ولم يأت من يومها..

- سألت عنه ؟

- سألت أحد رواد دار الحكمة فقال إنه من الجنوب وسافر لأهله ولم يرجع بعد فلم أكمل نسخ الكتاب ..

---

* البشكور : سيخ حديدي ذو طرف معقوف يسحب به الخبز من بيت النار .

- يعني الحال ..
- ضنك يا شيخ رادع .. حتى الشيخ أبو الحسن طاهر بن أحمد ..
يرفع الشيخ رادع حاجبيه متعجبا ..
- ابن بابشاذ النحوي ..
- نعم .. ابن بابشاذ .. لم يعد يرسل خادمه لشراء الورق والأحبار ..
- اسأل عنه بديوان الإنشاء يا ميمون ..
- لا أسأل ولا أجيب .. نحمده على كل حال ..
- صباح الجمعة صحبنا الشيخ عامر وصلينا صلاة الاستسقاء وربنا يكشف الغمة..
- يا رب ويبعد عنا السود الذين لا يكفّون عن الفساد وجمع المال ولولا أن دكاني للورق لنهبوه كحوانيت القماش والغلال ..
يهز الشيخ رادع رأسه في استنكار ..
- منذ أن جاءت بهم أم الخليفة التي منهم والفتن اشتعلت بينهم وبين الجند .. لعن الله من أيقظ الفتنة التي ستمزّق البلد ..
- ربنا يسترها .. أستأذنك يا شيخنا ..
ما إن يخرج ميمون الورّاق من بيت الكتامي حتى رأى ريان مقبلا نحوه يجر عربته وابنه يدفعها من الخلف فقطب حاجبيه مصطنعا الغضب وصوّب إليه نظرات العتاب
- غيبتك طالت يا ريان ..
يهز الرجل رأسه في ضعف ولحظ ميمون الأضمدة التي يلف بها ريان رأسه ولم يلبث أن بادر بحمل إحدى القرب ويفرغها في الزير المركون وراء الباب ويعود ملقيا القربة الفارغة على العربة ويتهالك جالسا على المصطبة .. يميل برأسه إلى الوراء وبجواره يقف ابنه صامتا فيشير ميمون إلى رأس السقاء ..
- ما هذا يا ريان ؟
يبتلع ريان ريقه وتنتصب رأسه ..
- ألا تطعم ولدي غيث فلم يأكل من الليل ..
يصمت ميمون ويلف ريان بنظرة حانية ثم انتقل إلى وجه الصغير الذي ارتسمت عليه إمارات الجوع .. ينادى على ابنه الحسن فأقبل من مخزن الورق .. بأصابعه أشار ميمون إليه بأن يصحب ابن ريان ليأكلا .. يهز الحسن رأسه فاهما ويقبض على معصم غيث الممصوص ويقوده للداخل .. يتردد الولد لكن إيماءة رأس أبيه تشجعه على الدخول .. يبدأ ميمون كلامه مستفسراً ..
- ضربك واحد من السود ؟

- السود ؟ آه .. أتمنّى يا شيخ ميمون أن تنشق الأرض وتبتلعهم هؤلاء السُرّاق قطاع الطرق ويدّعون أنهم أخوال الخليفة المستنصر تصوّر يا أخي .. أملأ للواحد منهم قربة فلا يحن عليّ بكسرة خبز !
تفتر شفتا ميمون عن ابتسامة خفيفة ثم نهض وغاب داخل البيت وعاد وفي يده طبق بلح .. يضعه على المصطبة جوار ريان فتناول بلحة ولاكها بين أسنانه واستبقى النواة ليستحلبها ..
- ماذا أصاب رأسك ؟
- كعادتي أملأ القرب من بطن النهر فلمحت من بعيد حمارا ميتا وموحولا في الطين فقرّبت منه رغم نتانته لكن منظر القراميط وهي تسبح وسط بطنه طمعني .. جاهدت حتى اصطدت قرموطين واستبشرت خيرا فلم نأكل اللحم أنا والأولاد وأمهم ما يقرب من أربعة شهور والله ..
يلتقط ريان أنفاسه ويهم أن يكمل لولا خروج عالية بطاولة عليها كوبان من النعناع الساخن فحملها ميمون واضعا إياها جوار طبق البلح .. يتناول ريان الكوب وتستدفئ أصابعه الباردة بسخونته .. يرشف مستمتعا برائحة النعناع فارتاحت نفسه المكلومة ..
- برغم البرد خلعت قميصي وأخفيت القرموطين .. وضعتهما على العربة وعليهما القرب وجررت الحمار نحو المدينة ..
يتناول ريان إحدى البلحات ويعقبها برشفة نعناع ويهم أن يكمل لولا خروج الشيخ رادع من بيته ويتجه مباشرة إلي بيت ميمون المقابل له .. يجلسه ميمون بجوار السقاء فيفاجئه برفع سبابته في وجه ريان لائما ..
- أربعة أيام يا ريان ولم تأت بالماء .. لا درهم لك عندي ولا دينار ..
يرفع ريان رأسه في إعياء..
- لا أريد درهما ولا دينارا .. قرصة خبز أحسن من مال الدنيا ..
يرفع ميمون كوبه ويقدمه للشيخ رادع ..
- اعذره يا شيخ رادع .. ريان تعرّض لحادثة وقلة المياه في النيل جعلت نقلها صعبا ..
يتقوّى ريان بدفاع ميمون عنه ويردف ..
- أي والله يا شيخ رادع .. المهم .. سحبت الحمار وسرت في الشارع ويخرج شحاذ أعرج من أحد شقوق درب الفقير .. مد يده واقترب فرأى القرب فهوّم برأسه وقبل أن يبتعد انفلت القرموط الملعون من القميص وقفز من تحت القربة وأخذ يلعب بذيله .. لمحه الشحاذ واتسعت عيناه فرحة وصاح : قرموط .. قرموط ..
خرج العديد منهم من الحارة الضيقة وأبعدوا القرب وسحبوا القرموط المنكوب وكشفوا عن رفيقه وأنا أضربهم فعاجلني أحدهم بضربة عصا على رأسي ووقعت ..
يقبض الشيخ رادع يده ويرفع حاجبيه ويهبطهما ..

- آه يـا ريـان .. لـو كنـت فـي شـبابي وسـيفي معـي مـا تجـرأ هـؤلاء المجرمـون علـى الاعتداء ولو على ذبابة ..
تعلو ضحكة ميمون وهو يعلق على قول الكتامي ..
- الزمن غير الزمن يا شيخ رادع .. زمـان النيـل كـان يفيض فلا تعـرف مـن أيـن يأتيك الخير أما اليوم فـ ..
يقاطعه الشيخ رادع ..
- حتى زمان يا ميمون وقبل أن تولد حدث نقصان في ماء النيل لكن لـم تحـدث فوضـى وسرقات كاليوم فقد كنت جنديا صغيرا أيام الخليفة المنصـور الحـاكم بـأمر الله وبـرغم هفواته إلا أنه كان صارما ..
ران الصمت على ثلاثتهم إلى أن قطعه ميمون بتلفته الفجائي ثم سأل ريان ..
- أين حمارك يا ريان ؟ فأنت الذي تجر العربة !
- حماري ؟ الله يرحمه فلم تسمع بـاقي الحكايـة .. عنـدما قمـت مـن غيبـوبتي لـم أجده .. لعلهم أكلوه ..
في حدة ينهض الشيخ رادع متوكئـا علـى عكـازه ذي الطـرف المعقـوف .. يرفـع سبابته وهو يزعق ..
- وحق فاطمة إنه إجرام ما بعده إجرام وسيقبض جنود الخليفة المستنصر على السرّاق جميعا وتقطّع أيديهم أمام أعين الناس ..
- يا سيدي .. جنود الخليفة الآن مشغولون بتوفير الطعام لقصر الخليفة .
- والأمن أهم من الطعام يا ميمون وإلا كيف يعيش الناس ..
- كلٌ منشغل بسد جوع بطنه ..
يخطو الشيخ رادع نحو بيته وهو يرفع صوته ..
- ثقوا بقدرة خليفتنا معد المستنصر بالله وسنخرج من هذه الشدة سالمين بإذن الله ..
يدخل الشيخ داره مغلقا خلفه الباب فيعود ميمون لحديثه مع ريان ولكن تيـار هـواء بـارد هبّ على الدرب جعل ميمون يلف عباءته الثقيلة حول جسمه فنادى ريان علـى ابنـه فلم يخـرج .. دخـل ميمون مخـزن الـورق فرأى الحسن وغيـث بـن ريـان يجلسـان متقـابلين وبينهما لعبة السيجة فابتسم لهما مخبرا غيث أن أباه يريد الانصراف فنهض الولد وسلم علـى الحسـن الـذي همهم بأصـوات عبثيـة ولعبـت أصـابعه داعيـا رفيقـه تكـرار الزيـارة وقبل أن يخرج غيـث وضـعت عاليـة بين كفيـه لفـة بهـا رغيفـان صـغيران وقطعـة جبن فأمسكها بيده وباليد الأخرى يمسك مركبا ورقيا أهداه له الحسن .. خرجوا فنهض ريـان وهو يحدق في اللفة التـي يمسكها ابنـه .. يأخذها منـه ويخبئهـا فـي جـوف إحـدى القـرب والحسن يبتسم لغيث ويرفع إليه يده ليودعه وبعدها أغلق ميمون الباب بالضبة والمفتاح

***

(4)

تنهي عالية نشر عباءة ميمون يجاورها سروال وقميص ابنها الحسن مستبشرة بالسماء المشمسة وتهم بمغادرة السطح فتلمح وهي على أول درجات السلم رفقة فأحجمت عن النزول مقتربة منها .. تلحظ الحزن المرسوم على قسمات وجه جارتها الصموتة فاستقبلتها هاشة وبادرتها بالكلام ..

- لم نتعوّد منك إلا على الابتسام يا أختي .. ما لك ؟

- الحظ الأسود يا أم الحسن ..

- سمحة والمقدس يؤنّس بخير ؟

- أبو بشير بخير لكن سمحة ..

- ما لها ؟ أنت قلت أن فرحها ..

تقاطعها رفقة وهي تحاول أن تمسك بآخر فرخة في القفص ..

- لا عريس ولا فرح ..

بكفها تضرب عالية صدرها فتخفض رفقة صوتها وهي تكمل ..

- خطيبها بعد أن وعدنا بمسكن في القاهرة رجع في كلامه وغرضه يسكن مع أهلة في سيوط وهدّد إذا لم نوافق على سفرها معه يفك ارتباطه معها ..

- يمكن ترتاح في بلده يا أم بشير ..

- لا يا عالية .. أنا وأبوها وافقنا عليه لما أكـّد أن تجارته هنا لكن يرجع في كلامه .. بصراحة أنا لا أستغني عن بنتي ..

- وبعدين ؟

- رفضنا رحيلها لسيوط ومن يومين قابل يؤنس وفك ومن ساعتها سمحة يا حبة عيني لم يدخل الزاد بطنها ..

تصمت الجارتان .. تلتقط رفقة المقشة .. تنشغل في كنس زبل الطيور الناشف ثم تمد يدها إلى القفص الجريدي الكبير فتدور الدجاجة الأخيرة حول نفسها لتنجو من أصابع سيدتها لكنها تسحبها من رجلها والفرخة تصيح في فزع .. تقعي رفقة على الأرض .. تكتف الفرخة الصغيرة وتمرر السكين على زورها الذي سحّ الدم على ريش رقبتها .. تتركها تتقلب حتى سكنت فسحبتها واستأذنت في الانصراف .. تابعتها عالية حتى ابتلعها ظلام السلم فهمّت هي الأخرى بالنزول فاستوقفها خروج ميمون من البيت .. تابعته بعينيها حتى تقابل مع رزق الحلاق فخرجا معا من الدرب .

*

على دكة خشبية يجلس ميمون أمام دكان الجزارة منتظرا حضور أخيه ولم يطل مكوثه فيقبل زيدان غاضبا وهو يضرب كفا بكف وبدون أن يلقي السلام يكز أسنانه وتخرج كلماته من بينها مشحونة بالغضب ..
- فاكر يا ميمون رطل اللحم الذي أخذته مني آخر مرة ؟
- من شهر على ما أظن .
- كانت جاموسة على وشك الموت ولحقتها بالسكين وأخذت أجرتي من لحمها ومن ساعتها لم أشتغل في اللحم ..
يطرق ميمون ويهز رأسه ..
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. نحمده على كل حال .. لكن يا زيدان أنا قلق على أخينا منقذ ..
- وصلك شيء عنه ؟
- من نقصان النيل ولم يحضر من أطفيح ..
- أكيد مشغول في الزراعة .
- الزراعة ! مع هذا النيل البائس ..
يقف ميمون ويدخل يده داخل عباءته ويخرج ورقة مطوية بعناية ويتلفت يمينا ويسارا ثم يدخلها في عب أخيه ويقترب منه هامسا ..
- رغيف وجبن يا زيدان ..
- لكن أنا ..
- أستأذنك يا أخي .. أراك على خير إن شاء الله ..
يلف ميمون الورّاق العباءة حول جسمه النحيل و يقرر العودة للبيت إلا أن هاجسا دفعه نحو دكانه فقادته قدماه للاطمئنان عليه .. انعطف في الشارع المؤدي إليه وما إن اقترب حتى يفاجأ بضلفتي الدكان مفتوحتين عن آخرهما فيجد في المشي ليستطلع الأمر و يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه وبنظرة فاحصة لحظ أن الدكان لم يُسرق منه ورقة واحدة .. تهالك على المقعد الخشبي وفجأة ضرب رأسه بكفه المفرودة وتذكر أنه تمشّى مع رزق المزين بعد أن فتح دكان الورق ثم رافقه إلى أول الشارع ووجد نفسه بالقرب من دكان أخيه زيدان فذهب إليه ..
أراح رأسه إلى الوراء ضاحكا وهو يحدث نفسه ..
- يا لعقلك يا ميمون يا ورّاق يا ابن الورّاق وأنا الذي ظننت أن الدكان سُرق .. فمن المخبول الذي يسرق دكان ورق و حبر ؟!؟
ينهض من فوره .. يخرج مغلقا الباب وعاد مباشرة لدرب الريحان إلى أن وصل إلى البيت ودخل ولم يجد عالية أو الحسن أمامه فوقف أمام الكانون القديم وظهره للجدار وأراح رأسه إلى الوراء وثبت عينيه بين فخذي الكانون الفارغين فبرق فجأة وجه أبيه

صـادق الـورّاق تـاجر القرطـاس والطومـار* وهـو يُجلس منقذ وزيـدان أمامـه أمـا هـو الأصغر فكان دائما يرتقى فخذ أبيه حول نـار الكانون وهم يتابعون إنضاج الطعـام .. مـا يزال صوت أبيه يرن في أذنه ..

- أصلنا من دقهلة .. ورثت تجارة الورق من جدودنا واستقر جدكم حمـدون الـورّاق فـي القاهرة أما أعمامي فما زالوا في دقهلة نزورهم في الأعياد ..

يغمض ميمون عينيه ويتمتم ..

- وكبرنا ومات أبونا صادق القراطيسي بعد زواج أخي زيدان بأيام ومع أنـه أكبـر منـي إلا أنه لم يرث تجـارة أبينـا فعمل قصـابا فـي دكـان جزارة لصـاحب أبـي ثم فتح لنفسـه دكانـا .. أمـا أخونـا الأكبـر منقذ فتـزوج مـن بنـت تـاجر الغلـة و عـاش فـي بلـده أطفيح وورثت أنا مهنتك يا صادق يا وراق وربنا يسترها علينا وعلـى أولادنـا .. ربنـا يسترهـا عليك يا حسن ..

- يا خبر .. ميمون .. قاعد تكلم نفسك ؟!؟

بحدة يلتفت لعالية الواقفة أمامه ووجهها تلفه بطرحة سوداء وتمسك في يدها لفة ..

- لا .. افتكرت سيرة عمك المرحوم صادق ..

- عمي صادق الله يرحمه عاش طول عمره شهم ولم ينقطع عن أهلنا في دقهلة ..

- لكن .. أين كنت ؟

- عند أم بشير أسأل عن سمحة ..

- ما لها ؟

- سخنة والقئ صفـّى جسمها ..

ينهض ميمـون منفضـا التـراب العـالق بعباءتـه و لـم يلبـث أن خلعهـا واضـعا إياهـا علـى المشجب ويستدير إليها سائلا ..

- أين الحسن ؟

- تركته هنا .. أكيد فوق على السطح .. حسن .. ولد يا حسن ..

ينزل الولد ويداه ملطختـان بـالطين ويمسـك بـين أصـابعه شيئا وكعادتهـا تشير أمـه إليـه بأصابعها وهي تحادثه ..

- تعال يا ولد ؟

تتسع ابتسامة الحسن ويرفع أمامها عروسة وحصان ما زال طينهما لينا فتأمره أمه بـأن يركنهما وتجره ليغسل يديه ولم تلبث أن تقبل يتبعهـا الحسـن فيجلس جـوار أبيـه .. تفـرد اللفة أمامهما وتجلس ليتناولوا كسرات من الخبز الناشف ..

---

* الطومار : الورق كبير الحجم .

- شكت أم بشير من وجع بطن سمحة فأعطيتها حفنة من النعناع اليابس فأعطتني الخبز والجبن ..
- وما مرض سمحة ؟
- الله أعلم من ساعة فسخ خطوبتها والبنت في انهيار وربنا يشفيها .. حتى تركتنا وطلعت السطح تشم الهواء ..
- طول عمرنا في الدرب لم نر من يؤنس إلا كل خير.. رجل طيب وصاحب واجب ..
- وأنا والله من يوم زواجي ودخولي الدرب كيف السمن على العسل مع رفقة وربنا يرجّع لهم ابنهم بشير .. المقدس يؤنس كبر وقالت لي رفقة أنه ما عاد يفتح دكان الخشب ..
يمط ميمون شفتيه وهو ينهي طعامه ويفرد ساقيه مرتخيا ..
- سمن وعسل ؟!؟ في زمنا الضنك لا فيه سمن ولا عسل ..
يقف الحسن وهو يلحس أصابعه ثم يذهب إلى غرفته ويلامس العروسة والحصان اللذين نشفا قليلا وابتسم في فرح لوجه سمحة الذي برق أمامه فعندما رأته الفتاة على السطح يحاول أن يشكل الحصان لكنه يفشل وبرغم الاصفرار الذي لاحظه على وجهها والنظرات الحزينة التي لمحها في عينيها إلا أنها طلبت منه أن تشكله هي وبعد أن صنعته عجنت الطين الباقي وعملت له عروسة .. يود أن يأخذهما في حضنه لكنه خاف أن ينكسر الحصان أو تتفتت العروسة ففرد ورقة من الطومار ووضعهما عليها أمام عينيه ويظل جفناه يرمشان حتى اهتزت صورتاهما أمامه وراح في نوم عميق .

***

(5)

- تصدقوا يا جماعة .. الحسن ابنى طلب مني حصان من الحلوى ولم أستطع أن أحضر له حتى إصبع هريسة ..

قالها ميمون وهو يخلع القبقاب وينحيه جانبا ويركن مصباح الزيت بضوئه الضئيل على المصطبة .. يجلس على الحصير الكبير المفرود بين بابه وباب جاره يؤنس يجاوره رزق المزين والشيخ عامر والمقدس يؤنس يتكئ بكوعه على المصطبة وينشغل عبد البر الغزّال بلف عصا المغزل وطي خيط الصوف الرفيع حولها .. أمامهم يجلس نصيف الإسكافي .. يهز الشيخ عامر رأسه وهو يطبطب على ساق ميمون ..

- يدبرها ربنا وحصان الحسن في الصبح يكون عنده ..

يلتفت إلى جاره الإسكافي ..

- غرضي يا نصيف تفضّل لي مركوب متين ..

يلتفت إليه نصيف وهو يضم ساقيه الرفيعتين بذراعيه ..

- ما في جلود وصلتني من شهرين وعدة الشغل مركونة وراء الباب

- ولا جلد غنم ؟

- والعذراء مريم .. الناس سلقت جلود الغنم الميتة وأكلتها ..

يحدجه عبد البر بنظرة امتعاض وهو ينهي طي الخيط ..

- على رأيك يا نصيف والله يا جماعة لفيت نواحي القاهرة والفسطاط وما لميت بالة صوف واحدة .. ومن يومين رأيت جماعة يسلخون نعجة في زاوية بعيدة عند جامع ابن طولون فاستأذنت منهم وجززت صوفها القليل الذي بين يدي ..

يفرد عبد البر يده بالمغزل فيهز يؤنس رأسه و يخرج من صمته وهو يشير بإصبعه ..

- ارحل للصعيد تجد الغنم و الصوف ..

- أمشي ؟ لا والله لا أخرج و لا أطلع من القاهرة .

يعتدل رزق المزين في جلسته وتزيغ عيناه بين وجوه جميع جيرانه من درب الريحان فيلحظ رمدا في عين نصيف .. مد أصابعه إلى وجه جاره الذي استسلمت عينه لأنامل رزق ولم يلبث أن أخرج من جرابه الجلدي الصغير قنينة وباعد بين جفني نصيف ونقّط القليل من السائل به فتلاقت رموش عين نصيف ومسح بقايا خيط السائل المنثال على خده .. رجع رزق بظهره إلى الوراء وهو يؤكد لهم ..

- السفر خطر يا جماعة .. قطّاع الطرق ما رحموا صغيرا ولا كبيرا والنهب والسلب في كل مكان خارج القاهرة ولولا الحرس لضاعت البلد ..

لم يعقّب أحد على كلام المزين رزق وشعر كل منهم في قرارة نفسه بالحصار وانقطاع الخبر عن أهله وذويه ومعارفه الذين يعيشون خارج القاهرة .. ينهض ميمون عندما يلمح الشيخ رادع الكتامي يخرج من بيته وهو يلف عباءته الثقيلة فيخطو نحوه ليقوده نحو الجلسة ..

- وأنا ما أعرف أمشي لوحدي ..

يبتسم ميمون وهو يُجلسه بجوار يؤنس ..

- العفو يا شيخ رادع .

يتربع الشيخ الكتامي ويُنيم عكازه جواره ..

- آه يا خونة .. تسهرون بدوني ..

يتبادل الجيران البسمات وكلمات المجاملة للشيخ رادع وتتقارب أجسادهم فيستدفئ كل منهم بجسم جاره ولم يلبث ميمون أن يدخل البيت وطاف بالقاعدين ذكريات الأماسي البائدة وترقّب الجميع بنفوس حالمة خروج ميمون بطبق البلح الكبير وطاولة الفطير وأكواب شراب النعناع التي تنعش سهرتهم وأطباق الزبيب والبليلة المحلاة بالعسل التي كان يهاديهم بها المقدس يؤنس .. يخرج ميمون ويضع وسطهم قلة الماء ويجلس أمام الشيخ الكتامي ..

- كنت أقول يا عم رادع أن الحسن ابني يطلب حصان حلوى بدل من حصان الطين الذي يلعب به ..

يحك رادع الكتامي ذقنه المدبب بأظافره وبدون أن يحرّك وجهه النحيل يلتقط الكلمات من تلافيف ذكرياته ..

- آه .. يا لمهابة الخليفة يوم خروجه على حصانه في عيد المولد النبوي الشريف فاتخذها صناع الحلوى عادة بأن يشكلوا حصانا من الدقيق المعجون بالعسل يركبه فارس يرفع سيفه يشبه الخليفة ..

يواصل الجميع صمتهم وكأن كلا منهم توقف عند محطة ذكرياته الخاصة إلى أن قطعه نصيف الإسكافي ..

- قل لي يا شيخ رادع .. الناس بطلت تذبح .. لفيت على كل الدباغين وإجابتهم هي هي : ما في جلود وصلتنا ..

- الناس جاعت يا نصيف يا ولدي وأكلت حتى جلود الذبائح ..

يتنحنح الشيخ عامر وهو يعقب ..

- بل جلود الجيف وحياتك يا شيخ رادع .

يرفع ميمون سبابته لأعلى ..

- ووصل بهم الفسق والفجور إلى أن يأكلوا لحوم القطط والكلاب حتى الخنازير يا إخوان الخنازير يا جماعة .. أخي زيدان قال لي أن القصابين صاروا يذبحون الخنوص ويبيعون لحمه ..
يعلو صوت رزق المزين ..
- لكن هذا نذير شؤم لانتشار الأمراض .. قلة الأكل والماء الراكد تهدد بالخطر ..
يتبادلون أطراف الأحاديث اللاغطة وتلتقط أنف ميمون رائحة عفونة من دلق الماء في الدرب الضيق فينهض منسحبا من بينهم داخل البيت فيدلف مخزن الورق .. يرى الحسن ينام مؤتنسا بالعروسة والحصان اللذين يضمهما في حضنه .. يفتش وسط الأوراق عن شئ قديم تذكره فجأة حتى قبضت أصابعه على الكيس الكتاني الصغير .. رفع غطاء المجمرة ورش حبات البخور عليها .. يميل المصباح الزيتي فيشتعل البخور ويخرج إليهم فعبقت الرائحة الزكية المطرح وارتفعت الأنوف تعب من نفح الطيب .. يجلس ميمون مكانه موجها كلامة لرزق ..
- هذا آخر بقايا البخور التي اشتريناها من الفسطاط .. فاكر ؟
لم يعقب أحد فابتسم ميمون وهو يفرد كفيه أمامهم ..
- معذرة يا جماعة .. ما في البيت حاجة نأكلها ..
يهز الشيخ عامر رأسه ..
- الحال من بعضه يا ميمون ..
يلف عبد البر الخيط حول إصبعه المفرود وبإبرة كبيرة مدببة يشرع في النسج .. يزر عينيه مقربا الدائرة التي بدأت تتكون من لهب المصباح وبدون أن يرفع رأسه ..
- لاحظتم يا جماعة .. هذه السنة لم يخرج الخليفة لجبر الخليج ..
تفتر شفتا رزق المزين وهو يردد ..
- جبر الخليج ؟ الخليفة ؟ أين هو الخليفة ؟!؟ سمعت أنه في قصره يخاف الجوع كما تخافه رعيته ..
بصوت واهن يقول الشيخ رادع الكتامي ..
- عند جبر الخليج .. كان الخليفة يركب على رأس عشرة آلاف فارس ..
يصمت الشيخ رادع ثم تنتصب رأسه فجأة ويرفع صوته :
- أنا كنت واحدا منهم .. وكل فارس منا فوق سرج موشى بالذهب فوقه غطاء حريري ثمين منقوش عليه اسم الخليفة والجمال يحمل الواحد منها هودجا مرصعا بالزينة والنقوش وفصائل الجيش تسير الواحدة وراء الأخرى تجاه مصب الخليج وكانت فرسان كتامة قبيلتي عشرين ألفا من الجند الكتاميين الأقوياء .. وأنا واحد منهم .. لا تنظروا لحالي الآن ..
يطبطب الشيخ عامر على ساق رادع وهو يبتسم ..

- صادق يا شيخ رادع .. قصدي أيها المحارب العظيم فارس كتامة .. أكمل ..
- يسير بجوارنا نحن فرسان كتامة فصائل المغاربة والمصمودة والأتراك والفرس وبدو الحجاز والسودانيون ثم العبيد والحجاب والشعراء والأطباء وأمراء مراكش واليمن والنوبة والحبشة ..
ينطق رزق متشجعا ..
- والخليفة يا شيخ رادع الخليفة ؟
يحدجه ميمون بنظرة مستفهمة ..
- ألم تشاهد مسيرة الخليفة يا رزق ؟
- بلى ولكن أبي كان يحملني وأنا صغير فأرى الموكب من بعيد ولكني لم أر وجه الخليفة في حياتي ..
من بئر الذكريات يرن صوت رادع الكتامي ..
- الخليفة كانت له طلعة بهية .. يرتدي ثوبا طويلا ناصع البياض ويركب بغلا مجردا من أي زينة يحيط به ثلاثمائة من الفرس والديلم سائرين على الأقدام يرتدون الملابس الموشاة و يحملون الحراب ..
- حرس الخليفة ؟
- نعم الحرس الخاص للخليفة وإلى جانبه يسير أحد كبار رجال الدولة حاملا شارة المملكة وعلى كلا الجانبين يسير الخدم وهم يحرقون البخور في المجامر وجميع الناس ينحنون إجلالا حين يمر الخليفة إلى الخيمة الحريرية عند مصب الخليج .
يشتد انتباه الجميع لحديث الشيخ الكتامي إلى درجة أنهم لم يتنبهوا لوجود ريان السقاء وقد وقف بالقرب منهم يحمل على ظهره ثلاث قرب فنهض ميمون وحمل منه إحداها ودخل بيته وأخذ يؤنس الأخرى وأفرغها في الزير خلف الباب بينما ذهب ريان بالقربة الأخيرة إلى بيت الشيخ رادع وغاب بالداخل ثم خرج وفي يده القربة الفارغة وجمع باقي القرب وجلس جوارهم فباغته الشيخ رادع بالسؤال ..
- ما أمر الماء يا ريان ؟
- الماء القديم ست أذرع وعشرون إصبعا .
يتبادلون الهمهمات ويعقب يؤنس وهو يصنع بإصبعه حفرة في الأرض ..
- كيريالايصون .. ألهذا الحد تراجع النيل ؟
يحدج عبد البر المقدس يؤنس بنظرة متسائلة ..
- يرحمنا ربنا يا مقدس والنيل يفيض .. لكن ما كيريالايصون التي ترددها يا مقدس ؟
- معناها كما قلت يا عبد البر .. يا رب ارحم ..

ينهض الشيخ رادع الكتامي فيساعده ميمون .. يقوم باقي الجالسين معلنين انتهاء السمر.. يسيرون متفرقين إلى بيوتهم وهزيم الريح الباردة تطقطق الأبواب الخشبية .. يطبطب ميمون بكفه على كتف ريان ..

- الله يلعنهم ..

تلتقط أذن الشيخ رادع الكلمة التى فاه بها ميمون فيميل بوجهه ..

- من يا ميمون ؟

- جماعة من المهووسين ضربوا ريان وخطفوا حماره ..

- بل قل .. جماعة من الجياع الموتورين .. أستأذنكم ..

بينما يدخل الشيخ رادع بيته يخرج المقدس يؤنس واضعا لفة الطعام في يد ريان وهو يهمس في أذنه ..

- اعذر أهل الدرب يا ريان عن أجرك ولا تنقطع بالماء عنا ..

يتناول ريان اللفة ويخبئها كعادته في أحشاء القربة ويستدير مغادرا الدرب ..

- الأجر عند الله يا مقدس تصبح على خير ..

يسير ريان مبتعدا ويهم يؤنس بالاستئذان من ميمون لكنه يستوقفه قابضا على ذراعه ..

- ما لك يا يؤنس ؟ من أول القعدة وأنت ساهم ..

يطرق المقدس رأسه وينفك لسانه بالحديث لجاره ميمون الذي يجلسه على المصطبة

- سمحة يا ميمون .. حالتها ساءت وسخنت الصبح ورجعت ما في جوفها ولم تهدأ إلا بعد أن أعطتها صابحة ترياق لوقف الغثيان ..

- وإن شاء الله الصبح تكون على ما يرام ..

- شكرا يا ميمون ولو يقدر زيدان أخوك يحضر لي رطل لحم بأي ثمن أكون شاكر فضله ..

- لا شكر بيننا وخيرك سابق لكن والله زيدان ما وقعت في قبضته ذبيحة من ..

- لا تكمل يا أبا الحسن .. ذلك متوقع ..

- والله لو أملك ما أعزه عليك .. نحن جيران من أيام الجدود .. ألم يبن أبوك المقدس بشير البيت و بنى جدي حمدون الورّاق هذا البيت الذي ورثه أبي ثم ورثته أنا ..

- نعم الجيرة يا ميمون يا ولدي ..

- وأعدك لو توفّر عنده لحم نظيف من غير ما تطلب سأحضر لك منه

- فيك الخير يا ميمون فيك الخير ..

تتلاقى نظراتهم الحانية ويتبادلان التبسُّم .. يدخل كل منهما بيته مغلقا خلفه الباب .

***

(6)

صراخ يشق سكون الليل فتهب عالية من نومها فزعة وعيناها تزوغان على طرحة رأسها فتسحبها لتستر شعرها وأيقظت ميمون فنهض متململا ولكن توالي الصرخات جعلته ينهض قاعدا ويفرك عينيه ..

- يا ساتر ..

تجيب عالية على عينيه المستفهمتين وهي تنهض ململمة ملابسها ..

- الصراخ من بيت يؤنس يا ميمون .

بينما تتلفع بشالها الصوف الثقيل ينهض ميمون منتعلا خفه ويتدثر بعباءته ويسير خلف عالية التي تلقي نظرة خاطفة على ابنها الحسن فتجده نائما بجوار أكداس الورق ..

فتحت الباب وخرجت و سحب ميمون باقي الحِرام ليغطي رأس ولده وما إن يخرج من الباب إلا ويلفه تيار الهواء البارد فيغطي أنفه بكم جلبابه .. يدلف بيت جاره فيطالعه رزق المزين وهو يهدئ يؤنس ..

- خير يا يؤنس ؟

بدون أن يحرك يؤنس رأسه الحاسر تخرج الكلمات متكسرة من بين شفتيه ..

- سمحة ماتت يا ميمون ..

يضم ميمون جاره إلى صدره ويطبطب على كتفه مواسيا فيبتعد يؤنس بغتة لاطما خديه وبقبضته يضرب الجدار ..

- يا خراب البيت .. بنتي ماتت .. عروستي ماتت ..

ترمقه عالية وهي تصعد في سرعة إلى غرفة سمحة فيسقط قلبها لرفقة التي تهز ابنتها والفتاة تجحظ عيناها وصابحة تجاهد في سحب رفقة بعيدا عن السرير ..

تدخل زينب زوجة الشيخ عامر ودميانة زوجة نصيف الإسكافي ويشتركن جميعا في إبعاد رفقة عن السرير حتى أخرجوها من الغرفة وبتؤدة تقترب عالية وصابحة من سرير سمحة نصف المغطاة ..

- قولي لي يا صابحة .. ماذا حدث ؟

- نادت عليّ رفقة يا أم الحسن وتبعتها إلى هنا وعندما وصلت كانت سمحة تنتفض وتهذي وبعدها شخرت شخرة كبيرة وطلعت لسانها .. لمست رقبتها لكن السر الإلهي طلع ..

بعين مغرورقة بالدموع ترمق عالية وجه الفتاة الساكن فتقترب منها وبكف مرتعش تسبل جفني سمحة وتسحب الغطاء على وجهها الشاحب .. تخرج تتبعها صابحة التى تغلق خلفها الغرفة بإحكام .. ببطء تنزلان السلاليم وصراخ رفقة يصم الآذان تشاركها أختها ونيسة التى حضرت لتوها فتهيل على ناصيتها التراب وقد احمرّ خد رفقة من

اللطم ولم تلبث أن تسقط مغشيا عليها فتحاول السيدات إفاقتها ودلقت إحداهن كوب ماء بارد على وجهها فتستعيد وعيها وتهذي بصوت مخنوق ثم تنهض مسرعة إلى السلم وتصعد إلى غرفة ابنتها ..
تمسح عالية الدموع المنثالة على خديها وتستشعر ألم بطنها فتنسحب خارجة من بيت جارتها إلى بيتها .. أثناء مرورها ترى لفيف الرجال قد زاد تجمعه أمام البيت.. تغلق خلفها الباب وتسرع إلى الكنيف لتريح مثانتها وما إن تخرج وتنشف يديها إلا وترفع رأسها في حدة - الماء ! كيف ستغسل المسكينة ولا يوجد ماء ؟
أحست بألم في ظهرها فقررت أن تستريح وفى الصباح تبادرلمساندة رفقة .. أطلت على الحسن فوجدته يغط في نوم عميق وتنتظم أصوات أنفاسه الغضة فاستلقت جواره .. فتح عينيه الناعستين وابتسم لحضن أمه الدافئ وعاد للنوم الذي داعب بدوره عيني عالية فاستجابت له وما بين الإغفاء والصحو يتسلل النحيب والبكاء من بيت جارتها فأخذتها سنة من نوم وانفرج جفناها فتناهى لمسامعها زغاريد تلعلع فكذبت أذنيها وظنت أنها تحلم بفرح سمحة لكن دقات الطبل صدقت على يقظتها فجحظت عيناها ونهضت تحملق في سكون الليل والزغاريد تتعالى فقامت متدثرة بشالها .. ذهبت إلى الغرفة الأخرى فرأت ميمون نائما بلا غطاء سوى عباءته .. سحبت على جسمه الحرام الثقيل وخطت خارجة من البيت فلحظت خيوط النهار تطارد فلول العتمة .. ألقت نظرة خاطفة على القاعدين حول المقدس يؤنس ودخلت البيت فزاد دق الطبلة وزغرودة مخنوقة تعقبها .. تصعد السلم وتطل على غرفة سمحة فتخشبت أمام الباب وسقط قلبها بين ضلوعها وجحظت عيناها التي رأت سمحة جالسة على كرسي تميل رأسها للخلف وقد ألبستها أمها رداء العُرس وخالتها ونيسة تزجج حاجبي الفتاة بالكحل وتمسح على شعرها ثم صرخت بزغرودة أودعت فيها كل معاني الثكل وهي تردد :

يا مـاشطة	مال شمعتك طفيت *
ليلي طويل	وعروستي نعست
يا مـاشطة	مال شمعتك مـالت
ليلي طويل	وعروستي نـامت

تنثال الدموع في مستقيمات غزيرة فتبلل شال عالية التي انخلعت روحها من هول المنظر وحضنت جارتها أم بشير التي أضحت على حافة الجنون ..

* من العديد المنتشر في مصر .

وبـرغم البـرد إلا أن الغرفـة المكتومـة تكـاد تزهـق الأرواح فخطـت عاليـة نحـو شـباك الغرفة وفتحته فجدد تيار الهواء الغرفة المخنوقة ورأت عربة ريان السقاء أمام البيت فوسوست في أذن صابحة التي هزت رأسـها واصطحبت معهـا دميانـة وأم مينـا ونـزلن جميعا ليسخن الماء ويبدأن في تجهيز عروس السماء .

يمر الوقت بطيئا وعالية تجاهد في تهدئـة رفقـة التـي تحـاول مـن آن لآخـر دخـول رواق ابنتها .. أشارت أم مينا بأن الأمانة جـاهزة فحمل رجـلان الصندوق وأرقدت السيدات الجسد داخله ودفعت رفقة الباب مرتمية على ابنتها وصابحة تحاول أن تبعدها فأمسكت يد سمحة وهي تهذي لكن المعزيات أبعدنها ورشت دميانة الحنوط علـى الجسد ودهنت وجهها بدهن البلسان* وتجاسرت الأيدي وأغلق بـاب التابوت المرسوم عليه الصليب .. يحمل الرجال الصندوق خارجين من البيت يتقدمهم القس داود وخـرج النعش مـن درب الريحـان إلـى الكنيسـة والمشيعون بـين محوقـل ومستغفر وراسـم للصـليب علـى صـدره ووجهه ..

*

من سطح البيت تطل عينا الحسن بن ميمون ويـرى أم بشـير باكيـة وهـي تشـير بمنـديل مفرود إلى الصندوق الخارج من الدرب ويرى المقدس يؤنس يلتف حولـه نصـيف و عبد البر فـأيقن أن التـي ماتـت هـي سمحة التـي عـرف مـن أمـه أنهـا مريضـة منـذ أيـام فانكسرت نفسه وأصابه الغم وشعر بـالغصّـة تخنـق صـدره وبكـي وهـو يـودع التـابوت بعينيه ولم يلبث أن نزل من السطح إلـى غرفتـه واحتضـن العروسـة والحصـان الطـين اللذين تشققا من التيبس وانهال يبللهما بالقبل ودخلـت عليـه أمـه .. جلسـت وهـي تمسـح وجهها بـالمنديل فمر بهمـا ميمون وهو خـارج من البيت ليلحق بـالجنازة .. ودعتـه عاليـة بعين تتقطرالدموع منها وبرغم بـرودة المطـرح وشـعورها بمعدتهـا تقرقـر مـن الجـوع إلا أن نفسها عافت الطعـام فأغلقـت البـاب ومالـت نحـو ابنهـا الحسـن واسـتلقت جـواره وكلاهما يحضـن العروسـة والحصـان .

***

* دهن البلسان : شجر لـه زهـر أبيض كهيئـة العنـاقيد مـن الفصـيلة البخوريـة ويسـتخرج منه العطر وينبت بعين شمس بظاهر القاهرة .

(7)

- أين كنت ؟
سأل زيدان القصّاب أخاه ميمون حين جلس جواره على الدكة الصغيرة ذات الألواح الملخلخة فأصدرت أزيز الاعتراض ..
- في قدّاس أربعين سمحة بنت المقدس يؤنس .. الرجل بعد موت بنته فرغ عليه الدار هو و رفقة ولا عاد يدخل ولا يطلع ..
- يا سيدي .. الله يرحم الجميع .. الـ ..
يبتر كلامه وقوف رجلين أمام الدكان وبيد أحدهما كيس سميك به كائن يخمش صوفه ويتفاوضان ثم أخرج أحدهما ثلاثة دنانير وأعطاهما لرفيقه الذي قبض على الدنانير وأسرع بالانصراف بعد أن سلم الكيس وما به للمشتري ..
تلفت الرجل حوله ثم خطا نحو زيدان وميمون و وقف قبالتهما مادا الكيس إلى زيدان ولم يلبث أن فتحه وأدخل يده مخرجا قطا نحيلا ..
- اذبحه يا عم زيدان واسلخه بسرعة وسأعطيك الورك ..
اتسعت عينا ميمون وفغر فاه دهشة وهو يتأمل الرجل ولم ينتبه إلا على صياح أخيه زيدان ..
- امش الله يلعنك ..
يرتبك الرجل وتزيغ عيناه فيدخل ضحيته في الكيس ويشد إزاره والقط يموء في يأس وينشب أظافره .. يبتعد الرجل في سرعة وهو يقول ..
- أهو رزق بدل عطلتك ..
يختفي الرجل في أول منعطف يقابله فيضرب ميمون كفا بكف ويلوذ بالصمت الذي يقطعه زيدان في صوت ممزوج بالحسرة ..
- الله يلعنك يا فاتك يا ولدي .. أكلتني لحم الكلاب ..
- كلاب ؟!؟
- رجعت البيت ومعدتي تأكل بعضها فشممت رائحة شواء فوجدته أمام الكانون يقلب شيئا على النار ثم وضع اللحم في طبق وبصراحة يا ميمون أكلت بنهم ونمت وصحيت وبطني تتقطع من الألم فدخلت الحمام أكثر من مرة وحسبت أنها لحم ميتة .. استحلفته أن يقول لي فأقرّ بأنها ورك كلب تقاسمه هو وأصحابه .. الله يلعنهم كلهم ..
يزفر ميمون نفسا مغموما ..
- يا ساتر يا رب .. كلب ؟!؟ الله يرحمك يا أمي .. ما كانت ترضى بفراخ السوق وكانت تذبح الطيور المرعية في البيت وتقول : بطنها نظيف ..

- الناس جاعت يا ميمون وقربت تنهش لحم بعضها .. وسمعت أن مخازن غلال اليازوري نفدت عن آخرها وحمل جند الخليفة ما تبقى منها إلى مطبخ القصر في حراسة مشددة وهجم أهل الفسطاط على المخازن لعل الواحد منهم ينال حفنة يصنع منها رغيفا لأولاده حتى كنسوا قعر المخازن .

- ارحمنا يا رب ..

- وأنت يا ميمون ؟ كيف تدبر حالك ؟

- نحمده يا أخي .. آخر بيضة في البيت أفطرنا بها الحسن ..

يصمت ميمون ويشاركه أخوه الصمت وسحابه من قلق تظللهما وتتجول عيونهما تستطلعان المارة القلائل في الشارع إلى أن تنحنح ميمون في جلسته ووقف مستأذنا من أخيه الذي يستمر في جلسته وهو يرنو إلى الساطور والسكاكين التي اعتلاها الصدأ ..

*

يمضي ميمون لدكانه فرآه من بعيد مفتوحا فثقلت قدماه لبرهة ظانا أنه نسي أن يغلقه لكنه تذكر أنه لم يفتحه اليوم أصلا فأسرعت خطواته نحو الدكان وما إن يقترب إلا ويفر شابان منه فوقف ميمون مبهوتا ودارت عيناه تستطلع بعض الأوراق المبعزقة والرفوف مرصوصة بأكداس القراطيس والطومار وقنان الأحبار.. ضرب ميمون كفا بكف وبدون أن يلج الدكان جلس على الكرسي .. يظل ساهما وطال تفكيره حتى أفاق على السلام الذي ألقاه الشيخ رادع الكتامي فرفع رأسه ليجد الشيخ يصحبه عبد البر الغزال ورزق المزين والشيخ عامر فوقف ميمون ودخل دكانه وخرج وهو يفرد بَرشا قديما من سعف النخل فيجلسون متقابلين ويبادئهم ميمون ..

- تصوّر يا شيخ عامر .. في وضح النهار.. لصوص يسرقون الدكان ..

- دكانك يا ميمون ؟

- نعم يا شيخ رادع ..

يبتسم عبد البر ويغمغم في صوت خفيض التقطته أذن رزق ..

- ماذا تقول يا عبد البر ومن مسعود الذي ذكرته ؟

تتسع شفتا الشيخ الكتامي عن ابتسامة عريضة ملأت وجهه الممصوص فيردف عبد البر وهو يضحك ..

- واحد من كبار رجال جد خليفتنا المستنصر .. الشيخ رادع يحكي لك عنه ..

- إنه العبد مسعود .

- العبد مسعود .. عبد ومن كبار رجال الخليفة ؟!؟

كررها ميمون وعامر في صوت واحد فيكمل الشيخ رادع ..

- كان في زمن الخليفة الحاكم بأمر الله عبد اسمه مسعود له .. له عضو عظيم وحين يمر الحاكم في الأسواق ويكتشف غشا في الأقوات أو خللا في الموازين وسرقة يأمر العبد مسعود بأن يطرح المذنب أرضا ويفعل فيه أمام الناس ..
ينفجر ميمون والشيخ عامر ضاحكين ..
- الآن عرفت لماذا كان أبي يقول أن أحوال البلد في عهد الحاكم كانت غاية في الانضباط ..
- آه لو عاش مسعود هذا في أيامنا لهلك من عقاب الناس ..
يضرب عبد البر الغزّال جبينه بكفه و يرفع صوته ..
- حكى لي جدي حكاية عن تاجر سفيه سيرته دنيئة كان إذا مرّ الحاكم بأمر الله في السوق يتبعه العبد مسعود تعمّد تعطيل الميزان أمامهما ..
يتمادى ميمون والشيخ عامر في الضحك إلى أن هدأ ميمون وهو يهز رأسه ..
- أضحكتني يا شيخ رادع بعد أن كنت مغموما .
- الفضل يرجع لعبد البر الذي ذكّرنا بآلات العقاب القديمة ..
- أكيد يا عبد البر جدك كان منضبطا في غزل الصوف وإلا ..
- لا .. جدي قدم إلى القاهرة في بداية عهد الخليفة علي الظاهر واشترى بيتنا بدرب الريحان ..
وكأن سيرة الدرب ذكرتهم جميعا بموعد الغذاء ومع أن بيوتهم تكاد تكون خاوية من الطعام إلا أنهم نهضوا في صمت مقررين العودة فأغلق ميمون الدكان على الورق المبعثر وترافقوا يتبارى كل منهم بذكر نكات مرت في حياته إلى أن دلفوا فتحة الدرب الضيقة فوجدوا حميد بن الشيخ عامر ينظف أمام البيت .. وقف يسلم عليهم وقبل أن يتفرقوا لبيوتهم فرد ميمون ذراعيه وهو يُشعر ..

ضحكنا وكان الضحكُ منا سفاهة   وحق لسكان البسيطة أن يبكوا

يبتسم الشيخ رادع ويسألهم ..
- من يا جماعة قائل هذا الشعر ؟
تبادلوا النظرات الحائرة إلى أن أجابهم ميمون الورّاق ..
- إنه شاعرنا الكبير أبو العلاء المعري .. ألا تعرفونه ؟!؟
يشيح حميد وهو يرفع المقشة أمام وجهه ..
- نعم لا أعرفه .. المهم الآن هو الشعير لا الشعر يا عم ميمون ..
تارة ثانية يتبادلون الضحكات وتفرّق كل منهم إلى بيته وقاد ميمون الشيخ رادع إلى البيت وتركه يطرق الباب وانتظر حتى فتحت سكينة ابنته واطمئن على دخوله ..
يدخل ميمون البيت تزين وجهه ابتسامة رائقة يجلس وهو يحادث نفسه بصوت مسموع:

- يا للشباب الذين لم يعد لهم اهتمام بشعرائنا العظام ..
تعجبت عالية من وجه زوجها الضاحك ..
- ما الذي يضحكك ؟
- آه .. اللصوص .. اللصوص أرادوا سرقة الدكان ..
تضرب عالية يدها على صدرها ..
- وهل سرقوا شيئا من البضاعة ؟
- بضاعتي لا يُسرق منها شيء .. أكيد كان غرضهم في دراهم ولكن عشم إبليس في الجنة .. و..
خبط على الباب فيخرج الحسن في سرعة من مخزن الورق ويفتح فتظهر صابحة زوجة رزق وتذهب إليها عالية ثم تعود وتلف رغيفين ناشفين في ورقة .. تعطيهما لها فتأخذهما وتنصرف .. تعود عالية مصطحبة الحسن إلى حيث يجلس ميمون وتجلس متربعة وتفض لفة قماش فتظهر ثلاثة أرغفة وقطعة جبن كبيرة .. تمتد الأيدي لتناول الطعام الشحيح .. تقول عالية وهي تطعم الحسن ..
- استلفتهم من أم بشير..
يهز ميمون رأسه مبتسما لأنه على يقين أن زوجته لن تستطيع رد ما اقترضته من جارتها و انقلبت الابتسامة إلى ضحكة فرد على عيني عالية المستفهمتين ...
- الناس أكلت القطط والكلاب .. أخي زيدان أكل من ورك كلب وهو الجزار الذي لا تخطئ أنفه رائحة اللحم وكان لا يقبل أن يذبح بقرة مريضة ..
- وابنه فاتك ؟
- فاتك هو الذي أتى له بلحم الكلب وشواه والمسكين أخي من شدة جوعه أكل منه ..
- ولد مخبول ..
- وعاطل مستهتر .. يغيب عن زيدان بالأيام ولا يسأل عنه ..
- وأخبار ابنه مصعب ؟
- غائب من سنين ولا خبر عنه .. أكيد حاله أحسن من زيدان وفاتك فمصعب جندي وآخر مرة عرفنا أنه في الإسكندرية ..
مرة أخرى خبط على الباب فنهض ميمون ليفتح وتنحّى جانبا لريان الذي يدلف ويفرغ قربة نصف مملوءة في الزير ثم يمضي ويفرغ الأخرى في قدر بجوار الكنيف ..
- الماء عكر يا ريان ؟!؟
الماء الصافي للشُرب في الزير والله يا شيخ ميمون حصلت عليه من بئر وسامحوني في الماء المعكر الذي بالقدر وعلى كل هو للاستنجاء ..
يهم في الانصراف فيوقفه ميمون واضعا في يده بعض الدراهم فيأخذها ريان وينصرف مغمغما ..

- قرص خبز أفضل من دراهم ودنانير الدنيا ..
يغلق ميمون الباب ويعود لعالية فينهض الحسن داخلا الكنيف ولم يلبث أن يخرج وهو يضع كفه على أنفه ويعود لغرفته ..
- رائحة الحمّام لا تطاق من قلة المياه ..
- ربنا يكشف الغمة والنيل يزيد ..
- آمين يا رب .. والله يا عالية غرضي أسافر عند أخي منقذ .. منه أسأل عنه ومنه نأتي بخير الأرض .. لكن الكل يحذر من ترك القاهرة .
لا تعقب عالية على كلام زوجها و من صندوق قديم تسحب مرمدة الكحل الصغيرة وترفع المكحل وتمر به بين رموشها .. ترفع المرمدة الفارغة أمام عينيها .. تعيد الغطاء وتلقي بها .. تتمدد على السرير وتشبك أصابعها خلف رأسها ويسمعها ميمون وهي تتحدث بصوت مسموع ..
- الله يكرمك يا أم بشير ..
- كيف حالها يا عالية ..
- ربنا يصبرها .. من ساعة موت سمحة وذبلت ..
- وبشير ولدها .. ألم يحضر ؟
- قالت أمه : السكك مقطوعة ولكن أكيد سيحضر عاجلا أو آجلا ..
في لا مبالاة يهوّم ميمون برأسة وهو يستلقي بجوار زوجته ويعطيها ظهره .. فطفقت تعبث بأناملها على شعر رأسه وتمر بكفها على ظهره الذي برزت عظامه في نتوءات يابسة لكن نفسه الممطوط يشي بأنه نام فشبكت أصابعها وهي تزفر وزكمت أنفها رائحة الحشية العطنة فسحبت الحرام لتغطي وجهها وهي تتمتم في تأفف ..
- يا لقلة الماء التي كادت أن تخنقني ..

***

(8)

في هدأة الليل والناس في نومهم الموجول وبيوت المدينـة تحلم بنـزول المطـر لينقذها من تلك الشدة التي أفلتت من خبايا الزمن الذي يضنّ يوما بعد يوم بالقوت.. يسير أربعتهم في حذر وعيونهم تستطلع الشوارع الخالية .. يختبئون خلف جدار بيت متهدّم ويأتيهم عبر الهواء صوت المؤذن الخفيض وهو يمط صوته ..

- حي على خير العمل ..

بعين حذرة يسرع أحدهم نحو دكان زيدان القصّاب .. تعبث أصابعه بالقفل ولم يلبث أن يفتحه ويدلف في خفة ويخرج و بيده كيس قماشي .. يغلق باب الدكان وتسرع خطواته إلى مخبأ أقرانه ..

- أنت غبي يا فاتك ..

لم يترك صُبيح لعيني فاتك الغاضبتين فرصة لأن يعترض فواصل تأنيبه ..

- عندما يفتح أبوك الدكان سيعرف أنك الذي فتحته ويتأكد أنك الوحيد الذي سرقته .. هيا ارجع واكسر القفل ليتوهّم أن الدكان سُرق لا فُتح بمفتاحه ..

يهز فاتك رأسه وقد اقتنع برأي رفيقه وبسرعة يهرول نحوالدكان وبضربة ساطور واحدة ينكسر القفل ويعود للخرابة مسرعا فتلفت شرار ليستطلع خلو الطريق .. يهز رأسه علامة التحرُّك فتركوا مكانهم وساروا متجاورين يقطعون الأزقة والشوارع الخالية التي أمست بيوتها خرائب صامته تنضح بالحزن .. استوقفتهم ذراعُ قانع المفرودة فثبتت أقدامهم وحدق فاتك لتخترق عيناه غبشة الصباح وبدون أن يدير رأسه ..

- هل ترون جنودا أمام قصر الخليفة ..

تدقق عيونهم النظر ويسمع شرار..

- لا ولكن لماذا جئت بنا إلى هنا وقد يطاردنا الحرس ؟

يهمهمون مصدقين على كلامه ولا يهتم فاتك برأى رفقائه ويشرع في السير فيميل إلى شارع جانبي ويختبئون داخل بيت مهجور ..

- تعرف يا أخي أنه لا يوجد بيت في القاهرة أو حتى الفسطاط يملك أرنبا فربما يمر علينا الآن أحد كبارالحرس يركب حمارا أو بغلا فنريحه منه ونسكن صراخ بطوننا

- أي والله يا فاتك عندك حق فالجوع يكاد يقتلني ..

- اصبروا يا جماعة فالصبر مفتاح الفرج ..

يلوذون بالصمت بينما تتهامس أمعاؤهم بألحان الجوع التي تعزفها من حين لآخر .. يمكثون حتى شعشع النور فتنتصب رقبة فاتك وبدون أن يلتفت لأصحابه اليائسين ..

- رزق الليلة يا رفاق ..

يلتفون حول فاتك الذي يشير فتتماوج الأشباح البعيدة ليميزوا رجلا ينزل من على دابته ويسلمها لغلامه الذي يقودها حتى يبتعد عن أبواب القصر .. يقبض الخادم على لجام الدابة التي وضحت أنها بغلة ويتلفت يمينا ويسارا ويقف حائرا تحت شجرة اللبخ منتظرا بين لحظة وأخرى خروج سيده من القصر .. فيهز فاتك رأسه وهو يعرّف أصحابه بصاحب البغلة . .

- إنه الوزيرأبو المكارم المشرف بن أسعد ..

يتكلم صبيح وهو يمسح بلسانه شفتيه اليابستين ..

- ولماذا يقف الوزير تحت شجرة اللبخ ؟

يرمقه فاتك ويعض شفته غيظا ..

- منذ قليل وصفتني بالغباء .. يا غبي الواقف تحت شجرة اللبخ غلامه .. الوزير دخل القصر وأكيد سيخرج سريعا ..

- ولماذا يقف الولد بالبغلة بعيدا عن القصر؟!؟

- لا أعرف فربما يخاف أن يخطف البغلة واحد من جند الخليفة .

يبتسم قانع وهو يردف ..

- جند الخليفة يسرقون الوزير ! يا لها من ..

يرفع صبيح سبابته فيلتزم الجميع بالصمت ..

- أنت قلت أن الوزير ربما يرجع بسرعة .. إنها فرصتنا ..

- فرصتنا ؟ أنت مخبول .. قد يقبض علينا حرس الوزير ..

- وأين هم حرس الوزير .. هيا .. ابق أنت يا فاتك هنا مع ساطور أبيك وسنحضر نحن البغلة ..

تقرقر أمعاء شرار وهو يرفع أكمام قميصة فيوكزه قانع ..

- اكتم بطنك وإلا ستفضحنا ..

- ليست ريحا بل معدتي تزغرد فرحا ببغلة الوزير ..

بإشارة من يد صبيح يتحركون وتتلصص عيونه الثعبانية المطرح .. يتقدمهم فيتبعه شرار وقانع حتى باغتوا غلام الوزير فيرفع صوته لكن قبضة صبيح أخرسته فتكوّم على الأرض وفي سرعة ينحني عليه شرار ويتأكد من أنه فقد الوعي ويمسك قانع اللجام ساحبا البغلة التي تدافعهم بحمحمتها الملتاعة وترجع بمؤخرتها للوراء فيلسوع صبيح ظهرها العاري بجريدة ناشفة ويشد ها قانع ويزيح شرار مؤخرتها فتركض حتى اقتادوها إلى البيت المهجور فلم يتمهل فاتك ورفع الساطور وهوى به على رقبة البغلة التي أمالتها فانحرف الساطور ليحدث جرحا غائرا في كتفها .. تجاسرت ذراعا صبيح فحضن بكل قوته ساقي البغلة الأماميتين وشرار وقانع سحبا الساقين الخلفيتين فوقعت البغلة وهي تعافر وتحيّن فاتك الفرصة وبالسكين الحامية ذبحها فنفرت الدماء

الساخنة من عروق رقبتها ملطخة ذراعيه لكنه يظل باركا على رأسها إلى أن همدت و سكن حافرها عن دق الأرض .
التقط فاتك أنفاسه اللاهثة .. نهض يشمّر عن ساعدية .. شرع يقطع وركها وأخرج صبيح مدية صغيرة ليساعده بينما بحثت عيون شرار و قانع عن كيس حتى عثرا علي تليس قديم ملقى تحت الجدار فأحضره شرار وتزيغ نظرات قانع في الطريق ويفرد كفه أمام عينيه ويزرهما فيرى الغلام ما يزال ملقى تحت الشجرة فيحثهم على الانتهاء ويسارع في فتح التليس فيدخل فاتك وصبيح الفخذ الضامر ويلتقط قانع المدية من يد صبيح ويشق صدر البغلة لكن فاتك يستحثه على مغادرة المطرح وينتظرون لوهلة ولم يلبث أن يمسح قانع يديه من الدماء وينضم إلى رفاقه ..
- وباقي البغلة يا فاتك ؟
يلتفت فاتك إليه وهو يكز أسنانه في غيظ ..
- اقنع يا اسم على غير مسمى .. الباقي رزق غيرنا والأفضل نمشي وبسرعة ..
يستطلع شرار الطريق ويسيرون بخطى واسعة ورائحة الدم تزكم أنوفهم ومشوا حتى انخرطوا في الطريق المؤدية إلى أرض الطبالة وفي زاوية نائية دلفوا بيت صبيح الذي اتخذوه وكرهم ..
يغلق صبيح الباب بإحكام فيُخرج قانع من بين ملابسة الرثة قطعة لحم كبيرة وطفق يرقص ويدور وهو يرفعها لأعلى فسأله صبيح ..
- ما هذا يا ابن اللئيمة ؟
- قلبها .. فإنه يحبني كما أحب أن أشبع بأكله ..
يتبادلون الضحكات وبخرقة قماش بالية يلف قانع القلب ويدسه داخل الحاصل ويشرع صبيح وشرار في لملمة الحطب ورص الجلة في الكانون .. يركن فاتك التليس الذي يتقطر الدم منه ويسحب الورك ويشرع في كشط اللحم وتقطيعه في شرائح ثم يقدح حجرين من الصوان فيتطاير الشرر منهما ليشعل النار في الأوراق الجافة .. يسحب صبيح شرائح اللحم ويقلبها على النيران التي بدأت تشتعل في عظام الذرة التي بالكانون .. ينهي فاتك تعرية عظمة الفخذ ويلقي بها بعيدا فيتلقفها شرار ويلحسها بلسانه.. يلتفت إليه فاتك موبخا ..
- اصبر.. اللحم على النار ..
قالها فاتك وهو يلف ذراعه على بطنه حين استشعر مغصا يكاد يقطع أمعاءه وتقلصت قسمات وجهه فأشار إليه صبيح بأن يصعد لأعلى .. ركب السلاليم وهو يتسنّد بذراعه على الجدارواختفى داخل غرفة منزوية على السطح .. يقعي مشلحا ملابسه فيزخ بوله القليل لكن أمعاءه لم تستجب وتتلوّى ويزيد ألمها الممض ..

تستطيل مدة مكوثه حتى تصله رائحة الشواء وأخيرا لفظ إسته ما كان يؤلمه فأخذ يغمغم ..
- كان لازم آكل من بقرة ميتة .. لحمها النتن أكيد هو سبب وجع بطني ..
تزيغ عيناه بحثا عن شيء فقبضت أصابعه على طوبة وأدار ذراعه ليستبرئ من إخراجه لكن ألم بطنه يعود مرة أخرى فيقرر البقاء ريثما يزول ..
تعبق رائحة الشواء المطرح فيمد قانع أنفه ليتشمم في خدر ويبادره شرار بتقديم كسرة خبز ناشفة فيلتقطها ويلجها في فمه الواسع ويتبادلون الضحكات منتظرين إنضاج شرائح اللحم ..
من بين ألواح باب البيت تتسمّع أذنان تخثرت الدماء حولهما الضحكات وتتفرّس عينان كليلتان في وجوه الثلاثة ولم يلبث كثيرا فتراجع مهرولا يقطع الطرقات الخالية حتى وصل قرب القصر فوجد الوزير أبا المكارم حوله لفيف من الجند تحت شجرة اللبخ وما إن برز الغلام حتى أسرع إليه الجند والوزير مستفهمين عما حدث ومن بين أنفاسه اللاهثة خرجت كلماته متقطعة ..
- سيدي .. سأخبرك بما حدث فقد أفقت ورأيتهم من بعيد وتبعتهم حتى دخلوا بيتا بالقرب من أرض الطبالة ..
تجحظ عينا الوزير أبي المكارم وهو يهز كتف خادمه ..
- والبغلة يا ولد ؟ أين البغلة ؟
- خطفوها يا سيدي .. هيا قبل أن يهربوا ..
استدعى كبير الحرس عددا آخر من الجند وقادهم الغلام إلى بيت صبيح ووقفوا أمام الباب ورائحة الشواء تعربد بين أنوف الجند الجائعين فصرخت أمعاؤهم التي أصابها سعار الجوع .. خبط أحدهم الباب فانفلقت الألواح وكبس الجند عليهم وهم يأكلون ..
- هؤلاء هم اللصوص الذين ضربوني سيدي الوزير ..
يستشيط الوزير غضبا وتنتفخ عروق رقبته وهو يجأر بصوته ..
- البغلة يا رعاع ؟ أكلتم بغلة بأكملها ؟
يلتزم ثلاثتهم الصمت وهم ذاهلون وننتش الجند اللحم من بين أيديهم وطفقوا يلتهمونه في شراهة فابتلع الوزير ريقه وعيناه تزيغان بين خاطفي بغلته والجند وأصدر أمره .. يكتّف الجند أيدي صبيح وقانع وشرار و يجرونهم خارجين من البيت ويعود حارس المؤخرة وهو يتلفّت حوله فتلتقط أصابعه باقي اللحم من الكانون ويدسه داخل عباءته ويلحق برفاقه تودعهم عينا فاتك المختبئ بين أطنان البوص الناشفة فوق سطح البيت .

***

(9)

يروح زيدان القصّاب ويجئ أمام دكانه والشرر يتطاير من عينيه .. يقبل عليه ميمون مسلما وبدون أن يرد السلام يرفع ذراعيه ويخبطهما في جنبيه ويزفر نفسا حارا ..
- تصوّر يا ميمون .. الكلاب كسروا الدكان و سرقوا الساطور والسكين وخطاف الحديد الذي أعلق عليه اللحم ..
- وفاتك أين الولد فاتك ؟
يضرب زيدان كفا بكف والغُصّة تكاد تخنقه ..
- متغيّب من أيام ولا أعرف له طريق ..
- اهدأ يا زيدان فدكاني أنا الآخر تعرّض للسرقة .. اقفل الدكان وتعال معي إلى البيت
- أقفلة ؟!؟ لم يعد به شيء غير الوشرة التي أقطع عليها اللحم ..
يبادر ميمون و يسحب بنفسه ضلفتي دكان أخيه الغاضب فيمد زيدان يده يائسا ويكمل إغلاقه وبحبل قصير يربط الضلفتين ..
يقوده ميمون إلى درب الريحان وما إن اقتربوا من فتحته الضيقة إلا ويسمعان دق الطبلة فتوقفا ولفيف من المارة يسيرون حول المنادي الذي يكرر :

يا أهل القاهرة .. دُم دُم دمُ دُم
من يُضبط في سرقة .. دُم دُم
يعاقب بالإعدام شنقا .. دُم دُم
مثل لصوص حصان الوزير
وتم ضبطهم بأرض الطبالة
يا أهل القاهرة .. دُم دُم دُم دُم

يكرر المنادي ويوليهم ظهره مبتعدا ويمضي خلفه حارس ممصوص التصق بطنه بظهره من الجوع .. يستدير ميمون وزيدان ويأتيهم صوت الشيخ رادع الكتامي من الخلف ..
- آه على الزمن .. منادي الخليفة يسير على قدميه وخلفه حارس واحد ..
يمد زيدان يده فيسلم على الشيخ رادع وعلى حميد بن عامر الذي يقوده ويكمل ميمون وزيدان سيرهما مع الشيخ ويجلسه ميمون على المصطبة فيبادره زيدان ..
- أرض الطبالة ! زرتها مرات واشتريت منها بهائم كثيرة ولكني لا أسمع به طبلا ولا زمرا ..
وكأن الشيخ رادع لم يسمعه فقطب حاجبيه وهزّ رأسه متحسرا ..

- غيط الطبالـة أمسـى مرتعـا للصـوص والخطـافين ! آه .. وزيـر الخليفـة أبـو المكـارم يسرقون حصانه ؟
- سمعت أنها بغلة يا شيخ رادع ..
يدخل ميمون البيت فيجلس حميد جوار الشيخ رادع ويسأله ..
- قل يا شيخ رادع .. كان فيه طبالة في الغيط ؟
- لها حكاية يا حميد .. ألم يحكها لك أبوك يا ولد ؟
يلوذ حميد بالصمت وكعادة الشيخ الكتامي لا ينتظر ردا فيخلع نعله ويتربع ويسند عكازه جواره ..
- زمان .. آه على زمان .. استولى القائد البساسيري على بغداد وخُطب هناك باسم الخليفة المستنصر بالله معد بن الظاهر أعزه الله .. فكان انتصارا لا يعدله انتصار وأقيمت الاحتفالات في القاهرة وتوافد الناس يهنئون الخليفة المستنصر وغنته نسب الطبالة :

يا بني العباس ردوا ملك الأمر معد
ملككم كان معارا والعواري تسترد

وهكذا أخذت تنشد وهي تضرب على الطبل فطرب المستنصر لها ووهبها أرضا كجائزة لإنشادها فعُرفت كل الأرض الخضراء في تلك الناحية بأرض الطبالة ..
يهز حميد رأسه وينهض مستئذنا وما إن يبتعد إلا ويخرج ميمون من البيت ويمسك بذراع الشيخ رادع ..
- هيا لنأكل .
دخلوا البيت وجلسوا متحلقين فدخل ميمون ليأتي بطاولة خشبية عجب على ما بها من طعام مكوّن من طبق صغير وخبز ناشف فوضعها أمامهما ودلّ أصابع الشيخ على الملوخية بعد أن وضع بين أصابعه رغيفا يابسا وأكلوا صامتين حتى فرغ الطبق عن آخره فأسند الشيخ رادع ظهره للجدار ومن حين لآخر تُسمع أصوات معداتهم تطلب المزيد .. يمسك ميمون كوب الماء ويعطيه للشيخ ..
- ألم يرجع زوج بنتك ؟
- جواد؟ سيعود قريبا فسكينة ذهبت اليوم لتنظف البيت .. وأخبار ولدك مصعب يا زيدان ؟
- الله أعلم يا شيخ رادع .. غيبته طالت كأنها بلا عودة .. يا ترى حي يرزق ولاّ ..
- لا تنطقها يا زيدان بالله عليك .. إن شاء الله يعود وتطمئن عليه .
ينهض الشيخ رادع معلنا رغبته في الانصراف ويعلو صوته بالنداء
- الحسن .. يا ولد يا حسن ..

لم يأت فيدخل ميمون لإحضاره فيرى الحسن يجلس على حبل غليظ من الليف مدلى كأرجوحة على باب مخزن الورق .. يبتسم ميمون لابنه الذي يتأرجح أماما وخلفا ثم يشير إليه فيثبت الحسن قدميه في الأرض ويتبع أباه .. يسلم على الشيخ الذي ينحني و يقبله ويدس يده في عباءته ويخرجها ممسكا قطعة حلوى يتلقفها الحسن في اشتياق ويصدر أصوات الفرحة ويدخل لأمه ..

يستأذن زيدان ليعود إلى بيته ويغلق ميمون الباب .. يدخل على زوجته ..

- من أين لك بالملوخية ؟

- اشتريتها .

- وهل يوجد في القاهرة أو الفسطاط من يملك حفنة ملوخية يابسة ؟

- بل وحفنتين من دقيق ..

- ممن ؟

- طلبت من أم بشير القليل من الدقيق فاعتذرت فقدمت لها العقد الذهبي فغضبت وعرضت عليّ أنا وصابحة أن نذهب إلى سيدة يهودية تعرفها تسكن بالقرب من خان القناديل فذهبنا وقايضت الدقيق بالذهب وأحضرناه والحمد لله .. لك أن تتخيل من وجدت عندها ...

تبتر عالية كلامها بعد أن لمحت قسمات الرعب التي ارتسمت على وجه زوجها والعبوس الصارم جعله يصرخ بغضب ...

- إياك يا عالية أن تذهبي إلى هناك مرة أخرى ..

- كان معنا زين بن رزق .. لم يرض أن يتركنا نذهب وحدنا .. المهم .. رأيت عندها أختي ثريا .. أعطتها سلسلة ذهبية كبيرة مقابل أرغفة مخبوزة .. تصوّر يا ميمون القاهرة والفسطاط لم يعد بهما قمحا وحلفتنا راحيل اليهودية زوجة لاوي التاجر المعروف بألا نخبر أحدا بأمر الدقيق الذي اشتريناه منها ..

- نحمده على كل حال .. اليوم قدرنا نقايض الذهب بالدقيق .. وغدا لا يوجد لدينا ذهب ..

- بل يوجد يا ميمون ولكن قد لا يوجد دقيق ..

مرة أخرى يرفع ميمون سبابته أمام وجه عالية حتى كاد إصبعه يلامس أنفها ..

- حذار يا عالية أن تعطيك أختك شيئا ..

- اطمئن يا ميمون .. بالرغم من أن ثريا تملك الكثير من الذهب إلا أنه لم يعد أحد يستطيع أن يفرّط في شيء..

- ذهب المقابر ؟!؟

- مات زوجها يا ميمون ولا أحد الآن ينبش القبور وهي لا ذنب لها فيما كان يفعله ..

- بل ابنها الأكبر يسير سيرة أبيه المخزية ويُعلم إخوته ..

تضيق عالية من كلام ميمون وكثرة تعرضة لسيرة أختها وأبنائها فتلوذ بصمت ملول إلى أن يقطعه ميمون ..

- وما أخبار المقدس يؤنس ؟

- مريض وهزيل ورفقة نفسها يبست من حزنها على بنتها وكانت تمشي معنا بصعوبة .

يخلع ميمون عباءته ويتمدد على السرير مطبطبا على معدته التي ألفت الجوع كما يألف الجنين بطن أمه وأخذ يغمغم ..

- ماذا لو انعدم الطعام .. آه .. ربنا موجود وقادر على كل شئ ..

تنتظم أنفاسه ويسبل عينيه الناعستين .. يخامره النعاس فينام على صوت معدته الساخط من قلة الزاد .

***

(10)

ينتصب فاتك واقفا ويفرد كفه أمام عينيه وهو يراقب ابتعاد الوزير وجنده يسحبون أصحابه فتراجع بظهره وقبل أن تلامس قدماه أول درجات السلم قبضت أصابعه على عصا غليظة ملقاة على السطح وبحذر تتلصص عيناه فناء البيت خشية أن يكون أحد الجنود ما يزال فيه لكنه تأكد من خلو المطرح فخطا نحو الباب وأغلق ما تبقى من ألواحه .. زفرت رئتاه أنفاس الحسرة على رفقائه .. وقعت عينه على الكانون وما يزال خيط من دخان يتطاير فتزكم أنفه ما تبقى من رائحة الشواء .. يغامر ويدس يده في الرماد الساخن لعله يظفر بقطعة لحم تكون قد اندفنت بين بقايا الجلة .. يسحب أصابعه اليائسة وينفضها وشعور بخيبة الأمل يكتم صدره .. يلمح الساطور الملقى تجاوره السكين ومدية صبيح فالتقطهم ومسح باقي الدماء اللزجة وبحبل رفيع يربطهم وفي الحاصل يلقيهم لكن عيناه لمحتا لفة قماش فيرتج صدره وهو يفردها ويطالعه قلب البغلة .. يعيد سترالقلب ويقف مقررا العودة إلي بيته فيهندم ملابسه الرثة ويتمنطق بحبل رفيع مجدول من الليف .. يثبت القلب داخل ملابسه لكنه تلبّث فترة يتحيّن خلو الشارع من المارة ..

يخرج من البيت مغلقا خلفه الباب وما إن يبتعد إلا ويسير معتدل القامة .. بعين ملأتها الريبة يرمق من حوله فيستطلع الوجوه الذابلة والبطون التي ضمرت وعيون الأطفال أمام البيوت ومن خلف الأبواب تبكي قلة الطعام ..

تتسكع خطواته حتى مرّ بدكان أبيه المغلق بالحبل .. يهز رأسه مبتسما لما سيقوله أبوه عندما يقابله وتهيأ لكلمات التأنيب عن غيابه المتواصل ..

يلتقط نفس الراحة عندما يدخل البيت ويغلق خلفه الباب .. يبتلع ريقه وينادي :

- أبي .. يا زيدان يا جزار ..

أجابه الصمت المطبق على المجاز فعبر إلى الفناء الصغير ومرت عيناه على باب الحجرة المفتوح يجاوره الكنيف الخالي والذباب يحوم حول فتحته العفنة .. يميل فيسحب صحنا .. يرفعه ويمسح التراب من قعره .. يحرر قلب البغلة من أسره وبالسكين طفق يقطعه في شرائح طولية ويرصها في الطبق .. يسحب غطاء الزير فيجد باقي الماء راكدا في القعر .. يغترف القليل ويغسل شرائح القلب .. يدخل يده في كيس صغير فتقبض أصابعه على بقية من نخالة .. يرشها ويشعل النيران بالكانون .. يرص الشرائح ويحرك قطعة خشب خفيفة في سرعة ولم يصبر حتى تنضج فتلتقط أصابعه شريحة ويقضمها في شهية فألهبت لسانه من سخونتها .. يظل متربعا أمام الكانون حتى أخرج كل الشرائح المشوية ورصها في الطبق وطفق يأكل واستبقى ثلاثة منها لأبيه .

يدب في جسمه تعب لم يشعر به طيلة المغامرة التي بدأها مع رفاقه منذ الفجر فتمدد على تليس قديم وتوسّد ذراعه وهو يتمتم ..
- أحمد ربنا .. غلام الوزير لم يرني وهم يهجمون عليه وإلا ..
ينتفض معتدلا فجأة ويحك رأسه بأظافره المتسخة فقد هاجمته الهواجس بأن الثلاثة قد يعترفون عليه ليبتغوا النجاة من الموت إن أقروا بأن فاتك هو الذي ذبح البغلة .. يمط شفتيه ويندم لأنه وثق بثلاثة من الجياع لم يتعرف عليهم إلا منذ بداية جفاف النهرو ندرة الأقوات عندما اصطاد كلبا فرآه صبيح وقاده لبيته بأرض الطبالة وتوثقت العلاقة بينهما إلى أن دله على بيت شوق وهناك عرّفه على قانع وشرار واتفق أربعتهم على اقتسام ما يقتنصونه .. لكنهم اليوم أمام موت محقق فغزت صدره كآبة الندم على الطريق الذي اختاره لحياته مع هؤلاء الضائعين وأخذ يغمغم ..
- استرني يارب واعم عيونهم عني ..
في لا مبالاة يهز رأسه وسحابة من يأس تظلله فعاود الاستلقاء مغميا عينيه بذراعه وما بين اليقظة والنوم يرى أصحابه وقد ركعوا وأيديهم مقيدة من الخلف وحارسو الوزير يرفعون أسيافهم ويهوون بها فتتطاير الرقاب وهو واقف أمامهم فتتدحرج الرءوس عند قدميه فتحادثه رأس صبيح ..
- تركتنا يا فاتك ؟ والله لنفتن عليك فيفتك بك حرس الوزير ..
يخرج قانع لسانه وهو يقول :
- أكلت القلب الذي أخذته .. إلهي يذبح قلبك يا فاتك ..
أما شرار فيرى رأسه تتدحرج والشرر يطق من عينيه المنتفختين تجاورهم رأس البغلة وعنقها الطويل تتقطر الدماء منه وفجأة تتقافز الرءوس لتهاجمه وتنشب أنيابها في بطنه وهو يصيح ويتلوّى ويحاول إبعادها ويصرخ ..
- آه .. بطني ..
يستفيق فاتك وهو يمسك بطنه من شدة الألم ويفز إلى الكنيف وهذه المرة استجابت أمعاؤه فتدفقت مخلفاته لتعبق المطرح برائحة سممت رئتيه فنهض فورانتهائه وخرج ملقيا بنفسه على التليس وهو يستعيد أحداث كابوسه المزعج ..
يلوى عنقه فجأة لانفراج الباب فطالعه الشبح النحيف وهو يغلقه ويسير نحوه فينهض فاتك ويسرع لاستقبال أبيه الذي يبادره ..
- فاتك ؟ الله يلعنك ؟ أين كنت يا ولد ؟
- على باب الله .. اجلس لنأكل معا .. أنا أحضرت لك ..
يقاطعه زيدان بنظرة غاضبة ..
- كلب ولاّ قط ميت ؟!؟
- قلب .

- قلب ميتة ؟
- والله يا أبي قلب ذبيحة وأنا ذبحتها بنفسي ..
يبتلع زيدان ريقه ويقعي أمام ابنه الذي يقدم له الطبق وبه الشرائح المشوية فيقربها زيدان وبأنف خبرت اللحم الطازج يهز رأسه مصدقا .. ينهمك في تناول الشريحة تلو الأخرى حتى فرغ الطبق ولأول مرة يستشعر حلاوة الامتلاء فمسح شفتيه والتفت إلى ابنه ..
- لا تترك البيت يا فاتك .. يا ولدي أنا كبرت ولولا عمك ميمون لمت وأنت لا تدري ..
- بعد الشر عليك يا أبي وها أنا أعود ..
- آه لو تكشف لي عن غموضك ولعلمك .. الدكان انسرق .
يصطنع فاتك الذهول ويرسم أمارات الدهشة على وجهه فيكمل زيدان كلامه بحزن ..
- أخذوا الساطور والسكين ..
يهوّم فاتك برأسه ويهم أن ينام لكنه جحظ عينيه حين استكمل أبوه كلامه ..
- وأنا مع عمك ميمون سمعنا أن اللصوص سرقوا بغلة والوزير وقبض عليهم ..
- وماذا فعلوا بهم ؟
- سمعنا المنادي يقول أنه حكم عليهم بالإعدام ..
تفتر شفتا فاتك عن ابتسامة استنكرتها عينا أبيه المستفهمتين فنهض وهو يهز رأسه عاجبا .. يفرد حصيرا قديما وينام بجوار باب البيت ويتوسد حشية صغيرة .. يتقلب فاتك محاولا العودة إلى النوم لكن نفسه التواقة لمعرفة أخبار أصحابه أبت أن تنام فمكث حتى نام أبوه ونهض منتعلا حذاءه الجلدي السميك ووقف أمام أبيه وبهدوء تخطاه وفتح الباب فانتعشت رئتاه للهواء الطازج .. يغلق الباب ويسير متوجسا في شوارع المدينة التي جن عليها ليل طويل ترجو أن تنفض كابوسه المخيف .

***

(11)

كأفعوان أسود يتسحّب بين الأزقة والشوارع متدثرا بسواد الليلة التي أُمحق قمرها فتمسح عيونه الثعبانية أبواب البيوت التي أمست خربة بعد فرار أصحابها بحثا عن الزاد .. من خلف باب مغلق يحس بحركة فتقبض أصابعه المتوترة على المدية ويتأهّب نصلها الحاد لأن يطعن أي مهاجم عليه ..

يظل سائرا إلى أن لاحت له من بعيد أرض الطبالة التي أمست عارية من الحياة فانحرف يمينا إلى بيت صبيح .. يدخل في سرعة ملتقطا أنفاسه .. يخطو نحو باب الحاصل الصغير أسفل السلم .. تمر أمامه أحداث النهار الفائت وشعر في قرارة نفسة برضا لأن رفاقه لم يفتنوا عليه وعض شفتيه حسرة علي مصيرهم وطفق يغمغم ..

- آه .. لو انتبه جنود الوزير لي وأنا بالسطح لكنت الآن معلقا بجوارك يا صبيح ..

من جوف الحاصل المعتم يسحب الساطور .. يضعه داخل جلبابه ويثبته بالحزام الليفي .. يمسك المقبض الخشبي السميك ويتلفت يمنة ويسرة .. يتلاقى حاجباه في غضب ..

- لا بد أن أحمي نفسي ..الجوع جعل الناس لا تفرق بين لحم الحيوان ولحم البني آدم.

يستحلب أنفاسه فتلتقط أنفه رائحة من بقايا شواء داعب معدته الظامئة فأطلقت خوار الجوع .. يبتلع ريقه ويستدير خارجا من البيت .. يسير وسط الشارع مبتعدا قدر الإمكان عن أبواب البيوت ونوافذها حتى إذا ما وصل إلى البيت المهجور الذي ذبح فيه بغلة الوزير أبصر بابه مواربا فدلفه في سرعة وهو يكتم أنفاسه ويتهيأ للهجوم على أي إنسان يباغته لكنه وجد البيت يغرق في الظلمة .. مكث حتى اعتادت عيناه الظلام وشعر برغبة عارمة لأن يريح مثانته فقرر أن يفعلها بجوار الجدار المقابل وأثناء سيره وخز ساقه شيء مدبب فرفعها ناظرا إليها في حدة فاتسعت عيناه للعظام المنتثرة .. حملق بشدة وانثنى جاحظا فمرت نظراته بجمجمة البغلة وظهرها وسيقانها عارية تماما وقد استلبت الأصابع الجائعة شذرات اللحم من بين المفاصل .. تزكم أنفه رائحة تخثر الدماء فينهض ووجهه للجدار .. يسمع خرير بوله النافر فيتعجل الانتهاء ويهيئ نفسه للخروج و قد بلغ الجوع مداه .. يبرز نصف وجهه فتظهر الأنوار البعيدة خافتة من شرفات القصر ونوافذه .. يخرج من البيت ويسير نحو الأشجار القريبة فيتخفّى وراء إحداها ولم يلبث أن يتركها ليستتر بالأخرى فرأى شبح حارس يشير لزميله بأن يتبعه ويأتيه صوته عبر الهواء الخفيف ..

- هيا .. لنصل الفجر ..

- لكن القائد أمر بألا نترك المكان حتى يدفنوا .

يشيح الحارس بذراعه في وجه رفيقه ويعلو صوته ..

- ابق أنت حتى النهار وسآتيك لندفنهم ..

ينصرف الجندي ويبقى الآخر وأصابعه على مقبض السيف ويروح ويجئ أمام الثلاثة المعلقين ولم يلبث أن يدخل الخيمة المنصوبة على مقربة من الأشجار العارية من أوراقها فيمرق فاتك ليستتر خلف الشجرة المقابلة لرفاقه ويرمقهم بعينه ..

- هذا شرار القصير وقانع الممصوص ..

تدور عينه فيرى صبيح بساقيه الغليظتين فيغمغم ..

- آه عليك.. لم يصبح عليك الصبح يا صبيح .. وهذا حارسكم بالخيمة .. كلكم لحم في لحم واللحم الطازج أفضل من لحم الميت ..

ومضت فكرة في رأس فاتك فعزم أمره على الهجوم و كقط متنمّر تحرك في خفة متجها نحو الخيمة وباغت الحارس الخارج منها وهوى على مؤخرة رأسه بالساطورفوقع والدماء ترعف من تحت خوذته .. يرفع الساطور لكن ذراعه الفتية أحجمت في آخر لحظة عن ذبحه وخفق قلبه للوجه الذي تعرّف عليه .. ترتعش شفتاه في تمتمة خافته ..

- سودون .. يا للمصيبة ..

رجع خطوة وخطوتين وابتلع ريقه في عجالة واحتار فيما يفعل فعاجله الحارس بتأوهاته المألومة فزاغت عينا فاتك بين أصحابه المعلقين و الحارس سودون صديق أخيه مصعب .. يستفيق الجندي ويضع كفه على رأسه المشجوج ..

بجسارة عزم فاتك أمره فرفع الساطور وهوى به باترا الساق الغليظة .. لفها بعباءة الحارس الملقاه وانطلق مبتعدا ..

ينهض الحارس والدماء تغرق ياقة قميصه .. استدار في قعدته فهرب ألم رأسه واتسعت عيناه وتدلى فكه في بلاهة ولم يلبث أن نهض وولي هاربا وهو يصرخ ويلتفت خلفه بين الفينة والأخرى حتى ابتعد وعيناه تودع الجثث المعلقة وقد بترت ساق إحداها .

*

- اعذرني يا صبيح .. الحي أبقى من الميت وأهي حاجة منك رجعت لبيتك ..

قالها فاتك وهو يفرد أمامه الساق المتخشبة .. يرفع الساطور ويهوي به على القدم وبالمدية طفق يكشط اللحم .. توهّج وجه أبيه في ذهنه فاتسعت ابتسامته لكنه أغمض عينيه وهو يعارض نفسه ..

- لا .. لن أطعم أبي الطيب لحم إنسان ..

يفرد القماش وينهمك في رص الشرائح المستطيلة .. تجمدت أصابعه وأحس بانكسار روحه .. يميل رأسه للوراء ودمعة تنحدر من عينه لتبلل شفته فيستشعر ملوحتها المُرّة وأخذ يلوم نفسه ..

- خطفت كلاب وذبحت سنانير كثيرة وسلخت جلود الحمير وأكلت الميتة وأخيرا بغلة الوزير لكن .. لحم إنسان .. إنسان يا فاتك ومن .. صبيح الذي لمّنى في بيته ..

يعض شفته ندما ويتمنّى لو يستطيع أن يعيد الساق فتدفن مكرمة مع صاحبها .. يغمض عينيه ويفتحهما ثم يهز رأسه في أسى .. فجأة يتيبّس وجهه عندما يلمح بطرف عينه ظلا يسبق صاحبه ينزل على السلم فقبض على الساطور وتأهّب للمعركة وانتتر واقفا فرآهما نازلين ببطء ..تواجهوا فرفع الغريبان أيديهما مستسلمين فبادرهما فاتك ..

- من هناك ؟

بشفة مرتعشة يجيب أولهما ..

- مثلك .. قرص الجوع بطوننا وسمعنا بخبر بغلة الوزير فجئنا نبحث عن باقي لحم ..

يزر فاتك عينيه وبدون أن ينزل الساطور يهوّم برأسه فيستكملان نزول السلم ويقفان على مقربة منه .. تتضح أمامه قسمات وجهيهما المنكسرة ومسحت عيناه جسديهما الممصوص .. أيقن أنهما أهون من أن يهاجماه .. حدج فاتك أطولهما بنظرة صارمة آمرا إياه ..

- أنت .. أحضر الحطب من السطح وأنت تعال معي ..

بينما يصعد الشاب الطويل السلم يقود فاتك الآخر إلى الحجرة الخلفية وفي سرعة ابتنيا كانونا صغيرا .. كسّر فاتك الحطب وألقاه بين دفتيه وأعاد إشعال النار ورص عليها شرائح اللحم والشابان ينظران إليها في اشتهاء .. يقلب فاتك اللحم على ألسنة النيران فيمد أحدهما أصابعه ليسحب قطعة لكن نظرة فاتك الصارمة تبعد يده .. يظل يقلب حتى فاحت رائحة الشواء فيتناهى لفاتك أصوات أمعائهم المقرقرة .. يسحب قطعة لحم احمرّت من الاحتراق ويسلمها لأحدهما ..

- اسمك ؟

- كاشر .. من القطائع ..

- كاشر ؟!؟ خفيت الأسامي على المحروسة أمك فلم تسمك إلا كاشر

- وأنت ؟

يتلقف الآخر نصيبه بين أصابعه وهو يبتسم على تعليق فاتك ..

- غراب .. ابن خالة كاشر.. وأنت يا أمهر الصيادين ؟

- أنا .. أنا .. زيد بن عبيد .

في صمت يتناولون الطعام وبالرغم من جو الحجرة الكتيم إلا أن ثلاثتهم استطابوا وهج نيران الكانون و يشعر فاتك بالاستئناس لوجودهما و قرر أن يستعيض بهما عن أصحابه المشنوقين .. ينهون تناول اللحم فيفاجئه كاشر بالسؤال :

- اللحم طعمه غريب .. بقري أم ..

يقاطعه فاتك ..

- جاموسة .. جاموسة يا كاشر كانت على وشك الموت فذبحها صاحبها ووزع لحمها علينا ..
- لكن طعمها غريب ..
- العلف يا أخي ..
يؤكد غراب كلام فاتك ويوجه الكلام لصاحبه ..
- كلامك صحيح يا زيد .. البهائم تغيرت من قلة العلف والعليق .. ما عاد فيه عود أخضر تتقوّت به ..
ينهي فاتك جدالهما بأن رفع أصابعه المفرودة أمام رفيقيه الجديدين .
- نتعاهد سويا على اقتسام ما نصيده مثلما فعلت معكما ..
تشرق إمارات الفرح على وجهي كاشر وغراب لمصاحبتهما فاتك الذي ضمن لهما جسارة الصيد وإسكات جوعهما فقالا بصوت واحد رن في فضاء البيت المعتم ..
- نتعاهد .

***

- شىء لا يصدقه عقل ..
قالها الشيخ عامر بصوت زاعق وهو مقبل عليهم .. يخلع عباءته .. يجلس على المصطبة العريضة أمام دكان ميمون الورّاق يجاوره الشيخ رادع الكتامي ويقف أمامهما ميمون وأخوه زيدان الذي يبادر عامر بالسؤال ..
- ما لك يا شيخ عامر ؟
- تصوروا يا جماعة ..
يسكت ضاربا كفا بكف وعروقه تنتفخ من الغضب ويكمل ..
- اللصوص الثلاثة الذين أمر الوزير بشنقهم لأنهم أكلوا بغلته ..
مرة أخرى يصمت فيداخل الشيخ رادع شىء من الضيق فيلوي رأسه تجاه صوت عامر ..
- ماذا حدث لهم .. فكوا مشانقهم وهربوا ؟!؟
- استيقظ الناس فوجدوهم عراة ..
يقاطعه زيدان متبرما ..
- من ملابسهم .. يا للمسخرة ..
- بل من جلودهم .. من لحومهم يا زيدان يا قصّاب ..
رجع زيدان بظهرة ليلاصق الجدار وانطبق فم ميمون فعجز عن الكلام بينما انفلت عكاز الشيخ الكتامي من بين أصابعه المرتعشة ..
ران الصمت على أربعتهم وكل منهم يدور في فلك خياله ما عانته جثث هؤلاء المساكين حتى ارتعشت شفتا ميمون وتسربت الكلمات من بينهما ..
- ألم يكن من الأكرم أن يدفنوا فور إعدامهم ؟
- أراد الوزير أن يجعلهم عبرة لغيرهم ..
- رأيتهم يا شيخ عامر ؟
- من بعيد يا أبا مصعب .. عظامهم مدلاة بعد أن نتش الجياع لحومهم بل وأحدهم يتطوّح بساق واحدة ..
- والحرس ؟
- الحارس أقرّ بأن أحدهم ضربه وعندما أفاق رأى ملثما يقطع الساق ويهرب بها ..
يتحسس الشيخ رادع الأرض ليستعيد عكازه فسبقه ميمون وناوله إياه فهب واقفا وهويرتعد ..
- وحق فاطمة إنها أشراط الساعة ..
يضرب زيدان كفا بكف ..

- بعد أن كنا نسلخ لحوم العجول والبقر والغنم ونعلقها أمام الدكان يُعلق البني آدم ويسلخ ؟!؟
يتهيأ ميمون لقيادة الشيخ رادع والعودة لدرب الريحان ويقول مؤكدا لهم ..
- حادث فردي يا جماعة و مجانين الجياع وجدوا اللصوص معلقين ومن شدة الجوع أكلوا لحومهم ..
لم يكمل ميمون الوراق عبارته إلا ويتناهى لمسامعهم جلبة آتية من أول الشارع وزعقات متداخلة واقتربت الثلة المتصايحة فرأوا امرأة سوداء تزم في صدرها لفة والناس يتدافعون نحوها وألسنتهم تتبذأ بأقذع الشتائم والطوب الذي تـُرجم به يسابق صيحاتهم حتى لحقها أحدهم وضرب ظهرها بعصا غليظة فانكفأت على الأرض أمام دكان ميمون وانفلتت لفتها القماشية متدحرجة تحت قدم الشيخ رادع الكتامي الذي يعلو صوته ..
- ماذا يحدث يا جماعة ؟!؟
في سرعة تهب المرأة من وقعتها وتنطلق هاربة يتبعها لفيف من الغاضبين .. يتحلق الواقفون حول اللفة المستطيلة التي أفلت طرفها ليظهر ساقا صغيرة محترقة .. تجاسرت يد الشيخ عامر و باعد بين القماش فتراجعوا مذهولين ..
- طفل .. طفل مشوي ..
كمن أصابه مسٌ شيطاني زعق بها أحدهم وجرى وهو يكررها ..
- ماذا أسمع يا ميمون ؟
مرة ثانية لم يتلق الشيخ رادع جوابا فقد جثمت جبال من الصمت والحسرة والحزن والخوف على الملتفين حول الجثة المشوّهة وأخيرا نطق الشيخ عامر وقد صبغ الألم كلماته ..
- يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف .. ولد من هذا المحروق ؟!؟
بصوت تقطعت أنفاسه يجيب أحد المطاردين للمرأة ..
- شممنا رائحة شواء خلف أحد الأبواب فاقتحم رجل البيت فرأينا المرأة السوداء تقلـّب الولد على النار .. و ..
يقاطعه الشيخ رادع بصوته الجهوري ..
- ليست علامات القيامة يا ناس بل إنها قامت بالفعل ..
تارة أخرى تظلل الجمع الواقف سحائب الصمت الثقيل .. تتجرأ يدا زيدان فتعيد لف جثة الرضيع ذي العامين ويشير لهم بأن يحفروا تحت جدار أحد البيوت فتشجعت الأيدي للعمل ونظر زيدان للقبر الصغير لكنه أمرهم بأن يعمقوه فعادت الكفوف تخرج التراب فجثا زيدان على الأرض وأراح الجسد الضئيل ومرة أخرى أهالت

الأيدي التراب في الحفرة الصغيرة حتى ردمتها تماما ووقف زيدان ينفض ملابسة وتفرّق الجميع مسترحمين ..

- ولد يا ميمون ..

- أنا بجوارك يا شيخ رادع ..

- لنعد إلى الدرب ..

يستديرون عائدين والشيخ عامر يهذي ..

- قلت على حكاية اللصوص حادث فردي يا ميمون ..

يخفض ميمون نظره وهو يتأبط الشيخ الكتامي وعند مفترق الطرق يستأذنهم زيدان في الذهاب لبيته ويستأنفون السير حتى وصلوا لدرب الريحان فيدخل الشيخ عامر داره وأوصل ميمون الشيخ رادع لبيته فيطالعه زوج ابنته سكينة ..

- السلام عليكم ..

- من ؟ جواد ؟ سكينة بخير ؟

يأتيه صوتها من الداخل ..

- أنا هنا يا أبي .. سأبقى معك الأيام القادمة ..

يستأذن ميمون منهم فيدخل الشيخ رادع والغُصّة تكاد تقتله فيحادثه زوج ابنته ..

- ذاهب في مهمة للخليفة قرب العريش ..

- العريش ؟ إنه سفر.. ماهي ؟

- للحين لا أعرف يا عم رادع .. احترزي يا سكينة .

- تعود بالسلامة و لا تقلق فسأكون في حماية أبي فارس كتامة ..

- قدّمي المشيئة يا ابنتي .. لا تقلق يا جواد وكما قالت .. ستكون في حماية فارس كتامة الأعمى ..

بحنو تحيط سكينة كتفي أبيها ..

- لا تقل هذا يا أبي فأنا عيناك التي ترى ..

ينهي جواد وداعه مشيرا إلى صندوق مركون بجوار الجدار ..

- وهذا الصندوق هو كل ما حصلت عليه من زاد لكما ..

ينصرف جواد مغلقا الباب على زوجته وأبيها وفي نفس كل منهما توجّس مما قد يحدث للآخر أثناء غيابه .

***

خبط متواصل على الباب فيفز ميمون ناهضا من فراشه ويطل من كوة الغرفة فتطالعه غبشة الصبح الوليد .. يلقي نظرة على عالية ويحسدها على نومها العميق .. يداخله شعور بأن القادم هو ريان السقاء وهيأ نفسه لمعاتبته على تأخره في إحضار الماء .. يفتح الباب ومن ضلفته المواربة يطل وجه جاره يؤنس بقسماته المنكسرة يقف واجما و تتلجلج الحروف بين شفتيه ..

- ميمون ..

- خير يا مقدس يؤنس ؟

- أرجو من أم الحسن أن تقعد مع رفقة أصلها مريضة وسأحضر صابحة ورزق ..

- سأوقظ عالية حالا ..

برغم من ضعف يؤنس إلا أنه خطا مسرعا تجاه بيت رزق ويدخل ميمون ليخبر عالية ففوجئ بها تتلفع طرحة خفيفة وتخطو في همة نحو الباب ..

- قمت لأشرب وسمعته ..

تدخل بيت جارتها .. تسرع إلى غرفة نومها .. تسمع أنينها .. تشعر رفقة بأنفاس عالية فتميل وجهها الواهن .. تقترب عالية حتى تقعي أمام السرير الواطئ .. بكفها تمسح جبين جارتها فتجدها حامية ..

- شدي حيلك يا أم بشير .. أنت في أحسن حال ..

تلتفت عالية حولها فتجد إبريق الماء على منضدة صغيرة وقطع القماش تجاوره فسحبت خرقة وغطستها في الماء وعصرتها وأسرعت بفردها على جبين رفقة التي تأوهت في ألم ورأت عالية شفتيها تتحركان فأصاخت السمع لعل رفقة تطلب شيئا فسمعتها تقول ..

- بنتي .. حبيبتي يا سمحة .. يحرسك الرب يا بشير يا ولدي ..

أدركت عالية أنه هذيان الحمّى فأبعدت رأسها وداخلها شيء من الضيق لتأخر صابحه فقطعت الوقت بأن أعادت الخرقة للماء وفردتها على خد رفقة المرتعش ..

تدخل صابحة تصحبها دميانة زوجة نصيف الإسكافي خلفهما يؤنس .. تضع كفها على رأس رفقة ولم تلبث أن تسحبها ثم تفتح الصرّة وتلتقط أصابعها قنينة صغيرة .. تقربها من فم رفقة وتدسها بين شفتيها في محاولة لإعطائها الدواء لكن الترياق اللزج انسكب على خدها فأبعدت صابحه يدها وأشارت إلى عالية و دميانة بأن يساعدنها في إجلاس رفقة لكنها أبت أن تقوم وأشارت بيدها أن يتركنها فأراحتها صابحة و نظرت إلى المقدس يؤنس وبدون أن يحرك وجهه ..

- من أول أمس لم يدخل في جوفها شيء ..

قالها المقدس وعيناه مغرورقتان بالدموع ثم ولاهم ظهره وضم كفيه أمام أيقونة للسيدة العذراء أسفلها صليب فضي معلق على الحائط وطفق يتمتم ..
أخرجت صابحة القليل من النعناع وأعطته لعالية لتغلية وما إن خرجت من الغرفة إلا وتسمع شهقة شديدة فعادت مرة أخرى ووقفت بجوار دميانة و صابحة التي ابتلعت ريقها في سرعة وانضم إليهن يؤنس لكن رفقة جحظت عيناها إلى سماء الغرفة ومال وجهها ناحية اليسار وهمدت حركتها تماما فاقترب منها يؤنس وهزّها برفق ثم قبض كتفيها بعصبية بالغة وهو ينادي عليها وعلا صوته فدخل رزق وأحاط يؤنس بذراعيه في محاولة لإبعاده وعيناه تسألان صابحة التي تهز كتف رفقة ووضعت أصابعها على عروق رقبتها ورفعت الجفن فطالعها البؤبؤ الساكن فهزت رأسها والدموع تطفر من عينيها ..
- ربنا يرحمها يا مقدس .. سلّم أمرك لله ..
ألجمت المفاجأة عالية فتراجعت حتى التصق ظهرها بالجدار ويصرخ يؤنس وينفلت من يدي رزق ويهز زوجته وطفق يحضنها ويقبل يدها وجبينها ورزق يحاول إبعاده حتى استسلم يؤنس وخرج من الغرفة وبكفها مسحت دميانة وجه رفقة وسحبت الملاءة عليه .. التفتت إلى عالية الواقفة خلفها بلا حراك فسحبتها وتقدمتهما صابحة وهي تغلق خلفها باب الرواق .
تجلس عالية على أول درجات السلم وهي تسند رأسها بكفيها وأحست بمن تجلس جوارها فرفعت رأسها لترى سكينة بنت الشيخ رادع وزينب زوجة الشيخ عامر فأمالت عالية رأسها للوراء وأغمضت عينيها وفتحتهما فاهتز أمامها القلب المعلق أعلى الجدار ورجعت بذاكرتها إلى الماضي منذ عامين حين أتت ونيسة أخت رفقة من ريف الفسطاط بقلوب النخل البيضاء وجلسن جميعا أمام عتبة البيت ليلة أحد الشعانين يصنعن القلوب المضفورة من السعف اللين ويفرح الحسن حين تلبسه سمحة خاتما صغيرا من السعف الأصفر الغض ..
تغمض عالية رموشها المبللة بالدموع وتفتحهما فيهتز أمامها القلب الذي يبس واصفرّت سعوفه فأعادت رأسها بين كفيها وسمعتها سكينة وهي تتمتم
- يرحمك ربنا يا رفقة .. يرحمك ربنا يا أعز الناس .

*

برفقة نصيف الإسكافي ذهب رزق إلى الكنيسة وقابلا راعيها القس داود وفي اقتضاب أخبره رزق بما حدث في بيت جاره يؤنس هذا الصباح فهز الأب داود رأسه وغاب ولم يلبث أن مضى معهما خلفه زوجته أم مينا و واحد من الشمامسة وقادهم رزق إلى درب الريحان فدخلت أم مينا البيت وبقي الأب داود وتابعه في

الشارع ووقفا أمام يؤنس الذي يلطم خديه ويهيل التراب على رأسه وبكلمات قليلة واساه ثم نهض موجها حديثة لميمون الوراق ..
- أكيد يا شيخ ميمون لا يوجد ماء ..
- أم الحسن قالت أنه لا يوجد إلا القليل في الزير ..
يوشوش القس في أذن الشمّاس فينصرف متعجلا يصحبه نصيف الإسكافي .. يفرد ميمون مفرشا على المصطبة ويدعو القس للجلوس فجلس بجوار الشيخ رادع الكتامي الذي يظل صامتا ثم يقبل عبد البر الغزّال والشيخ عامر و يجلسان بجواريؤنس ومن حين لآخر يعلو صراخ ونيسة أخت رفقة وسيدات الدرب يحاولن تهدئتها
يمر الوقت بطيئا إلى أن انتصفت الشمس في السماء فيقبل الشمّاس ويعاونه نصيف في جر العربة ويقفان أمام القس داود الذي نهض مشيرا لزوجته من داخل البيت بأن تحضر الأمانة فاقترب منه ميمون هامسا ..
- أين الصندوق ؟ ألا توضع في التابوت ؟
- سننقلها إلى الكنيسة وهناك ستجهز ويُصلى عليها ..
يعلو الصراخ ويضج البيت بالبكاء والعويل كلما اقتربوا من الباب بالجسد الملفوف حتى خرجوا به فساعدهم القس فى إراحته على العربة التي شرع الشمّاس في جرها يعاونه الآخرون ويؤنس يضع يده على جسد رفقة وسارت العربة حتى ابتعدوا عن البيت فيميل ميمون على أذن الشيخ رادع الكتامي ..
- ألا تأتي معنا ؟
- مرهق يا ميمون .. اذهب أنت ولا تترك جارك ..
لحقهم ميمون عند فتحة الدرب فقبضت سكينة على يد أبيها لتقوده إلى البيت ووقفت عالية أمام بيتها رافعة ذراعها وهي تتمتم بصوت باك ..
- مع السلامة يا رفقة ..

***

(14)

تحضر عالية طبقا به كسرات من الخبز المبلول بالماء فتضعه أمام زوجها وأخيه زيدان وعلى ورقة صغيرة سكبت القليل من الملح ..

- اعذرني يا أبا مصعب والله ما في البيت غير قرصين ناشفين وملح ..

- اعذريني أنت أني سأشاركم فوالله يا أم الحسن ما في بيتي خبز أو ملح ..

يشيح ميمون بكفه في الهواء وابتسامة خفيفة تزين وجهه ..

- لا تهتم يا زيدان .. فرج الله قريب ..

يتناولون الطعام الشحيح وعالية تؤثر ابنها الحسن بالكسرات المتبقية .. يهب واقفا ومن الزير القريب ينزح ما فيه من ماء حتى سمع ميمون صوت القعب الفخاري وهو يحتك بالقعر الفارغ .. يقدم الحسن القعب إلى أبيه فيشير ..

- اسق عمك زيدان أولا يا حسن ..

يجرع زيدان بلعة واحدة ويدور الماء بين ثلاثتهم فيشرب كل منهم نصيبة وما إن تركن عالية القعب على الأرض إلا ويتناهى لمسامعهم خبط على الباب فيجري الحسن لفتحه ويدخل ريان السقاء ويفرغ القربة نصف المملوءة ويرفعها عاصرا جلدها فتتلقف شفتاه قطرات الماء النازلة .. بكم جلبابه الممزق يمسح عرقه وبدون أن يستأذن يسير إليهم فتصحب عالية ابنها للداخل ..

- حملت القرب على ظهري طوال الطريق ..

- وأين عربتك يا ريان ؟

- استبدلتها بقرصة خبز .. ألا يوجد عندك لحم يا عم زيدان ؟

- تهذر يا ريان ..

يمد زيدان ساعده الممصوص لريان ..

- خذ لحمي ..

- تقول فيها .. سمعت أن جماعة من الجياع سكنوا عششا وسط مقابر المقطم وأخرجوا جثة دفنت حديثا وشووا لحمها وأكلوها ..

يشعر زيدان بالامتعاض في حين ألجم الخبر حنك ميمون فامتقع وجهه ولاذ بالصمت .. يهم ريان أن يروي حكاية أخرى فأشار ميمون إليه ..

- اسكت يا ريان .. ولدي الحسن قادم ..

يمد الحسن يده إلى ميمون فيسلم عليه ويشير بأصابعه سائلا عن غيث فيضحك ريان ويمسح على شعر الحسن ويخبره أنه في البيت .. يمد الحسن يسراه بنصف قرص من الخبز الناشف فتبرق عينا ريان لها ويتناولها ويدسها داخل ملابسة ..

- ألا تأكلها يا رجل ؟

- والعيال وأمهم لا يتعشون ؟ المهم يا شيخ ميمون .. الحسن ابنك لا يخرج ولا يطلع من البيت .. أنت مقدر تحذيري ..

- أكيد يا ريان وربنا يجملها بالستر..

يهم ريان بالانصراف فيتنحنح ميمون في جلسته لكن ريان يشير إليه بألا يتبعه ويحمل قربته الفارغة ويمضي خارجا من البيت فيلتفت زيدان إلى أخيه ..

- الدنيا لم يعد فيها أمان يا ميمون .. رأيك ؟.. نرحل عند أخينا منقذ في الصعيد ..

- إلى أطفيح ؟

- منه نطمئن عليه ومنه نجد عنده القوت ..

- بل وتساعدونه في زراعة الأرض ..

يأتيهم صوت عالية المقبلة عليهم فتقف خلف ابنها الحسن وهي تمسك قطعة من الورق المقوّى وتهوّي بها على وجهها ووجه الحسن في ذلك النهار الحار وتكمل مؤكدة كلامها ..

- وعلى الأقل جو الريف أهون فنحن في بداية برمودة * تخيـّلوا عندما يهل علينا بشنس* و بؤنة *..

- وهناك الأمان يا أم الحسن .

يصمت ميمون مفكرا في كلام زوجته وتشجيع أخيه وزاغت نظراته بينهما فهز رأسه مستنكرا ..

- ونترك القاهرة ؟!؟

- والخطر الذي يمر بنا كل يوم ؟

- نواجهه يا زيدان لا أن نهرب ونترك غيرنا يقاسي والبلد بها خليفة نعاونه على تحمُّل الهزاهز ..

- غيرنا الذي تتحدث عنه هرب .. أين عبد البر الغزال ونصيف الإسكافي وغيرهم وغيرهم رحلوا إلى الإسكندرية أو الصعيد هاربين من الجوع والمرض ..

في لا مبالاة يهوّم ميمون رأسه ..

- عشنا طول عمرنا يا زيدان ننعم بمغانم القاهرة و رخائها فلا يجب أن نهرب من مغارم شدتها .. على العموم .. ربك يدبّرها ..

ينهض زيدان مقررا الانصراف ويخرج صوته بمرارة ..

- أستأذنكم .. يمكن فاتك يكون رجع البيت .

- أغلق الباب خلف عمك يا حسن ..

---

* برمودة . بشنس . بؤنة : من الشهور القبطية .

يسير الحسن جوارعمه حتى يخرج من البيت فيرقب ظهره المبتعد وعندما يهم بالدخول يستوقفه المقدس يؤنس متوكئا على عصاه ..
- أبوك هنا يا حسن ؟
يهز حسن رأسه مرات علامة الموافقة فيشير المقدس بيده لأن يناديه فيجري الحسن داخلا البيت ولم يلبث أن يخرج ميمون ..
- مرحبا أبا بشير .. تفضل .. ادخل من الشمس .
- بل تفضل أنت معي يا ميمون .. أريدك عندي ..
يصحب يؤنس جاره إلى البيت مغلقا خلفه الباب ويشير إليه بأن يدخل غرفة نومه وبسحنة موسومة بالحزن يركن يؤنس عكازه بجوار السرير ويجلس يجاوره ميمون
- خير يا أبا بشير ؟
يهم أن يتكلم لكن سعلاته تعلو من صدره المشروخ ويتفل في المنديل .. يتأوه قبل أن يتكلم بصوت متقطع ..
- اسمع يا ميمون .. أنا واثق في أمانتك يا ولدي والله يرحم أباك كان أخلص جار ولو حسبت له إنقاذه لحياتي لكفى ..
نوبة من سعال حاد تهاجمه فيكح بشدة .. يفتح قنينة ويشرب منها فيهدأ صدره ويمط شفتيه وهو يلتقط أنفاسه ويهم بإكمال حديثه لكن ميمون هو الذي يبادئه ..
- إنقاذ حياتك ؟
- نعم يا ولدي فمن زمان ونحن شباب كنت أنا وأبوك صادق الوراق راجعين من دمياط على سفينة محملة بالخشب فاختل توازني ووقعت في الماء وبسرعة البرق سبح صادق خلفي وأنقذني من الغرق ..
تتسع حدقتا ميمون وهو يحملق في وجه جاره الذي يروي حدثا يسمعه لأول مرة ويخرجه من صمته صوت يؤنس المتكسّر ..
- العُمر يتنهي يا ميمون وابني بشير غائب ..
- العُمر الطويل لك وإن شاء الله يرجع بشير بالسلامة .
يسحب يؤنس جرابا صغيرا من الكتان ويفتحه ويسحب ورقة مطوية ويقدمها لميمون الذي يتناولها فيسحب ورقة أخرى ..
- حجة البيت يا ميمون وهذا حساب بمالي عند تجار الخشب .. أعرف أن التجارة خربت والكل همه اليوم توفير قوته لكن للزمن
يناول ميمون الورقتين ويفاجئه يؤنس بيده الممدودة بمفتاح ..
- مفتاح البيت ؟!؟ وأنت .. ألا تخرج أو تدخل ؟
- أنا مريض يا ميمون ولن أترك البيت وأنت عليك أن تفتح وتطمئن علىّ ..
- لكن ..

يقاطعه يؤنس بصوت محزون ..
- ولو مت .. اعط الحجة لابني بشير إن رجع ..
- سيرجع إن شاء الله يا أخي ويرعاك بنفسه ..
- سيرجع .. بمشيئة الرب ورعاية العذراء ..
قالها يؤنس وعيناه ذاهلتان .. يميل نائما على السرير فيعاونه ميمون ويفرد عليه ملاءة خفيفة تقيه البعوض والذباب الحائم في الغرفة ..
- سآتيك في الليل وأطمئن عليك ..
يتأوه يؤنس ويميل رأسه إلى ميمون وهو يشير ..
- وأنت خارج خذ الصرة التي هناك ..
يهز ميمون رأسه ويقبض على الصرة الصغيرة وعند باب الغرفة يلقي نظرة أخيرة على وجه جاره ثم يمضي خارجا من البيت ويتأكد من إغلاق الباب ..
يدخل البيت مارا بمخزن الورق فيرى الحسن يلعب بالدمى الطينية .. يجلس أمام زوجته ويفض الصرة فتتسع ابتسامة عالية لمرأى الأرغفة الأربعة وقطعتي الجبن .. تعيد عالية ربط الصرة وتضعها في خزنة صغيرة بالجدار ..
- فيك الخير يا مقدس يؤنس .. الحمد لله .. ضمنا عشاء الليلة .. الله يرحمك يا رفقة .. طول عمرها مدبرة وتعرف تخزن الجبن ..
يتمدد ميمون فاردا جسمه تجاوره عالية تمسك بالورق المقوى تحركها يمنة ويسرة لتستحث الهواء عليهما .. رويدا تغمض عينا ميمون ويعلو غطيطه في هجعة القيلولة عازما على أن يعود جاره الكريم فور استيقاظه .

***

يشعر يؤنس براحة تدب بين أوصاله الهرمة .. يشبك أصابعه خلف رأسه ويغمض عينيه ويفتحهما .. يميل عنقه ناحية اليسار فيطالعه لهب الشمعة المتراقص ينير بضوئه الشحيح أيقونة معلقة من الخشب الملون للسيد المسيح .. تداخله الطمأنينة فيتمتم ..

- يا أبانا .. اشملنا برحمتك .. احفظ ابني بشير .. ارحم ابنتي سمحة وزوجتي رفقة .. آه عليك يا رفقة .. نعيش أياما لا نجد في بيتنا الماء لتجهيزك للقاء الرب ..

يصمت وتتشابك رموشه المبللة بالدموع وتتماوج أمامه وجوه أهل الدرب وهم يسيرون خلف جثمان رفقة حتى الكنيسة و دخلوا باحتها الواسعة وعند باب غرفة جانبية اعتذر الأب داود عن دخولهم فصحبت دميانة وأم مينا الجسد للداخل ولم يطل الوقت ويُفتح الباب ليدخل الشمّامسة حاملين الصندوق المغلق متجهين للصلاة فيستوقفهم يؤنس ويرجوهم أن يلقي عليها نظرة أخيرة فيشير القس داود بيده ويُفتح الصندوق وتنقبض قسمات يؤنس وتتعرج الدموع بين أخاديد وجهه ويمر براحته على شعرها المبلل فيعيد القس غلق الصندوق وينهي صلواته ويطلب أن يُؤخذ العزاء في فناء الكنيسة فيقف يؤنس يجاوره القس داود ويأبى ميمون إلا أن يقف جوارجاره الأثير ليتلقّى العزاء ..

يخرج المعزون من باب الكنيسة يتقدمهم ميمون ويغلق الشماس بابها الكبير و القس داود يواسي يؤنس وبإشارة من يده إلى أتباعه فحملوا الصندوق إلى باب مغلق في آخر الباحة .. يفتحه القس داود فيدلف يتبعه الرجال حاملين الصندوق ويقطعون دربا قصير يؤدي إلى فناء واسع تظلله أشجار يبست أوراقها في وسطه صليب كبير من المرمر.. وقفوا أمام باب خشبي سميك تعلوه مصطبة عريضة بطول الفناء فتحه القس داود ونزل أحدهم لاستقبال الصندوق الذي أمالته الأيدي ليلج فتحته المعتمة ولم يلبث أن خرجوا ليُغلق باب المقبرة .. يطبطب القس على كتف يؤنس وهو يقوده للخروج ..

- مع المسيح فذلك أفضل جدا ..

مع المسيح ذلك أفضل جدا .. يرددها يؤنس وما تزال عيناه معلقتين بالأيقونة التي تحيطها هالة من ضوء الفانوس المعلق فوقها ..

- آه على زمننا .. أصبحنا ندفن موتانا في الكنيسة خوفا عليهم من اللصوص والجياع .. أنت الآن في أمان يا رفقة ..

يصمت ملتقطا نفسا عميقا ويحادث نفسه ..

- آه لو مت ولم يحس بي أحد ..

قشعريرة تهز جسده النحيل عندما راودته هذه الأفكار لكنه أخذ يطمئن نفسه بأن ميمون سيزوره فهو لا يخلف وعدا وعده أبدا لكن القلق ينشب أنيابه في نفسه الكسيرة عندما هاجمته الهواجس مرة أخرى ..

- ولو ميمون رحل إلى أخيه في الصعيد أو .. أو مات .. وحق الرب لن يعرف بأمري إنسان وأبقى وحيدا ينخر المرض جسمي وأموت وتأكلني الفئران ..

ترتعش أطرافه ويزدرد ريقه .. يسكن برهة ثم يسحب قفة صغيرة من تحت السرير ويجلس .. يتناول الخبز الناشف والجبن فيشعر بمرارة الطعام في فمه .. يشرب القليل من الماء ثم تجحظ عيناه للانقباضات الحادة التي تهاجمه فيضغط بأصابعه على ضلوعه ويكز أسنانه من وخز السكاكين التي تنغرز في صدره .. وكأن الزمن توقف فشعر أن أزمته لن تنتهي .. تتلاحق أنفاسه ويغمض عينيه ويفتحهما فيبصر الصندوق الصغير أمامه .. يزحف نحوه ويفتحه في حدة ويخرج قنينة الدواء ويجرع كل ما فيها من ترياق ويتمطط على الأرض متمسكا بالصبر إلى أن هدأت الأزمة رويدا وانسحب الألم تدريجيا .. تنتظم أنفاسه ويغفو لدقائق ينهض بعدها في خفة ويلمح القنينة الفارغة ..

- الدواء نفد ولو رجع ألم صدري لن يسعفني أحد ..

يرتدي ملابس الخروج وعزم على حمل بعض الطعام .. يمشي حتى غرفة الخزين لكنه يحجم عن فتحها مقنعا نفسه في تمتمة خافتة ..

- لو حملت شيئا منها لأكلني الجياع خارج الدرب قبل الخبز ..

يستدير عائدا .. يرفع عينيه مودعا غرفة سمحة .. بكفه يمسح قلب السعف اليابس .. من خلف الباب يتناول عكازه .. يخرج مغلقا خلفه الباب و يسير مودعا البيوت وعند فتحته الضيقة يستدير ملقيا على الدرب نظرة أخيرة ثم يخرج إلى الشارع الكبير ..

يتلفت ويجد في السير ولا يأبه للمارة القلائل الذين يرمقونه بنظراتهم الحائرة .. يشعر بالراحة وكأن حجرا ألقي من على كتفه حين وقف أمام باب الكنيسة فقبض على اليد النحاسية على شكل صليب كبير وتوالت خبطاته ولم يطل انتظاره فانسحب لوح خشبي صغير وأطل الحارس منه فاتسعت عينا يؤنس وهو يستطلع الوجه الغائب نصفه خلف الفتحة ..

- أنا يؤنس .. يؤنس بن بشير .. أريد مقابلة القس داود ..

تنغلق الفتحة .. هنيهة ويسمع صوت انسحاب المزلاج و يُفتح الباب الكبير فيدخل يؤنس عازما أن يلوذ بالكنيسة .. سار خلف الشماس وهو يغمغم ..

- سأكون في حماية الرب وجنب زوجتي رفقة ..

***

(16)

يـد خشـنة تقبض علـى معصـم ميمـون .. يلتفت فيطالعـه المقدس يـؤنس يصـوّب إليـه نظرات صارمة ..

- قم .. تعال معي ..

وبدون أن يستفهم ميمون ينهضه يؤنس ساحبا ذراعه وفجأة يجد نفسه في بيت جاره تدور عيناه وسط العتمة ويبحث عن يؤنس فلا يجده إلى أن أضيئت حجرة في آخر البيت ويؤنس يشير إليه أن يقبل فيخطو والجوع يعصر أمعاءه ومرة أخرى يمسك بيد ميمون ويُدخله الغرفة الضيقة فتزكم أنفه روائح غريبة فيشير إلى كيس منفوخ ..

- كل فأنت جائع ..

يُدخل ميمون يده في الكيس وعيناه لا تفارقان وجه جاره الأحمر ويقبض على شئ يقرّبه من فمه ليأكل لكنه يُفاجأ بأنه عقد ذهبي .. يلقيه وتغوص ذراعه داخل الكيس ويخرجها ويده تمسك أساور وأقراط من الذهب والفضة .. تصرخ معدته معلنة الاعتراض فيمد ميمون يده مستنكرا ..

- كسرة خبز أفضل من الذهب والفضة ..

يجيبه يؤنس وهو يضحك :

- هذا ما عندي .. اكنز منه ما تريد ..

يخرج يؤنس من الغرفة وهو يواصل قهقهته و ميمون يقف في وسطها و هو يصيح بأعلى صوته ..

- خبز وماء أغلى من الذهب ..

ترتعش شفتاه وهو يكرر ..

- كسرة خبز وماء .. خبز وماء ..

تنهض عالية على صوته وتهز كتفه إلى أن بزغت شمس وعيه فبددت غمائم الحلم .. ترفع القلة إلى شفتي زوجها المرتعشتين فيشرب وتفاحة آدم تلاحق جرعات الماء المنزلقة فتطفئ وهج جوفه الخاوي ..

- اللهم اجعله خير ..

- خير يا عالية .. أما حلم فقد رأيت يؤنس و ..

بسيف الندم يبتر ميمون كلامه ويضرب بكفه على جبينه وينهض متعجلا ..

- آه .. يؤنس .. وعدته أن أزوره في الليل ونحن ..

- في منتصف الليل يا ميمون ..

- منتصف الليل ؟!؟

- أنسيت ؟ بعد سهرتك مع الشيخ رادع أمام البيت شكوت من ألم ظهرك فدخلت ونمت ولم أوقظك فتعشى الحسن معي ونمنا ..
- لكن يؤنس كان متعبا و..
- وأكيد الآن نائم ومستريح .. في الصباح اذهب واطمئن عليه ..
يتململ ميمون في ضيق وعالية تطبطب على كتفه فيثبّت عينيه في وجهها الشاحب ويمسح على شعرها وهدأ قلقه ففرد ذراعه تحت رأسها فتوسدته وفتحت عينيها الناعستين فضمها إليه لكنها ربتت على ظهره الناشف ..
- الدم قرّب ينقطع ..
ضمها أكثر ثم أبعدها في رفق ونهضا خارجين من الغرفة فألقى نظرة على الحسن الغارق في النوم وعاد فوجدها تفرد ورقة عريضة عليها قرصة خبز وجبن جلس يأكل في هدوء .. تعود عالية إلى غرفتها فاستوقفها ميمون ..
- في الصبح نعطي الرغيفين الباقيين والجبن للشيخ رادع ..
- والله يا ميمون فيك حاجة لله فبعد أن نمت أنت والحسن لففت الرغيفين والجبن وأعطيتهم لسكينة ..
تتسع ابتسامة ميمون ويكمل طعامه ونهض إلى الزير الفارغ فتيمم من التراب الذي يجاوره وصلى العشاء داعيا الله أن يكشف الغمة ويخفف عنهم الشدة .. يعود إلى غرفته فيجد عالية عادت للنوم .. تمدد جوارها مشبكا أصابعه خلف رأسه وبين الفينة والأخرى يرمق وجهها البرئ ويتحسّر لعدم توفير عسل أو دجاج تتقوّى به على مرضها الشهري .. يحملق في سماء الغرفة يستحث النهار فغفلت عيناه وفتحهما على النور الصافي ينفذ من كوة بأعلى الحائط فنهض منتعلا القبقاب وسحب مفتاح بيت يؤنس وأعد نفسه للاعتذار عن تأخره في السؤال عنه ..
يخرج من بيته والدرب يتنفس هواء الصبح الوليد .. فتح بيت جاره وأغلقه خلفه .. يدفع باب الغرفة المغلق فيفاجأ بها خاوية .. يصفق بيده وينادي ..
- يا أبا بشير ..
أجابه صدى صوته .. يقف منتظرا ظهور جاره المريض وأيقن أنه ليس بالكنيف فبابه مفتوح والذباب يمرح فيه .. داخله ضيق من نفسه لأنه لم يطمئن على جاره أول الليل كما وعده .. يقرر العودة إلى بيته لكنه توقف أمام السلم وتوهج الأمل في قلبه وصعد وهو يظن بأن يؤنس في غرفة سمحة أو يستقبل شروق الشمس وهو جالس على السطح وما إن يفتح غرفتها إلا ويطالعه خواؤها الكابي .. يغلقها ويمسح فراغ السطح بعينيه فتتوقف نظراته على العروسة والحصان اللذين صنعهما الحسن ووضعهما على الزيار بين البيتين فابتسم رغم قلقه وطوت أقدامه درجات السلم ..

يقف والضيق يذبح صدره وهمّ أن يخرج وهو يصارع أمواج الحيرة لكنه أقنع نفسه بأن يؤنس سيعود عاجلا أو آجلا واستدار ليخرج من البيت لكن قدماه ثبتتا أمام باب مغلق وهوالأخيرالذي لم يفتحه وبيد واثقة دفعه فأجابه الصرير الخافت .. يخطو للداخل فيعض شفتيه لخيبة الأمل التي ركبته .. يهز رأسه ويستدير خارجا من الغرفة الخانقة فيعلق القبقاب بحبل شعر بخشونته .. يهز ميمون قدمه ليخلصها ثم يميل ليلم الحبل فيجده رباطا مفكوكا لإحدى الزكائب التي لم يفطن لها منذ دخوله الغرفة .. يقترب من الزكيبة فجحظت عيناه للخبز الناشف .. دس يده داخلها وسحب رغيفا ورفعه أمام عينيه .. يضعه في سرعة وصدره يعلو ويهبط وحبات العرق تنزلق على رقبته واستشعر حرارة الغرفة ورائحتها الزهمة .. يتمالك نفسه وكشف فتحة الزكيبة فوجدها ملأى بالخبز المحمّص فومضت في تلافيف ذاكرته تفاصيل حلم الليلة الفائتة فزاغت عيناه ليستبين أضلاع رواق الخزين فمرت على الأكياس المرصوصة بعناية يجاورها تلاليس فارغة .. يسحبها فيجدها تخبئ ثلاثة أقفاص مملوءة بالبصل مركون جوارها جرارصغيرة .. يرفع غطاء إحداها فيتنسّم رائحة الزيت .. غطّس يده وسحبها فعادت والزيت يهطل منها فلحس أصابعه بتلذذ .. غطاء الأخرى تخبئ العسل الذي لحس إصبعه بعد أن انتشله منها .. تتلبسه ثياب الدهشة .. ينهض فيحتك كعب قدمه بشئ خشن .. ثبت مكانه فتكشف عيناه أغطية ليفية تتجاورعلى الأرض .. يجثو أمام أول غطاء وسحبة فصدمت أنفه رائحة زفرة .. يمد يده فغاصت في خواء لم يكتمل فقد لامست أنامله جلدا لزجا فقبض عليه ساحبا سمكة مملحة .. أعادها مبتلعا ريقه وفتح الغطاء الذي يجاوره فوجده مملوء بأسماك البلطي والبياض .. والغطاء الثالث ما إن فتحه إلا وتخدره رائحة التخليل وتغوص ذراعه في جوف القدر لتتلاعب أصابعه بحبات الزيتون ورابعهم يخفي الخيار والفلفل وآخر غطاء يستر قطع اللفت ..

تلهث أنفاسه من فرط المفاجآت المتلاحقة وقلبه يتقافز من الفرح .. يركع أمام القدور المدفونة في الأرض ويعيد الأغطية الليفية مكانها ..

يقف مارا على ما اكتشفه ووجد فيه تفسيرا لكل ما كانت رفقة تمنحه لعالية وما كان يعطيه له المقدس يؤنس من خبز وجبن ..

تتراجع خطواته فيرى خلف الباب بلاصين .. يهز رأسه وهو يغمغم

- الجبن ..

يسحب غطاء أحدهما ويمد ذراعه فتغوص إلى قاع البلاص الفارغ إلا من السائل اللزج المخلوط بفتافيت الجبن ويشعر بدبيب على يده فسحبها ليجد الدود يرعص على جلده .. ضحكة خفيفة ترن في الغرفة ..

- الناس من الجوع أكلت بعضها والدود يعوم في طعامه !

يمسح يده من المش الملتصق بها ويفتح غطاء البلا ص الآخر فيجد الجبن حتى عنقه .. يتناول قطعة واضعا إياها في قلب رغيف وطفق يأكل في التذاذ وشوق و بحميمية ونشاط تهلل معدته لاستقبال الطعام .. يظل يأكل فتؤنسه أصوات الخبز الممضوغ بين أسنانه وأحس بالدماء تتدفق بين عروقه وبانتصاب ظهره وبأمان يدفع عنه غوائل الجوع .

***

يتأكد من إغلاق باب رواق الخزين بل ويسحب من تحت السلم منضدة عريضة ويركنها أمام الباب .. يتراجع بظهره وأصابعه تقبض على كيس كتاني صغير .. تتعلق عيناه بأيقونة خشبية معلقة فوق الباب محفورعليها صورة السيدة العذراء.. يستدير منصرفا ويتوقف أمام حجرة جاره ..

- سامحني يا مقدس .. والله لأرد ثمن الطعام لما ترجع ..

يفتح باب البيت ويطل برأسه فينتفض عائدا مكانه وقلبه يدق بعنف لعربة ريان الواقفة أول الدرب بين بيت رزق وبيت الشيخ عامر.. بحذر يمد رقبته وفي سرعة يخرج ويغلق الباب ويخطو داخلا بيته .. يبتلع ريقه .. يركن الكيس على الدكة .. ينادي زوجته لكن عالية تخرج من الكنيف وهي تمسك بطنها فينهض إليها ..

- خير يا عالية ؟

أشاحت برأسها ومرة أخرى تمد وجهها داخل الكنيف وتحاول القئ لكن معدتها لم تستجب .. يساعدها ميمون في الجلوس على الدكة .. تميل رأسها إلى الوراء وتستكين فتهدأ أنفاسها ويراها ميمون ازدادت شحوبا وحلقة سوداء أسفل عينيها ولأول مرة يلحظ الشيب يخط شعر زوجته وقبل أن يروي لها عن مغامرته تبادره بالسؤال ..

- قمت من النوم وبحثت عنك ؟

- كنت أطمئن على المقدس يؤنس .. ولم أجده ..

تتفل في خرقة بالية وحين وضعتها بجانبها اصطدمت يدها بالكيس فنظرت إليه ولم يترك ميمون لها فرصة للسؤال فعبثت أصابعه بالرباط وفضه ليظهر الخبز .. رفعت عالية وجهها في حدة ..

- من أين أتيت به ؟

- من بيت يؤنس .

- قلت أنه غير موجود ؟!؟

- نعم وبحثت عنه حتى على السطح فأكيد خرج .. لكني .. فتحت رواق الخزين و..

قاطعه اتساع فم عالية والتماع عينيها المستنكرتين فرفع ميمون يده وهمّ أن يقول شيئا لكن الدق على الباب ألجمه فسكتا وتلاقت نظراتهما وبدون أن يأمرها حملت الكيس وذهبت إلى غرفة النوم وأغلقت الباب ..

ينهض ميمون وهو يعرف من الطارق وتهيأ لحمل القربة من ريان .. ودون أن ينطق تلقف ميمون القربة وأفرغ ما في الزير..

- وجدت عربتك ؟

- على حافة النهر ..
يهم أن يدق باب يؤنس لكن ميمون يستوقفه بقلق ..
- المقدس يؤنس خرج من البيت ..
وكأن مصيبة حطت على روح ريان فانقبض وجهه وارتسم الحزن على بشرته الدكناء .. يتناول ميمون القربة ويدخلها البيت وهو يخفف من حزن ريان ..
- سأعطيه الماء فور عودته ..
في يأس يهز ريان رأسه ويتحسس معدته التي سطا الجوع عليها .. يهم بالانصراف فيستوقفه ميمون طالبا منه أن ينتظر .. يغيب في الداخل ثم يخرج وفي يده لفة ورق يدسها في يد ريان المعروقة فيقربها من أنفه .. يبتلع ريقه وتتفتح أخاديد وجهه الجهمة لرائحة الخبز والجبن وكعادته يفتح القربة ويولج اللفة بها ويخبئها تحت رفيقاتها العجفاوات .. يدير العربة وقبل أن يتحرك
- ربنا يكرمك أنت والست عالية ويصلح حال الحسن ..
يتلاقى حاجبا ميمون ويرفع سبابته أمام ريان الذي يثبت عينيه في عيني ميمون ..
- ربنا وحده يعلم يا ريان كيف وصلنا القوت القليل .. واحد من معارف أخينا منقذ أحضره لي سرا من الصعيد ..
- ربنا يسترها يا أبا الحسن ..
يدفع ريان العربة تودعه عينا ميمون القلقتان .. يغلق الباب وهو يزفر أنفاس التشاؤم ويدرك في قرارة نفسه أنه لو أخبر ريان أي إنسان بأمر الطعام فلن يسلم الدرب كله من هجوم جحافل الجياع .. يدخل الغرفة فيجد عالية متربعة على الأرض أمامها الكيس وفي فرح يجلس ميمون ويروي لها ما رآه في رواق الخزين إلى أن صمت منتظرا تعليقها فقالت وهي تخرج الأرغفة اليابسة الواحد تلو الآخر ..
- رفقة .. الله يقدّس روحها طول عمرها ناصحة في التخليل ..
- والتخزين .. التخزين يا عالية .. آه لو شممت رائحة السمك من القدور المدفونة في الأرض وبلاص الجبن والـ ..
تقاطعه عالية وهي ترص الجبن في قدر فخاري صغير ..
- وكيف سنرد لجارنا ما استلفناه ؟
- يفرجها ربنا يا عالية وأنا متأكد أن يؤنس راض عن تصرفي فقد جاءني في الحلم وطلب بنفسه أن آخذ من كنزه .. أقصد من الطعام .. وما وجع بطنك إلا من قلة الزاد.
- نهايته .. ربنا ييسرها من عنده ..
تخرج من الغرفة فيتناول ميمون قلبا صغيرا من مخلل اللفت .. يمضغة فتتفتح شهيته للطعام .. تعود بطبق الماء وخلفها الحسن يفرك عينيه ويجلس بكسل جوار أبيه .. تغرق الأرغفة الناشفة في الماء وتصبر عليها لتلين .. يتناولون الغذاء و عالية تخشى

أن تراودها نوبة التجشؤ مرة أخرى لكن معدتها هذه المرة أطلقت زغاريد الفرحة لضيفها الكريم .. تتناول حبات الزيتون في شهية لم تشعر بها من قبل ولم تلبث أن شبعت فرفعت طبق الماء لتشرب وفتافيت الخبز تنزلق مع الماء وقربت الطبق من فم الحسن لترويه.. تركن الطبق جانبا وتشعر بشرايينها تتفتح لجريان الدم الذي أعاد لوجهها نضارته بعد أن أشرف على الذبول ..

- الحمد لله ..

قالها ميمون وهو يرص رغيفين وقطعتي جبن والقليل من المخلل ويلفهم بالورق ..

- سأعود حالا ..

يخرج من البيت فتنشغل عالية في ترتيب بعض الأشياء وحياكة عباءة زوجها التي انفتق طرفها .. يشير إليها الحسن بيديه بأنه يريد الخروج لكنها تحرك يدها معلنة الرفض بشدة فيحيط رقبته بيديه إشارة بأنه مخنوق من القعاد في البيت فتهز عالية كتفيها مبتسمة وتقبلة فيعود متبرما لمخزن الورق .. يقبل ميمون على زوجته ويهم بارتداء ملابسه ..

- لم أجد الشيخ وأعطيت اللفة لسكينة .

- ابنك يريد الخروج من البيت ..

يتغير وجهه ويرفع قبضته أمام عالية ..

- احذري يا عالية فالحسن صغير ولا يحسن التصرف ..

يتركها منهمكة في تنظيف المواعين و يخرج متجها إلى الجامع فيرى القليل من المصلين يتيممون من تراب على مصطبة طويلة وما يكاد يدلف حتى تُقام الصلاة فيصطفون في صف واحد منقوص ويتناهى لميمون أصوات قرقرة الأمعاء التي تحن إلى الطعام وتلفح أنفه رائحة اختلاف أفمامهم .. بعد صلاة مقتضبة يسلـّم الإمام ويرفع يده إلى السماء ..

- اللهم ارفع مقتك وغضبك عنا يا رب العالمين وافرجها من عندك يا أرحم الراحمين.

يؤمّنون على دعائه فيزر الإمام عينيه ليستطلع وجوه الجالسين ..

- كل منا يلزم بيته وعليكم بالنظافة .

يتبادلون نظرات الريبة ويرد أحدهم ..

- الماء قليل يا شيخ حتى عجزنا عن الشرب لا النظافة ..

يتبادلون الاعتراضات اللاغطة حتى علا صوت أحدهم لينهي المهاترة ..

- لم يأت السقاء من شهر واعتمدنا على بئر كنا هجرناها منذ زمن ..

يبرق في ذهن ميمون وجه ريان وأعجب به لأنه يوفر لأهل الدرب الماء حتى الآن وصمم في قرارة نفسه ألا يحرمه من الطعام بل وسيكافئه في المرات المقبلة .. يجيل عينيه في جنبات الجامع فيرى التراب على الحُصرويغطي رفوف الكتب يرفع بصره

فتطالعه قناديل الجامع الزجاجية مكسورة وبعض السلاسل مدلاة بدون القناديل .. ينهض متجها إلى الباب فينتعل خفه وهو يسمع الإمام يوصيهم ..

- يا جماعة الخير .. قدر الإمكان .. النظافة قدر الإمكان .. الأمراض تزحف علينا ..

يبتعد ميمون مقررا أن يذهب مباشرة إلى الكنيسة وهو على يقين أن جاره يحن لزيارة زوجته وكل ما يشغله هو كيف سيبرر له استلاب الطعام من حجرة الخزين .. طال به التفكير وشعر بالندم لتصرفه في أملاك غيره دون استئذان وأخذ يكلم نفسه موبخا ..

- حتى لو أقنعني يؤنس أنه راضٍ فكيف سأرد له قيمة الطعام ؟!؟

يصل إلى الكنيسة ويقف تجاهها وهو يتردد في قرع الباب المغلق ولم يطل انتظاره فانفتح الباب ليخرج رجلان فانتهز ميمون الفرصة وأسرع يسأل الحارس قبل أن يغلقه

- المقدس يؤنس موجود ؟ يؤنس بن بشير ..

لا تجيبه نظرات الحارس الصامت فيشعر بضيق لكن ينفرج صدره مع انفراج الباب ويطل الشماس الذي يعرفه منذ أن كان يشتري منه الأوراق والأحبار فيبادر بسؤاله ..

- أسأل عن المقدس يؤنس فقد جاء السقاء وخبط على الباب فلم يفتح وسألني عنه فقلقت على أبي بشير وجئت أسأل عنه .

- نعم يا شيخ ميمون .. يؤنس هنا لكنه مريض بالحمّى ..

تتسع عينا ميمون قلقا وهو يؤكد للشماس ..

- بلغه سلامي وإن شاء الله ربنا يشفيه ..

- فيك الخير يا شيخ ميمون ..

- سلام عليكم ..

يبتعد ميمون عن باب الكنيسة الذي يُعاد إغلاقه ويسرع إلى الدكان فيفتحه ويُخرج الدكة الصغيرة أمامه .. يجلس وجال بخاطره حكاية مرض جاره وذهابه للكنيسة بعد أن قرر أن يلزم البيت ..

يمط شفتيه وتستطلع عيناه الشارع فيقرر أن يذهب إلى أخيه زيدان إن لم يظهر أو يمر عليه لأنه لم يره منذ أيام ..

***

(18)

بمذبة ورقية يطرد ميمون الذباب الذي يهاجمه في وحشية ورائحة تعفن منتشرة تؤلم أنفه .. يتلفت في كل مكان وأخيرا تقع عيناه على أمعاء ملقاة في فضاء خلف الدكان والذباب يحط عليها .. يربط المنديل حول أنفه ويحفر جوار الرمّة وبسرعة يدفعها بعصا إلى جوف الحفرة ويهيل عليها التراب وبين الفينة والأخرى تتسرب الرائحة السامة إلى رئتية .. يعود وعيناه مغرورقتان بالدموع ويظل يبصق حتى ينخلع بطنه .. تهدأ نفسه بعد غياب الرائحة .. في بطء يبتلع ريقه ويرفع صوته الغاضب ..

- الله يلعن المؤذي الذي رماها .. حوانيت القراطيس والأحبار التي كان يتهافت عليها الكتبة والفقهاء تصبح مزبلة لمصارين الرمم !

رويدا يتناسى الموقف القاسي ويُطيل الصمت حتى تناهى لمسامعه شخشخة وسط الورق فينهض داخلا في سرعة فيهرب الفأران لحضوره المفاجئ .. ينحنى ميمون على ورقة قرُضت أطرافها .. في لا مبالاة يلقيها و يخرج جالسا مكانه ..

يعود لتفكيره الصامت وحمد الله أن المقدس يؤنس لم يصبه مكروه وصمم في قرارة نفسه أن يعترف له بأمر الطعام الذي أخذه ويقدم له كل ما تبقى عند زوجته من أقراط بعد شفائه وعودته للبيت .. ينفرج ضيق صدره وهو يقنع نفسه بأن جاره سمح له في الحلم بأن يكنز ما يريد .. يبتسم حين يكرر في صوت مسموع ما قاله ..

- الخبز أغلى من الذهب ..

- الخبز .. أغلى من الذهب ؟!؟ ميمون ؟

يلوى رأسه ناحية اليمين فيجد أخاه زيدان يقف جواره .. تتسع ابتسامته وقبض على ذراع أخيه يقوده داخل الدكان .. يتلفت ثم يخرج لفة الورق من بين طيات ملابسه ويفردها على الأرض فيقعي زيدان وهو لا يفهم شيئا ..

- لتأكل معي .

في قلق يضع ميمون كفه أمام شفتيه إشارة لأن يلزم الصمت فتناول زيدان العيش المبلول والجبن المهروس فيه وطفق يأكل حتى أنهى طعامه في سرعة .. يخرج من الدكان وهو يتلمّظ شفتيه ويجلس جوار أخيه في انبساط ..

- قايضت الخبز بالذهب يا ميمون ؟.. سمعتك تقول ..

يقاطعه ميمون مقربا شفتيه من أذن زيدان ..

- أعطانيه المقدس يؤنس ..

يبعد ميمون وجهه عن أذن أخيه ويرفع صوته ..

- وأخبار فاتك ؟

- لا أعرف عنه شيئا .. ربنا يصلح حاله ويبعد عنه الأمراض ..

ما يكاد يقولها إلا ويقبل عليهما الشيخ رادع الكتامي يقوده رزق و يسلمان بصوت متلجلج فيرد ميمون عليهما السلام .. يقف ميمون ليخلي مكانا لجلوس الشيخ الذي يبادره ..

- شكرا يا ميمون على لفة الـ ...

بارتباك يقاطعه وهو يطبطب على كتفه في قوة ..

- لا شكر على واجب يا عمنا والنبي وصّى على سابع جار..

يلوذ رادع بالصمت وهو يعي لهجة ميمون التي تحذره من الكلام في سيرة الطعام أمام أي إنسان .. يطبطب زيدان على ساق الشيخ ..

- كيف حالك يا شيخنا ؟

- بخير .. إلى هذه اللحظة ..

- إلى هذه اللحظة ؟ ما لك يا شيخ ؟

يتدخل رزق في الحوار وهو يتهيأ لإلقاء النبأ الخطير ..

- أما سمعتم عن الطاعون الذي ظهر في الفسطاط ؟

ينتفض زيدان من مكانه ..

- الطاعون ؟ استر يا رب .. كان ينقصنا الطاعون ..

يرمق ميمون أخاه بنظرة قلقة ..

- اهدأ يا زيدان .. سمعت إمام الجامع ينصح بالنظافة والالتزام بالبيت .. المهم يا عم رادع الوباء بعيد عنّا ..

- بعيد ؟ لقد سمعت إنه انتشر في بيوت القطائع حتى أن أحدا لم يصل في جامع ابن طولون الأسبوع الماضي ..

ينشب القلق أنيابه في نفس ميمون ..

- وأعراضه يا رزق ؟

- الواحد يشعر أول ما يشعر بتعب شديد ورجفة وحرارته ترتفع ..

يقاطعه زيدان ..

- ارحمنا يا رب ..

يكمل رزق وهو يشير بإصبعه إلى ذراعيه ورجليه وصدره ..

- ويحس بوجع في عضلاته ومفاصله وحلق الواحد منهم يصبح نار و يرجّع كل ما في بطنه ..

- كفى .. يكفي ما قلته يا رزق ..

ينهض الشيخ الكتامي بعد أن بتر كلام رزق بامتعاض وشعر كل منهم بالخطر الداهم حتى اغتمّت نفس ميمون فأغلق دكانه ووقف جوار الشيخ رادع الذي يقبض في توتر على عكصة عكازه .. يتمتم وهو يتحصن بالأدعية ثم يأمرهم ..

- لنعد للدرب ..
يهم ميمون بالمشي وهو يتأبط ذراع جاره فتستوقفه سيدة دهشوا لسيرها في الشارع بمفردها .. تمد يدها بعقد ثمين من الجوهر وتقول لهم ..
- من يأخذ هذا ويعطيني عوضه دقيقا أو قمحا ؟
لم يعقّبوا على طلبها ولم يلتفت إليها أحد من المارة القلائل وبنفس يطوقها الحرمان نظر إليها ميمون باستغراب ثم قرر أن ينهي الموقف بالابتعاد فيقود الشيخ ناحية الشارع المؤدّي إلى درب الريحان لكنه يرى السيدة تلقي العقد على قارعة الطريق وقالت بصوت فيه نبرة يأس و هذيان وهي تشير إلى العقد ..
- هذا ما ينفعني وقت حاجتي فلا حاجة لي به بعد اليوم ..
ولتهم السيدة ظهرها منصرفة وكانت أخبار الطاعون قد انتشرت وتناهى لمسامعهم من المارة المقابلين لهم في الطريق ما تنثره ألسنتهم عن الوباء .. يستأذنهم زيدان للعودة إلى بيته فغمز ميمون لأخيه وهو يقول :
- أنتظرك في الليل ..
فهم زيدان قصد أخيه ورغبته في تناول العشاء معه فهز رأسه و اختفى في أحد الشوارع فمال ميمون في سيره حتى فوجئوا برجل يتجشأ على قيد خطوتين منهم وهو يرتعد فاتسعت خطوات ميمون مبتعدا يجاوره الشيخ رادع ورزق يتبعهما وهو يضرب كفا بكف ..
- استرها يا رب ..

***

(19)

تفتح سكينة الباب فيتقدم عكاز أبيها ويقف داعيا ميمون ورزق للدخول لكن ميمون يوضح له ..

- رزق دخل بيته بعد أن وصلنا الدرب ..

- غريبة .. لم أشعر به ..

يجلس ميمون ويغيب الشيخ رادع داخل بيته .. يمضي ميمون وقته بالنظر في خنجر مثبت على الجدار .. يمد أصابعه فتلامس أنامله غمده العتيق .. يدخل الشيخ رادع فيبادره ميمون ..

- قديم هذا الخنجر يا عم رادع ؟

يبتسم الشيخ ويفرد صدره ويرد على ميمون في زهو ..

- خنجر جدي الأكبر قعقاع الكتامي الذي أتى في ركاب المعز لدين الله حين قدم إلى مصر.. لم أرزق بالولد الذي يحتفظ به من بعدي ..

يطبطب ميمون على كتف جاره وهو يلحظ انقباض وجهه الذي ما يزال يحتفظ بصفائه الصحراوي ..

- ربنا يطول في عمرك يا عم رادع ..

تقبل سكينة بقلة الماء وتضعها أمام أبيها ..

- تفضل يا عم ميمون .. كيف حال خالتي عالية والحسن ..

- بخير ..

تنصرف فيلفت نظره أنها تضع على كتفيها شالا من الدمقس* الفاخر فيمد ميمون يده ليتناول القلة ويرفعها ليشرب فيلمح بطرف عينه أن الذي يبسطه الشيخ الكتامي ليجلسوا عليه مفرشا من الخسرواني* الثمين فينزل القلة وهو يرفع حاجبه متعجبا وآثر الصمت ومن حين لآخر يردد الشيخ الكتامي كلمات الاستغفار والحسرة ..

- آه على أيامنا يا ميمون .. أجرنا يا رسول الله .. أجرنا يا جد الحسن والحسين .. أشد ما ألمني هذه السنة أن يمر يوم عاشوراء ولا أحد يهتم بهذه الذكرى العظيمة ..

- حال البلد يا عم رادع .. الناس انشغلت بسد جوعها .. شدة وتزول يا شيخنا يا طيب

- والله يا ميمون إنك الوحيد من أخويك الذي ورثت أباك صادق الوراق في كل شئ ؟

يبتسم ميمون وهو يعلق ..

- تجارة الأحباروالقراطيس والـ ..

---

* الدمقس : الحرير .

* الخسرواني : حرير رقيق منسوب إلى خسروشاه من الأكاسرة .

- وطيبتك وتوكلك على الله .. تعرف يا ميمون .. أنا تعرفت على أبيك قبل ولادتك .. يوم أن طلب الخليفة أوراقا كثيرة يكتب فيها فأمرنا القائد بالبحث عن القراطيس في كل مكان وكان أبوك صادق الوراق من أكثر التجار الذين اشترينا منهم الورق ..
- اليوم كسد الورق ولا أحد يكتب أو يؤلف ..
وكأنه لم يسمع ما قاله ميمون يكمل الشيخ رادع ..
- وفي يوم بحثت عن سكن فعرض عليّ أبوك البيت الذي تجلس فيه واشتريته لأتزوج وتمنيت من ربنا أن يرزقني بولد لكن ..
- ربنا يحفظ لك سكينة ويرجع زوجها بالسلامة ..
تقبل سكينة وبين يديها إبريق تضعه أمام ميمون ..
- تفضل يا أبا الحسن .. بلح مبلول والشراب منقوعه البارد ..
تنصرف فيمد ميمون أصابعه ليتناول لكنه يسحب يده لرؤية الإبريق البلوري واحتار في وجود الخسرواني والبلور لدى الشيخ الذي ما يزال كجدوده المغاربة يُؤثرون حياة التقشف والبُعد عن الرفاهية ولا سيما بعد أن نضب بصر الشيخ رادع ويعيش على نفقة بيت المال والتي قـُطعت بعد أن غاب النيل وشحّ الخراج وتعيش القاهرة أياما عجاف لم ترها من قبل ومرة ثانية لا يبالي ميمون بما يرى مفضلا أن تتكشف له الأسباب دون أن يبحث وراءها .. يمد يده ويتناول البلح الرطب وهو يقول ..
- آخر مرة أكلت البلح منذ شهور..
يبتسم جاره فيظهر فمه شبه الفارغ من الأسنان ..
- وما تأكله آخر ما عندي وربنا يدبرها .. كل يا ميمون يا ابن الميمون ..
تتداخل ضحكات الرجلين وهما يتناولان البلحات ويكمل رادع الكتامي ..
- أبوك سمّاك ميمون لأنه انقطع عن الإنجاب بعد زيدان سنوات كثيرة وسنة حملك كانت صعبة على المرحومة أمك حتى تمنى عدم مجيئك حتى حلم حلما حكاه لي عن امرأة مهيبة أتته في الحلم وعاتبته وأخبرته أن المولود الذي هو أنت سيكون ميمونا ويوم ولادتك باع كل ما في الحانوت من ورق بل ورحل إلى دقهلة وأتى بأحمال من القراطيس والطومار وقدور الأحبار وكان من أفضل التجار الذين اعتمد عليهم آمر دارالحكمة ..
يزفر ميمون في ألم ..
- اليوم لا يُمن ولا بركة .. هجر طلاب العلم دار الحكمة وفني أشياخ جامع القاهرة موتا ورحيلا بحثا عن الأمان وسد الرمق .. تخيل يا شيخ رادع .. قناديل الجامع سُرقت حتى المفارش علاها التراب والكتب أصبحت ملقاة في كل مكان ..
بدون أن يدير الشيخ رادع وجهه يحك ذقنه ويقطب حاجبيه وهو يرد على ميمون ..

- يا ولدي .. انقطعت الأحباس* التي كانت تنفق على الجامع وشيوخه وطلابه فأهمل كل شيء فيه وما خفي أحق بالعجب ..
يصمت ميمون وهو يمر بعينه على الإبريق الذي أتحف عينيه من دقة صنعته .. يأكل آخر البلحات ويشرب القليل من المنقوع الحلو.. يعطي الإبريق للشيخ رادع الذي ينهي على ما فيه ويركنه جانبا لكن فضول ميمون يدفعه لاستدراج الشيخ في معرفة سبب وجود هذه الأمتعة الثمينة فيرفع الإبريق أمامه ويقول ..
- إبريق من البلور الرائع والخسرواني الثمين .. يندر توفره الآن ..
يتحسس الشيخ رادع الجدار حتى يقبض على عكازه فينهض متثاقلا
- سأريك شيئا آخر ..
يغيب في الحجرة الخلفية من البيت ويعود وأصابعه تقبض على شيء طويل برّاق يتضح لميمون أنه ..
- سيف ..
هتف بها ميمون وحاجباه يرتفعان دهشة .. يمد الشيخ السيف فيتناوله ميمون وأنامله تتحسس المقبض الفضي المرصّع بفصوص الجوهروغمده مطعم بكرائم الأحجار.. يفرد السيف أمامه وقلبه يكاد يقفز من بين ضلوعه ..
- أهو سيفك يا شيخ رادع ؟
يتجهّم وجه الشيخ ويفرد أصابعه أمام ميمون معترضا ..
- لا .. وحق فاطمة ما يكون سيفي الذي رفعته قديما للجهاد في سبيل الله بمثل هذا البذخ ولولا نظري الذي انعدم ما انخفض سيفي ذو المقبض الصدئ في وجوه الأعداء
- هوّن عليك يا عم رادع أنا لم أقصد ..
- لا تعتذر يا ولدي فأنا أعرف مقصدك ؟
يقرّب رادع رأسه من ميمون ويقول في صوت خفيض ..
- فيك من يكتم السر .. إنه من قصر الخليفة وكذلك إبريق البلور والخسرواني المفروش وغيرهم من أشياء ..
زاغت عينا ميمون فبادره رادع ..
- ولعلك تسأل كيف وصلتني ..
يصمت ميمون منتظرا ويرجع الشيخ رادع بظهره إلى الجدار ومن بين فواصل الصمت والخوف يخرج صوته مصبوغا بآهات الحزن و يزفر في حسرة ..

---

* الأحباس : الأوقاف التي يُحبس ريعها للإنفاق على جامع الأزهر .

- تصوّر يا ولدي .. الخليفة المستنصر بالله حفيد المعز لدين الله وعبد الله بن الحسن المهدي يعيش أياما يطلب فيها من قادته وجنده أن يبيعوا أمتعة القصر ليدبر بثمنها حاله وجواد زوج ابنتي يقول أن الخليفة لا يملك إلا فرسا واحدا والحرس حوله يتساقطون من شدة ما لحقهم من الجوع ..

يقلّب ميمون السيف بين يديه ويرفع صوته بالتمتمة ..

- سبحانه .. يعز من يشاء ويذل من يشاء ..

تارة أخرى يعترض الشيخ رادع بصوته الجهير ..

- لا .. والله ما يُذل الخليفة المستنصر إنما هو ابتلاء وستنكشف الغمة إن شاء الله ..

يحذر ميمون من التعريض لسيرة الخلفاء العبيديين الذين يتعصّب لهم جاره ولا يقبل الطعن فيهم وفي سيرهم مهما حدث فيدير دفة الحديث ..

- لكن هذا السيف مكتوب على مقبضة اسم الخليفة القائم ..

يشرق وجه الشيخ رادع بابتسامة عريضة وهو يفرد صدره أمام ميمون ..

- أنسيت يا ميمون ؟ ألم ينتصر الوزيرأبو الحارث أرسلان البساسيري على القائم بأمرالله العباسي ودانت بغداد لخليفتنا المستنصر ودُعي له على منابر مساجدها ؟

- بلى .. حدث هذا قبل الشدة بسنوات ..

- فكل ما تراه وستراه سواء في الأسواق أو مع الجند غنائم غنمها البساسيري من قصور بني العباس في بغداد وبعث بها إلى مصر..

يهز ميمون رأسه ويمط شفتيه ..

- وجوّاد زوج ابنتك سكينة هو الذي ..

- من المتولين أمر بيع تلك الأشياء لصالح القصر ..

برفق يضع ميمون السيف جوار رادع و يضرب كفا بكف ..

- لا عجب إذن من أن ترمي السيدة جوهرها في عرض الطريق بعد أن عجزت عن مقايضته بحفنة دقيق .. وما زاد علينا أخبار الطاعون الذي ينتشر كالنار في الهشيم ..

- كلامك في محله يا ميمون وندعو الله أن ينجينا .. احذر يا ميمون فلا يخرج الحسن أو أمه من الدرب لئلا تصيبكم العدوى ..

- ربنا يسترها يا شيخنا ..

ينهض ميمون مستئذنا على وعد بلقاء .. يخرج إلى بيته المقابل لبيت الشيخ رادع .. يرفع عينيه إلى السماء فيرى التماعات النجوم الخاطفة والقمر يخجل من أن يبزغ في هذا الليل السديم المعبق برائحة الجوع .. يُطيل النظر لباب جاره يؤنس المغلق ويرفع صوته بالدعاء ..

- شفاك الله يا يؤنس .. جعلتني والله أحسن حالا من الخليفة ..

يلتقط أنفاس الرضا وهو يصمم في قرارة نفسه أن يذهب في الصباح إلى الكنيسة لمقابلة جاره والاطمئنان عليه بنفسه ..

***

على حشية مصنوعة من الليف يتكئ ميمون بكوعه وهو يفكر في رحلة إلى بيت يؤنس لإحضار طعام العشاء وإفطار الصباح وهيأ نفسه لأن يأخذ شمعة لتضئ له المطرح فنهض إلى مخزن الورق وأدخل يده في الكيس وسحب مفتاح البيت وأمسك بشمعة كبيرة وهمّ أن يذهب فتفاجئه عالية بخروجها من الحجرة وبين يديها طاولة عليها أطباق خبز مبلل وثلاث سمكات مملحة ومخلل اللفت ففغر فاه واحتبس صوته وخرجت الكلمات مبتورة من فمه ..

- من .. من أين لك بكل هذا ؟

تضع الطاولة على مفرش قديم ذي أهداب ملونة وبدون أن تشبع فضول زوجها تنهمك في نزع حراشف السمك اليابسة وزعانفها وهي تنظر إلى ميمون في انبساط وتجيبه بصوت رخو ..

- أحضرته من عند أم بشير..

يمد يده بالمفتاح وهو يلقي بكلماته في صرامة ..

- لكن المفتاح معي ..

- من السطح .. ذهبت من السطح وأنصحك في المرات القادمة أن تذهب أنت أيضا من السطح .. أنسيت يا ميمون زمان عندما كنا أنا ورفقة نخبز ونتبادل العيش الطري من السطح وسمحة كانت دائما تجري خلف الحسن وتنط عندنا والحسن يسابقها إلى سطحهم ..

يسكت ميمون وهو معجب بذكاء عالية وجُرأتها لكنه يهز رأسه وهو يعاتبها على الذهاب دون إذنه ..

- لا تكرري الزيارة يا عالية واتركي لي أمر إحضار الطعام ..

تمسح يدها في خرقة بالية وتنهض إلى مخزن الورق وتعود وفي يدها الحسن .. تجلسه بجوارها وتعطيه الخبز ويشرعون في تناول الطعام .. تتحدث عالية وهي تلوك قضماتها ..

- قصدت صابحة في حفنة نعناع لأن الحسن عنده مغص فأخبرتني أن زوجها رزق عرف من شماس خارج من الكنيسة أن يؤنس مريض جدا ..

تسقط اللقمة من بين شفتي ميمون وتجحظ عيناه في قلق ..

- آه .. رزق عرف أن يؤنس يُعالج في الكنيسة ..

- وهذا سبب نصيحتي أن تذهب من السطح أفضل من أن يراك رزق أو غيره خارجا من البيت ..

- وعرف أن المفتاح معي ؟

- لم تأت صابحة لي بسيرة المفتاح .. لكن أخبرتني بما حدث في الفسطاط ..
- آه .. الطاعون .. الطف بنا يا رب واحذري يا عالية أن تخرجي من الدرب أو يلعب الحسن مع أحد في الخارج فالمرض معدٍ وخطير ..
- حاضر .. حاضر.. لكن صابحة حكت لي عن شيء فظيع حدث في الفسطاط .. ولكن .. قم يا حسن .. اغسل يديك ..
ينهض الغلام ورائحة السمك تنفذ من يديه وفمه وذهب ليغسلهما ودخل غرفته فتبادئ عالية زوجها ..
- زينة خادمة بنت شهبندر التجار .. تعرفها ؟
- والله ما حصل لي الشرف ..
تبتسم عالية لخفة ظل زوجها وطريقته الساخرة في الرد و تروي ..
- ذهبت لزيارة أختها في زقاق القناديل فاختطفها اثنان من السود وبسرعة قام أحدهم بقطع عجزها وقعدوا مع غيرهم من الجياع يأكلون اللحم ..
يقاطعها ميمون في هلع ..
- قطعوا من جسم السيدة وأكلوا لحمها وهي حية ؟ ! ؟
تتسارع أنفاس عالية وهي تسرد بقية الخبر ..
- وانشغل المجرمون في التهام لحم زينة وبرغم ألمها ودمائها النازفة إلا أنها تحاملت وخرجت صارخة في الشارع حتى سمعها أحد الجنود فنادى على زملائه وكبسوا البيت التي تشير إليه وقبضوا على المجرمين والأغرب ..
ثانية يقاطعها ميمون ..
- ما الأغرب الذي حدث بعدها ؟ عادت زينة وأكلت ما تبقى من لحمها ؟
- آه لو تكف عن مقاطعتي .. الأعجب أن الجند وجدوا عددا كبيرا من عظام المقتولين ملقاة في حوش البيت ..
- يا للفسطاط تلك الضاحية التي تعاني الوباء والجياع ..
- حتى بنت الشهبندر .. سمعت أنها قايضت قصعة مملوءة بالذهب والحرير بأخرى من الخبز..
تمسك عالية لسانها فينهض ميمون ويغسل يديه بماء قليل ولأول مرة منذ شهور ظن أنها لا تنتهي يشعر بمتعة الامتلاء وأنه يودع تلك الأيام الجدباء التي كان يصحو فيها على قرقرة معدته التي تدقها مطارق الجوع ولا أمل في الشبع ..
- وما أخبار ثريا ؟
- كل ما أعرفه عنها أنها ما تزال تبادل الذهب بالطعام ..
- ذهب القبور !
- والله يا ميمون أختي طيبة ولا ذنب لها فيما كان يفعله زوجها ..

في لا مبالاة يمط ميمون شفتيه وعلى السرير يتمدد و روحه تتنفس الأمان من وجود الطعام المستخزن في بيت جاره والذي يطعمهم لشهور قادمة إن اقتصدوا في تناوله حتى ينزل الغيث وينعم عليهم النيل بفيوض الخير..

تجلس جواره وتفتح كيسا صغيرا وتقدمه لزوجها الذي يدخل أصابعه وتخرج بحبات من الزبيب أقرب للنشفان .. يضعها في فمه فيرحّب بها لسانه .. يلوكها في بطء فيستشعر حلاوتها إلى أن أسرها جميعا داخل جوفه .. تلقي بالكيس الفارغ وتجيب على نظراته المستفهمة ..

- وجدت الزبيب في كيس معلّق وراء الباب .. والزبيب كله فوائد ..

بدت عبارتها لئيمة فنظر إليها في حنو وأناملة تلامس ذقنها المدبب ..

- يا رب النيل يفيض قبل نفاد الطعام ..

تطفئ ذبالة الشمعة وتقرّب منه بدلال وعبثت أناملها بشعر صدره الخفيف ودفنت وجهها في رقبته مستعذبة رائحة عرقه فقبّل وجنتها التي رطبتها الدماء واستشعر حرارة الطعام الذي بدأ يضخ الدماء مشعلا جذوات القوة وأحسّ ميمون بالريق يغادر فمه فاحتسى ما في القعب الفخاري .. يقرّبه من عالية التي يقاسي جوفها الظمأ فرواها الماء الدافق واستعذبت حلاوته التي طاردت عطشا كانت تعانيه طوال أيام الجوع ..

***

(21)

الليل طويل والجوع طويل كهذا الليل .. هبت رياحٌ صيفية ماكرة تمر بثلاثتهم من بين راقد وقاعد ومتكئ وقد نصب الجوع فخاخه حولهم فمكثوا على السطح الخفيض يرقبون الفرص وسوانح الحظوظ لسد أرماقهم الملتاثة .. فجأة يرفع أحدهم رأسه هامسا ..

- المدد يا رفاق ..

كقط متنمّر يسجد فاتك ويرفع رأسه في حذر وبدون أن يميل عينيه يفح كلماته ..

- إنها سيدة ..

تقترب رأس كاشر..

- يا لحظ الليلة .. إنه ولد وأعرج ..

يحدّق غراب في الشبح القادم نحوهم ويقطع الشك باليقين ..

- بل رجل يلف رأسه بشال و..

يرفع فاتك يده بأن يصمتوا وما إن يقترب الأعرج القصير حتى تـُلقى عليه شبكة من حبال الليف فتتعارك ذراعاه لإبعادها وهو يطلق صرخات الغوث فعاجله القناصون بالخطاطيف والكلاليب .. يسحبونه وفي سرعة ارتفع عن الأرض والرجل تتشنّج ذراعاه وتتعارك ساقاه في الهواء ويصرخ في رعب ممزوج بالألم للخلاص من تلك الأحبولة التي أحكمت عليه وفي أول ظهور لرأسه يعاجله فاتك بضربة من عصاه الغليظة فسكت لسانه وارتخت ذراعاه وتم سحبه إلى السطح ناحية السلم ونزلوا إلى صحن البيت ذي الغرفة الواحدة فيهوي فاتك بالساطور على عنقه وبضربة واحدة انفصلت رأسه ..

يجردونه من ملابسه وتعبث أصابع غراب بها فيجد في جيب داخلي ثلاثة دراهم وسُبحة .. يلقيها بلا اكتراث وأخيرا نفـّض الجلباب ووضعه ليقيسه على جسمه..

- قصير عليّ ..

لا يلتفت أحد إليه فيلقي الجلباب و يقعي أمام رفيقيه .. كضباع قتلها الجوع يتحلقون حول فريستهم ويقطعون الذراعين والقدمين و شرع فاتك في كشط اللحم من الفخذين الضامرين وكاشر وغراب توليا أمر الكتفين والصدر ورصوا شرائح اللحم في زنبيل صغيرلطخت حوافه بالدماء القانية .. ينهمكون في سلخ الأشلاء حتى أمست ضحيتهم عظاما فتخللت أصابع كاشر القفص الصدري وسحبه للغرفة الوحيدة المظلمة وعاد وهو يمسح يديه من التراب الممزوج بالدم ..

يرمقه فاتك بعين أصابها الرمد ..

- نسيت الرأس ..

بملل تقبض أصابع كاشر على الشعر الخفيف ويرفع الرأس أمامهم فيشيح غراب برأسه اتقاء العينين الساكنتين في وجوم فيعود كاشر إلى الحجرة ويدفن الرأس بجوار رءوس رفاقه من ذوي الحظوظ التاعسة .. يشير فاتك إلى حوايا البطن ..

- وأنت يا غراب .. ارحمنا من عفن المصارين ..

على خرقة قديمة يلم غراب الأمعاء ويلحق بكاشر ويعودان ليجلسا أمام الكانون وبينهم قفة اللحم .. يسحب منها فاتك الشريحة تلو الأخرى ويمددها على النار الهادئة وأمعاؤهم تصرخ فيسحب غراب قطعة ما تزال نيئة ويلتهمها ويقلده كاشر ..

أما فاتك فقد تعوّد الصبر إلى أن ينضج اللحم .. يمسح دمعة منحدرة من عينه التي احمرّت من شدة الرمد وبطرف جلبابه يمسح قذاها ويلوذ بالصمت حتى إذا ما فاحت رائحة الشواء يبتسم لقرينيه الجشعين فتنكشف أنيابه الذئبية .. بأنامل يابسة يسحب نصيبة ويأكل في بطء..

ينهون غذاءهم فيستلقي غراب على الأرض بجوار الجدار في حين ينشغل كاشر بتنظيف الساطور والسكاكين استعداد للصيد الجديد

- ناولني القلة يا كاشر ..

- أمرك يا معلم زيد يا ذراعنا الحديدي ..

يناوله كاشر القلة وأمام الجدار المقابل لغراب يتمدد متوسدا ذراعه .. يتكئ فاتك بكوعه على حجر وتقع عيناه على الدراهم والسبحة فنهض يلمهم .. يفتح غطاء صندوق خشبي قديم .. يمط شفتيه ويبتسم للأسلاب التي اغتنموها من ملابس ضحاياهم من دنانير وسكاكين صغيرة وخواتم فضية .. تنفلت أصابعه بالدراهم فترن وسط أشياء الصندوق .. يرفع السبحة أمام عينيه فيرتجف قلبه لحباتها البيضاوية المحفور عليها كلمة الله ..

يخطو للخلف فيعود لمكانه ويجلس والجدار يسند ظهره .. يتلفت بحثا عن الخرقة التي يمسح بها قذى عينه فلم يجدها .. يسحب رداء فريسة اليوم وبالماء يبلل طرف الجلباب ويضعه على عينه الوارمة ..

تميل رأسه إلى الوراء .. تعبث أصابعه بخيط السبحة الحريري وتتماوج حباتها من بين رموشه التي تتشابك أهدابها فتطفر أمامه سبحة الشيخ عابد بلحيته الكثيفة السوداء وهو يجلس في زاوية صغيرة بجامع القاهرة الكبير.. حوله لفيف من الأولاد يحفّظهم القرآن ويتردد صوته في ذاكرته ..

- اقرأ يا فاتك يا ابن زيدان ..

- لم أتوضأ يا شيخ ..

- وتمسك بالصحيفة وتجلس معنا ؟ اذهب وتوضأ الله يهديك .. أخوك مصعب حفظ ثلاثة أجزاء وأنت ..

يغمض فاتك عينيه ويتمتم ..
- أبتعدُ تودعني عيونهم الشامتة .. أذهب إلى الميضأة ومن بابها الخلفي أخرج إلى دكان أبي فأجده ينهي سلخ نعجة .. في سرعة أشترك معه في رفعها لتتعلق في الكلاليب الحديدية .. كنت ماهرا في تعرية العظام من اللحم حتى أعجب بي زبائن أبي لكن زيدان القصّاب كان دائما يعيدني إلى حلقة الشيخ عابد ويتوعدني بالضرب إن لم ألتزم وحرمني من أكل اللحم أياما طويلة وتكرر هروبي فطردني من دكان الجزارة .. لا أنسى يوما أني جريت حتى حافة بيوت القطائع وقابلت ثلاثة يأسرون خروفا صغيرا ويريد أحدهم خنقه فعرضت عليهم ذبحه فوافقوا .. أخرجت سكينا وذبحت الخروف بل وسلخته وقطعت لحمه وقسمته عليهم وأخذت منهم الورك كأجر عملي ..
ويوم أن عمل مصعب في الجيش ذبح أبي تيسا وأقام وليمة لأصحابه لم أنل أنا منها قطعة لحم لغضبه عليّ فأصبحت أصيد السخل من الغنـّام وأذبحه وأشوي لحمه في خرابة وألتهمه لوحدي وتعوّدت الحياة وحدي .. آه .. وحدي .. ربما لو أن أمي لم تمت بالحمّى في أسبوع ولادتي كما حكوا لاهتمّت بي ..
رويدا ينفرج جفنا فاتك فتسيل دمعة على خده الجامد .. يهز رأسه للسبحة وينزلها برفق إلى قاع الصندوق .. يغلق الغطاء وتزيغ نظراته بين رفيقيه النائمين فينقبض صدره لوجه كاشرالعكر ويشمئز من ظهر غراب الممصوص ورائحة فسائه العفنة تعبق المطرح وودّ في قرارة نفسه أن يفارقهما ويعود إلى كنف أبيه وعمه ميمون ..
يميل برأسه في حسرة ويتمتم بصوت مسموع ..
- معهما أعرف كيف أصيد أما مع أبي فسأموت أنا وهو من الجوع ..
يراوده النوم فيتمدد بجوار الصندوق وعيناه إلى سماء السقف الجريدي ويغالبه النعاس حجر يجثم على صدره فيفتح عينيه ليجد غراب يعتليه وينشب أظافره في صدره وكاشر يهوي على عنقه بالساطور فتنفصل رأسه ويظل فمه يطلق الصرخات وعيناه ترميان صاحبيه بنظرات الدهشة والفزع وهما يشجان صدره ويأكلان قلبه النابض ..
- لاااااا ..
يصرخ بها فاتك وهو ينتتر جالسا وجبينه يتفصّد عرقا وأنفاسه تتلاحق .. تصطدم عيناه بغراب وكاشر اللذين ما زالا نائمين .. يشعر بجفاف حلقه بأصابع مرتجفة يرفع القلة ليخمد نيران جوفه فيزبد الماء بين شدقيه .. تهدأ ضربات قلبه .. بذراعه يتسنـّد على الجدار ويقف .. يسحب الساطور وتعتصر أصابعه مقبضه الخشبي ..
- يحدث هذا ؟ لم لا وقد تعرّفت عليهما في خرابة أرض الطبالة ونهشا معي ورك صبيح .. حتى اسمي الحقيقي لا يعرفانه .. لكن غراب جبان وكاشر يعجزعن ذبح فأر، ويوم أن اصطدنا عجوزا وبرغم أنه أغمي عليه لكن كاشر عجز عن قطع رقبته وترك لي هذه المهمة فآخرهما أن يشتركا معي في سلخ اللحم ..

انقضى وقت وفاتك يحادث نفسه وهو يمسك الساطور و رأى أنه من الأجدر أن يفارقهما وقتا ..
تمنطق بقطعة قماش طويلة وثبت بها الساطور .. سحب جلباب الرجل من الأرض وفرده أمامه فظهر قصره الواضح لكنه لبسه ولف الشال الخفيف على رأسه .. في قطعتي قماش يخفي ما تبقّى من الثريد الدافئ ويدس اللفتين داخل الجلباب .. يلقى نظرة أخيرة على رفيقيه النائمين .. يفتح الباب فيتجدد الهواء في صدره .. يرنو إلى السماء .. يجد الليل في نزعه الأخير .. يغلق الباب ويخطو مبتعدا فيتناهى لمسامعه ارتجاعات صوت الأذان ..
بنفس حاذرة تقبض أصابعه على الساطور، كعادته يمشي في منتصف الشارع مبتعدا قدر الإمكان عن جدران البيوت وأبوابها المغلقة ..
يسير قاطعا الحارات الضيقة إلى أن يقف أمام باب منخفض .. يقرعه ونظراته تمسح المطرح المحصور بين الصمت الساكن والعتمة .. يستطيل الوقت قبل أن تحدّق عينان من فتحة صغيرة ولم يلبث أن سمع المزلاج وهو ينسحب وينفرج الباب لتشده يد نحيلة للداخل .. يدلف محني الظهر .. يترك نفسه لليد التي تسحبه في صمت .. يثبت مكانه ..
- عندك أحد يا شوق ؟
- لا .. تعال معي ..
بعد دهليز قصير مظلم يدخل حجرة واسعة مضاءة بمصباح زيتي صغير .. يجلس على السرير الوحيد في الغرفة فيشعر بهدوء نفسه وهو يتأمل وجهها الذي نحل .. يبتسم لها فتكافئ ابتسامته بالجلوس ملتصقة به .. تعبث أصابعه بواحدة من اللفتين ويفردها .. تتسع عيناها اللتان أضناهما الحرمان ..
- لحم ؟!؟ أحبك يا فاتك ..
تستدير السيدة الأربعينية فيحلق فاتك في عجيزتيها اللتين ما تزالان ممتلئتين رغم غوائل الجوع التي اجتاحت الناس ..
تغيب شوق داخل غرفة جانبية مظلمة .. يزر فاتك عينيه للهب المصباح المتراقص ويرى في بقعة الضوء صاحبه صبيح الذي أتى به إلى بيت شوق لأول مرة ولم يكن شاربه قد اختط بعد وشوق وهي تتمايل على أنغام تصفيق الرفاق من حولها وشرار وقانع يضربان بالدُف إلى أن تنتهي رقصتها بالجلوس وسطهم لتداعب نفوسهم الظامئة وفي إحدى الأماسي السعيدة عرّفه صبيح على شرار و قانع وظل يرافقهم في تلك الأسمار البعيدة وعند انصرافهم يجود كل منهم بما يقدر من دراهم أو قنان العطور أو أثواب الحرير ..
- من شهور لم أذق اللحم ..

يلتفت فاتك لمجيئ شوق فتبخرت الصورة من ذاكرته ولم يتبق منها إلا منظر رفاقه الثلاثة وهم معلقون في المشانق تطوّح أجسادهم رياح القحط ..

- فاتك .. سرحت ؟

- افتكرت صبيح و شرار و قـ ..

تقاطعه وهي تركن قلة الماء وتشرع في تناول اللحم ..

- من زمان لم أرهم ..

- ماتوا ..

لبرهة تتوقف عن المضغ وبنفس اعتادت تغير الرفاق تعاود أسنانها طحن الطعام وهي تقول في لا مبالاة ..

- ماتوا في الوباء ..

- نعم يا شوق .. وباء الجوع ..

- شدة وتزول ..

تقرّب منه طبق اللحم فيشاركها تناوله في صمت وسمعته يغمغم ..

- متى تزول فنعود لنأكل اللحم الحلال ؟

تلوك القضمات وهي ترمقه في ريبة ..

- وباء الجوع .. اللحم الحلال ؟ كلامك غريب الليلة ..

- لا تبالي يا شوق .. المهم .. احذري الخروج من البيت فقد انتشر الطاعون في القطائع والفسطاط حتى في بعض أزقة القاهرة رأيت الناس ترتمي في الطرقات وتظل تصارع الحمّى فتموت ولا أحد يسعفها ..

- من أسابيع طويلة وأنا ملتزمة البيت ..

يخفض رأسه حتى لا ينظر في عينيها وينخفض صوته وهو يواصل

- والجياع يخطفون السيدات والأطفال ويأكلونهم ..

في صوت مسموع تزدرد شوق ريقها ..

- حتى هذا الإشاعات التي يرددها الناس سمعتها ..

يرفع رأسه في حدة ويتناول من الطبق آخر قطعة لحم وينظر إليها في سخرية .. يدسها بين شفتيها ..

- حقيقة لا إشاعات يا شوق ..

- ربك هو الستار ..

اقتربت منه فلفحت أنفاسها الكريهة أنفه لكنه استعذب شفتيها المكتنزتين وسكنا في لحظة خدر مؤرقة ومن بين رموشها الناعسة لحظت فجأة جحوظ عينيه وارتعشت شفتاه وارتسمت انقباضات وجهه المألومة فأبعدها في رفق و نهض وهو يقوّس ذراعه حول بطنه ..

- لا يوجد ماء ..
فاهت بها شوق في تقطيب فيهز فاتك رأسه ويقترب من الكنيف فيلفح وجهه هواءٌ يحمل في هبوبه روائح مضمخة بالزنخ ..
تتلوى أمعاؤه وهو يستند بذراعه على الجدار فاستشعر غصّة كادت أن تقتله ومال بوجهه فاجتاحته موجة من الغثيان فقاء ما في جوفه في دفقات متتابعة حتى إذا ما هدأت نفسه خرج وبقايا السائل يسيل من جانب فمه ..
تقدّم له شوق كوبا فيشربيصوت مسموع .. نام على السرير وبأناملها باعدت بين جفنيه وسكبت سائلا في عينه الرمداء شعر بعدها فاتك بالارتياح .. تمددت جواره وتركها تمسح بكفها عظام صدره البارزة .. تنتظم أنفاسه ويغمض عينيه فتسمع زفيره الممطوط .. تغمض عينيها وهي تغمغم ..
- يا لقلة الحظ يا شوق ..

*

ينفرج جفناه ولأول وهلة لا يدري المطرح الذي يبيت فيه فالبيت ذو السقف الجريدي والجدران المتهتكة وكراهة الروائح هو ما يعيشه في كل مكان .. رويدا تنقشع غمائم ذاكرته فتمسك يده بذراع شوق الملتفة على وسطه .. يشعر بارتياح معدته الفارغة فنهض جالسا وأحست به فجلست جواره .. زاغت عيناه بحثا عن شيء فرفعت شوق الساطور .. أخذه وما تزال عيناه تفتشان حول السرير وثانية ترفع أمامه اللفة الأخرى يبتسم وهو يمد يده لأخذها ويرتدي ملابسه مثبتا الساطور في نطاقه واللفة داخل العباءة القصيرة .. يقف أمامها فاقتربت منه في وجوم .. أبعدها في رفق والدموع تبلل رموشها .. يسير قاطعا الممر الضيق حتى إذا ما وصل إلى الباب المغلق طبطبت على كتفه ..
- لا تغب يا فاتك فلا أحد يأتيني غيرك ..
تسحب الباب ودارت نظراتها في الحارة الخالية التي يؤنسها ضوء الصباح وأمام الباب الموارب تغمز بعينها وهي تودعه ..
- المرة القادمة تكون صحتك أحسن ..
تفتر شفتا فاتك عن ابتسامة هزيلة وبدون أن يتكلم خرج وأغلق الباب .. خطا يتحسس طريقه حتى غادر الزقاق الضيق وازدادت الشمس إشراقا .. انعطف في شارع كبير في طريقه إلى البيت .

***

عند مفترق الطرق يفاجأ بلفيف من الجياع يطاردون كلبا إلى أن أسروه بينهم ولم ير إلا السكاكين ترتفع وتنخفض والدماء تسيل منها فيبتعد عنهم دون أن تغادرهم نظراته حتى اصطدم بأحد فيهم برفع الساطور ..

- فاتك ؟

يلتقط أنفاسه للوجه الذي يندهش لرؤيته ..

- أهو أنت يا غالب ؟

يمد الشاب يده مصافحا ..

- لم أرك منذ أشهر طويلة فحسبت أنك هجرت القاهرة ..

- لا يا غالب فإني مقيم مع أبي وأعمل مع أصحاب لي في الجزارة .

- الجزارة ؟

ينهي فاتك مقابلته مع زميله ويشد على يده لكن غالب يقترب منه ويسأله ..

- أ تزور صاحبتنا شوق ؟

- كنت عندها وهي بخير وتسلم عليك .. أستأذنك لأني تأخرت على أبي ..

يبتعد فاتك عن غالب الذي يظل واقفا ويتمتم في تعجب ..

- جزارة ؟!؟ وهل يوجد في البلد أرنب يذبحه ؟

يتنفس فاتك الصعداء وهو يقطع الشارع ويشعر بالندم لأنه أخبر غالب بأمر شوق فقد يذهب إليها فيختطفه أحد أو يكبس عليهما الجياع ويلتهمونهما .. يهز رأسه في لا مبالاة ويقترب من الشارع المؤدي لدكان الجزارة لكنه انحرف مبتعدا عن مريض يتكوّم بجوار حائط ويقئ الدماء من فمه ..

يجد في سيره إلى أن لاحت الحارة من بعيد فتجحظ عيناه لشاب ملقى على الأرض ينازع وما من أحد يغيثه .. يبتعد عنه فاتك مودعا آهاته المحمومة .. خطوات ويقف أمام باب البيت فيقفز متحاشيا الاصطدام برجل لا يرتدي إلا ما يستر عورته يراه مهرولا وهو يصيح بكلمات غير مفهومة ..

بقبضته يخبط فاتك باب البيت وينتظر إلى أن ضاق صدره فيهم برفع يده لمعاودة الخبط لكن الباب انفرج ليلوح له وجه أبيه الممصوص فيدخل في سرعة اتقاء الشمس الحامية ويغلق زيدان الباب بإحكام ويقف أمام ابنه وهو يقبض على سيخ حديدي غليظ وبصوت يائس يحادثه..

- فاتك .. أنت بخير يا ولدي ؟

يهز فاتك رأسه وهو يردد ..

- بخير .. رأيت وأنا قادم مناظر رهيبة ..

- جنون وأصاب البلد يا ولدي ..
لم يندهش فاتك من رد أبيه وحزن لحاله وشعر بالندم لأنه سلبه الساطور الذي يدافع به عن نفسه فتسلح بقضيب حديدي ..
يجلسان متقابلين فيسارع فاتك ويفرد اللفة لتكشف عن قطع اللحم المشوية ..
- كل .. كل يا أبي .. إنه لحم ..
- ومن أين اشتريته ؟
- اشتريته ؟ لا يا زيدان يا قصاب .. أنا والرفاق عثرنا على خروف أعرج صغير فضحّينا به وتقاسمنا لحمه ..
يهز زيدان رأسه وهو يرمق فاتك بنظرات الشك .. يتناول قطعة لحم باردة ويقضمها .. يلوكها بين أسنانه فتخرج الكلمات متقطعة ..
- فاتك يا ولدي .. أنا كبرت و ما عدت أتحمّل الوحدة .. والله لو مت لا يشعر بي أحد حتى أتعفن ..
- لا تقل ذلك يا أبي وربنا يرجّع أخي مصعب بالسلامة ..
- مصعب .. آه على أولادي .. واحد غيبته طالت حتى قطعت الأمل في عودته والثاني هجّاج في دنيا الله ..
- وما أخبار عمي ميمون وابنه الحسن وزوجته ؟
- بخير ولولا طعام عمك ميمون لمت من الجوع .. لكن أنا قلق على عمك منقذ يا فاتك .. انقطعت أخباره من أول الشدة ..
- أكيد حاله أحسن من حالنا والزرّاع في خير مهما حصل في القاهرة وأهو بعيد عن الضنك والمرض ..
- آه على الوباء الذي يحصد الناس ولا مغيث .. ما رأيك لو نسافر إليه ؟
في لا مبالاة يهز فاتك رأسه التي يشعر بثقلها فيتثاءب معلنا رغبته في النوم .. فيستلقي على ملاءة قديمة ..
لم يستسغ زيدان قطع اللحم فترك باقيها في الطبق وغطاها بالقماش ونهض ملقيا نظرة يائسة على ولده ويقرر أن يذهب لميمون فيغلق الباب على ابنه ويغادر حارته الضيقة وما إن يسير في الشارع حتى تصم أذنه الأصوات الزاعقة من شارع جانبي فيظهر رجل يجري وبين كفيه حفنة دقيق يتبعه لفيف من المطاردين ويلحقون بالرجل الذي تتعثر قدمه فيقع ويتكالب عليه كل من يستطيع أن يلحس ما يطوله لسانه من دقيق والرجل يصرخ لاعنا الباركين فوقه ..
يضرب زيدان كفا بكف ويبتعد إلى أن يصل لدكان ميمون فيجد عربة متهالكة أمام الدكان وميمون وريان ينهيان تحميل أكداس القراطيس والطومار وأوعية الأحبار عليها وبدون أن يستأذن يشترك معهما زيدان في ربطها بالحبل وهو يسأل ..

- هل استغنيت عن تجارتك يا ميمون ؟
- لا تجارة حتى تنكشف الغمة .. هيا يا زيدان إلى البيت ..
بعجالة يغلق ميمون الدكان شبه الفارغ إلا من الأوراق والقراطيس الممزقة و زبل الفئران المتناثر ويشرع ريان في جر العربة وزيدان وميمون يدفعان من الخلف إلى أن اجتازوا فتحة درب الريحان الضيقة فتوقف ميمون للأصوات الصائحة من بعيد فالتفتوا جميعا ليروا معركة حامية بين عصبة من السود وجند الخليفة وارتعبت عينا ريان للسيوف والعصي التي ترتفع وتهوي فتفلق الرءوس وتبتر الأطراف حتى تراجع السود إلى الجانب الآخر من الشارع يطاردهم جند القصر وابتعدوا جميعا .. يستأنفون المسير والعربة تتعثر عجلاتها في الحفرالصغيرة حتى تتوقف أمام بيت ميمون فيفتح الباب على مصراعية وينهمكون جميعا في إدخال الأوراق للمخزن ويساعدهم الحسن بحمل ما يقدر عليه حتى انتهوا من إفراغ العربة فجلسوا في مدخل البيت يلتقطون أنفاسهم و يتبادلون قلة الماء ..
بإشارة من عالية الواقفة أمام غرفتها يغلق ميمون باب البيت ويذهب ليعود بطاولة عليها أطباق الجبن والعسل والخبز الجاف ويضعها أمامهم ويُجلس الحسن جواره و تبدأ أيديهم في تناول الطعام وريان تغمره سعادة بالغة للطعام الذي يتناوله مع أهل الدرب والذي يوقن تماما أن مثله لا يتوفر مع كبار قواد الخليفة ووزرائه بل ومع الخليفة نفسه الذي سمع أنه يبيع متعة القصر ليوفر طعامه .. يلحظ ميمون الفرحة تطفرعلى وجهه ريان فيبادره ..
- تريد أن تعرف من أين يأتيني الطعام ؟
- حاشا لله يا أبا الحسن ..
- على كل قد جاءني ليلة أمس قادم من عند أخي منقذ وأهداني بلاصين صغيرين من عسل وجبن وكيس دقيق ..
يهز ريان رأسه وهو ينهي طعامه ..
- ربنا يزيدك من نعيمه يا شيخ ميمون أصلك طيب وربنا كارمك ..
يقترب ريان من ميمون ويوشوش ..
- احذر يا أبا الحسن أن يشم أحد خبر بما عندك وإلا ..
بدوره ينهي زيدان طعامه و يخرج من صمته ..
- وإلا سيهاجمك الجياع بلا رحمة فلم أحك عما رأيته وأنا قادم ..
ينهض ريان مستئذنا ويمسح بأصابعه على شعر الحسن ثم يخرج من البيت ويغلق ميمون خلفه الباب فيبادره زيدان بفرحة ..
- وكيف حال منقذ ؟
- لا أعرف ..

- لكنك قلت لريان ..
يقاطعه ميمون ..
- قلت هذا لريان حتى أبعد عن تفكيره أن القوت يأتينا بمعجزة لا من بيت يؤنس ..
- وقلت أنه لجأ إلى الكنيسة ..
- ومات هناك .. أخبرني رزق أن المقدس يؤنس مات واندفن جوار زوجته وقد ترك مفتاح البيت عندي ولو ترُك الطعام لأصابه العطب والحي أبقى من الميت فما بالك وأيام الجوع التي نعيشها ..
يهز زيدان رأسه مقتنعا ويسأل أخاه ..
- بيوت الدرب معظمها مغلقة ؟
- الشيخ عامر أرسل حميد وأخاه عند أهله في الشمال ونصيف الإسكافي سمعت أنه هاجر إلى الصعيد ..
- وعبد البر الغزال ؟
- سافر مع زوجته عند أهلها و رزق وصابحة طوال النهار بين بيوت القاهرة وأخشى عليهما من الوباء والشيخ رادع الكتامي هذه الأيام يلزم بيته لأن ابنته سكينة تعيش معه .. ما رأيك لو نرحل عند أخينا منقذ ؟
- فيك شيء لله يا ميمون .. أنا و فاتك تكلمنا في هذا قبل مجيئي ..
- فاتك ؟ أهو عاد ؟
- وتركته نائما في البيت .. المهم أنا جاد ..
تبرق عينا ميمون الذي كان يعارض من قبل فكرة الرحيل من القاهرة التي تحترق بنيران الجوع وشظف العيش بعد جفاف النيل وأصبح الحال كل يوم من سيئ لأسوأ فيهز رأسه علامة الاقتناع .. ينهض زيدان منتعلا خفه المقطع ..
- سأرجع للبيت وأقنع فاتك ..
- انتظر ..
يدخل ميمون ويعود وفي يده لفة ورق صغيرة يدسها في عب أخيه وهو يبتسم ..
- غذاء فاتك ..
- وما أخبار ابنة عمنا أم قارون ؟
- عالية تقول إنها بخير على الأقل ذهب أيوب الذي اغتصبه من توابيت الفراعين يوفر لها ولأولادها الطعام الآن ..
- والله يا ميمون ثريا ظلمت بزواجها من هذا النهّاب فقد اغتصبها من عمنا كذهب الفراعين الذي يخرجه من مقابرهم .. ونال جزاءه على أيديهم عندما دخل الهرم ولم يخرج ..

- ولن يخرج يا زيدان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولكن الذي يغضبني منها أنها عندما علمت بسر زوجها لم تثر عليه ولم تعترض على ما يفعل وهي التي تربت مع عالية في بيت شريف لا يقبل الحرام ..

- عرفت بعد سنين .. بعد أن أصبحت صاحبة عيال .. اعذرها يا ميمون ..

ينهي زيدان كلامه ويخرج فيغلق ميمون الباب .. يذهب لحجرة النوم فيبتسم لابنه الحسن الذي ينكمش في حضن أمه .. يلفهما بنظرات الحنين ثم يزم شفتيه ويتلاقى حاجباه في تقطيب خوفا عليهما .. يخرج من الغرفة .. يتخفف من ملابسه .. يدخل مخزن الورق .. يسحب كتابا قد توقف عن نسخه لأحد طلاب جامع القاهرة الذي اختفى كبقية زملائه .. يجلس إلى المنضدة .. يغمس إصبع الغاب المدبب في الحبر وطفق يكمل نقل ما في الكتاب .. يهز رأسه لخطه الجميل .. يتوقف ملقيا القلم جوار المحبرة وهو يغمغم ..

- لا فائدة من ذلك كله ..

يغلق الكتاب ويطوي القرطاس الذي كتبه ويركنه جوار أصحابه .. يتمدد ويغمض عينيه لائذا بهجعة القيلولة فيطوي بها النهار الساخن .

***

(23)

لم يسمع ميمون أذان العصر برغم يقينه أنه استيقظ قبل الأذان فظل ينعم باسترخائه الكسول ودار تفكيره في حال البلد التي تتساقط يوما بعد يوم في هوة الفقر والمرض والفتن المشتعلة بين الجند والسود واستطال تفكيره إلى طريق معتم لا سبيل إلى الخروج منه إلا بعودة فيضان النهر من الشلال إلى المالح ..

تدور به دوامات التفكير فيغمض عينيه عائدا للنوم لكن خبطا ثقيلا على الباب جعله ينفض غبار الاسترخاء وينهض ليفتح الباب .. يطالعه وجه ابن عائشة كاتب القاضي خلفه أحد الجنود ..

- السلام عليكم يا ميمون ..

- مرحبا بابن عائشة .. كيف حال قاضينا أبي أيوب القحطاني ؟

- كغيره يصبر على الشدة و يقرئك السلام وأرسلني إليك يطلب قراطيس و مداد ..

- تفضلا ..

يفسح ميمون الطريق للكاتب وتابعه فيدخلان مخزن الورق .. يجلس الكاتب فيقف جواره الجندي الذي يلمح الزير وبدون أن يستأذن يرفع الغطاء الخشبي وتغوص يده بالقعب إلى بطن الزير و يشرب فيرمقه ابن عائشة باستياء لكن ميمون يطبطب على كتف الكاتب ويبتسم ..

- لا عليك يا ابن عائشة .. المهم .. ما مقدار القراطيس التي ..

يقاطعه كاتب القاضي وهو يمر بعينيه على أكداس الورق وجرار الأحبار الصغيرة ..

- أي ورق من أي نوع وأي مداد يتوفر عندك ..

يفرد ميمون حبلا ليفيا رفيعا ويرص عليه لفة قراطيس ويربطها جيدا ويسحب قنينة كبيرة ويضع في فتحتها قمعا ويساعده الجندي في تثبيتها .. يسكب ميمون المداد السائل حتى فاض فيسحب القمع ويغلق فم القنينة جيدا .. يقف الكاتب ساحبا كيسا صغيرا يعطيه لميمون الذي يفتح رباطه ..

- دنانير .. لو يتصدّق القاضي عليّ بخبز لكان أفضل ..

يشير ابن عائشة للأوراق وإناء الحبر فيحملهم الجندي بتأفف ويخرج من البيت فينظر الكاتب في عيني ميمون وهو يكز أسنانه ..

- آه لو تتصدق أنت عليّ وعلى القاضي بالخبز..

يضحك ميمون وهو يتقدمه ويسأل ..

- لم يحتاج القاضي كل هذه الأوراق ؟

- لحساب المواريث .

- المواريث ؟ وهل يفكر أحد في المواريث ونحن نعاني انعدام الأقوات والوباء ؟

- الوبااااء .. وضعت يدك على المفيد .. صباح أمس أتى أفراد عائلة للقاضي ليحدد لهم ميراث جدهم وبعد الظهر أقبلوا عليه ليحسب لهم ما ورثوه من الأخ الأصغر لجدهم وما إن عاد القاضي من صلاة العصر إلا وطلبوا منه إعادة تقسيم الميراث لأنهم دفنوا أباهم فور عودتهم ..

تتسع ابتسامة ميمون وهو يضرب كفا بكف ..

- وبعد العشاء ؟

- طلبوا تقسيم ميراث أخيهم الأكبر الذي دفنوه بعد المغرب ..

يتبادل ميمون وابن عائشة الضحكات وبدون أن يستأذن يرفع غطاء الزير ويغترف منه ويشرب .. يخرج الكاتب ويغلق ميمون الباب فيلتقي بعالية الخارجة لتوها من الكنيف وتعجبت لوجهه المشرق وهو يقول ..

- شر البلية ما يضحك ..

تهم بالكلام لولا دق خفيف على الباب فتدخل الغرفة ويعود ميمون وهو يظن أن ابن عائشة قد عاد لأخذ قنينة حبر زيادة .. يفتح الباب فيطل عليه وجه سكينة بنت الشيخ رادع الكتامي التي تتكلم بانكسار ..

- أم الحسن موجودة ؟

- أكيد يا ابنتي .. الشيخ رادع بخير ؟

- بخير لكن .. طوال النهار لم نذق شيئا ..

- عودي إلى البيت وسأزور أباك حالا ..

يقف ميمون خلف بابه المغلق وهو يتنفس بملء رئتيه ..

- الله يرحمك يا مقدس يؤنس .. ورثتني الأغلى من ميراث الأرض والمال ..

يعود لعالية فيجدها جالسة على السرير ..

- إنها سكينة .. تريد طعاما ..

- لكنه نفد .

- سأحضر المزيد ..

يرتقي ميمون السلاليم فيجد الشمس تميل ناحية الغروب الضجر .. يتنسّم الريح التي تهب في إيقاع رتيب مخلفة وراءها صدى الأصوات البعيدة .. يتلفت يمنة ويسرة فتأكد من خلو الأسطح المقابلة .. يخطو نحو سطح جاره ويسرع إلى السلم فينزل إلى أن يقف أمام باب الخزين .. يبعد المنضدة المركونة أمامه .. يفتحه فقرقرت معدته التي تتشهّى الطعام .. يفتح الكيس ويملأ نصفه بالخبز .. يفرش عليه منديلا ويرص عليه قطع الجبن والأسماك وحبات المخلل .. يربط الكيس جيدا ويستشعر ثقله .. يرفعه على كتفه ويعود إلى السطح وما إن يرفع رأسه إلا وتطالعه عالية المنتظرة في الناحية الأخرى فيسرع إليها وتتلقف منه حمولته وينزلان ..

يجلس ميمون لاهث الأنفاس فتعطيه عالية كوب الماء فيشربه دفعة واحدة .. تفك الحبل وتعيد إخراج الطعام فتضعه في المواعين المختلفة وجهزت الصرة التي سيأخذها ميمون للشيخ الكتامي .. يمسكها ويترك عالية منهمكة في وضع الخبز في القفة الصغيرة ..

تفتح سكينة الباب وتفسح الطريق ليدخل ميمون على الشيخ رادع الذي ينهي صلاته ويرفع كفيه في دعاء قصير .. تأخذ سكينة الصرة وتذهب للداخل .. ينتظر ميمون حتى ينهي الشيخ دعاءه ..

- أنا لم أسمع أذان العصر يا شيخ رادع ..

في حدة يميل وجه الشيخ ناحية الصوت ..

- ولن تسمع المغرب أو العشاء .. هجر الأئمة والمصلون الجوامع والمساجد أو لنقل : اختطف الوباء أكثرهم ..

تقبل سكينة بالطعام فتضعه بين أبيها وميمون وتعود ..

- أما في أخبار عن زوجها .. غيبته طالت ؟

يمط الشيخ شفتيه وهو يتحسس الطعام ..

- ربنا فرجه قريب ..

ما يكاد يلوك كسرة خبز بالجبن إلا ويُقرع الباب فينهض ميمون لفتحه ليجد جواد المصمودي يقف أمامه .. يعلو صوت ميمون بالترحيب ..

- جوّاد .. حمدا لله على سلامتك يا ولدي .. إنه جواد يا شيخ رادع ..

يقف الشيخ و صوته يعلو ..

- زوجك عاد يا سكينة ..

تقبل سكينة لاستقبال زوجها والفرحة تطرّز وجهها الصغير فتجده يسلم على أبيها وميمون ..

- جواد .. حمدا لله على سلامتك .. استرح ..

يجلس جواد صامتا فتلاحظ سكينة ذبول سحنته التي غابت عنها فرحة العائد لأهله فتأتي بماعون الماء ليغسل وجهه ..

- استعدي يا سكينة للعودة لبيتك ..

بدون أن يرفع جواد رأسه ..

- لا يا شيخ رادع .. ستبقى سكينة هنا وأنا معها ..

ران الصمت على الجميع حتى قطعه ميمون بالاستئذان فخرج من بيت رادع الذي ينتظر أن يوضح زوج ابنته سبب طلبه فتبتدره سكينة ..

- ماذا حدث ؟

- عندما عدت للبيت وجدته مقلوبا رأسا على عقب ونُهبت أثاثاته وكُسّرت وما به شيء سليم ..
تصرخ سكينة في فزع ..
- بيتي ..
تستدير داخلة وهي تدفن وجهها بين كفيها باكية .. فيغمغم الشيخ رادع بصوت مسموع
- الجوع جعل الناس ينهبون حتى حرس الخليفة .. حتى الخليفة نفسه جاع هو وأهل بيته ..
يأتيه صوت جواد المنكسر ..
- أهل بيت الخليفة بمأمن من الجوع ..
يرد الشيخ رادع ساخرا ..
- هل وضعهم داخل مخازن اليازوري الفارغة ؟
تحتبس الابتسامة عن شفتي جواد وهو يقول ..
- بل أرسلهم خارج مصر .. فقد كانت هذه مهمتي التي غبت فيها أسابيع طويلة .. رافقنا موكب أهل الخليفة حتى العريش وهناك استكملت كتيبة أخرى مهمة حمايتهم حتى بغداد ..
- والخليفة ؟
- الخليفة هنا في قصرة يدبر أحوال البلاد ..
يهم رادع أن يقول شيئا فتقاطعه صرخة بعيدة ممطوطة فرفع حاجبيه وهمّ أن يقف فيعاونه جواد ويعطيه العكاز ..
- سأستطلع الأمر ..
- آتي معك ؟
- بل ابق مع زوجتك .. سيصحبني ميمون .. لا تقلق ..
يخرج الشيخ رادع فتقبل سكينة بعينيها المغرورقتين بالدموع فتتلاقى نظراتهما في شوق ممزوج بالخوف من المستقبل المجهول .

***

(24)

لم يدخل ميمون بيته إنما جلس على المصطبة يقلب بعينيه بيوت درب الريحان التي أغلقت معظمُ أبوابها حتى بيت نصيف الإسكافي أقدم بيت فيه والذي كان يفاخر بأنه ورث البيت من جده الخامس الذي بناه هجر الدرب فارا بأهله من القاهرة التي أمست خرائب صامته تنضح بالحزن ..
يسبح في دوائر الحنين إلى ذكريات طفولته وترعرعه في درب الريحان ثم زواجه وسكنه في بيت أبيه فاستبعد هجرته إلى أي مكان آخر وشعر أنه سيموت لو رحل عن الدرب أو ابتعد عن جاره وصديقه الشيخ رادع الكتامي .. يعض شفته ويحدّق في البيت .. يفرد كفه فيلامس الطوب البارز من الجدار .. دمعة تتحجر داخل عينه فيعتصرها بجفنيه ويفتحهما فجأة على صرخة تشق السكون تعقبها الثانية فتجعله يجفل في وقفته ويلتفت في حدة لخروج الشيخ رادع ..
- ميمون ..
يخطو إليه ميمون ويمسك بيده ..
- سمعت ؟
- إنها من بيت الشيخ عامر ..
يمشيان إلى أول الدرب حتى يقفا أمام البيت ومن جوفه يسمعان بكاء و نهنهات عبثية فيعلو صوت ميمون ..
- يا شيخ عامر .. يا أهل البيت ..
يطل وجه رزق والعرق يتصبب منه ..
- مات الشيخ عامر ..
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. بالوباء يا رزق ..
- لا يا شيخ رادع .. كنا داخلين الدرب فوضع يده على قلبه فجأة وسندته حتى البيت وما كادت رأسه تستريح على الفراش حتى تسارعت أنفاسه وهو ينطق الشهادة و ..
يقاطعه ميمون الذي اصفرّ وجهه من وقع المفاجأة ..
- والعمل يا شيخ رادع ..
- لازم نجهزه ويندفن .. لكن .. سمعت أن أهل بيته رحلوا عند أخوالهم ..
- أولاده فقط يا شيخ أما زوجته فبالداخل معها صابحة .. لكن نجهزه يا شيخ رادع .. كيف ولا يوجد ماء ؟
يثبُت الشيخ رادع ويستطيل صمته حتى ظن ميمون أنه غاب عن الدنيا وهمّ أن يرفع صوته لكنه تراجع لما يعرفه من طول عشرته للشيخ رادع من تفكير عميق .. يأخذ الشيخ نفسا طويلا وبدون أن يحرك وجهه الصخري يقول في حزم ..

- يتيمم يا رزق ..
يترك ميمون يد الشيخ رادع ويقف بينه وبين رزق وهو يسأل في اضطراب و قلق ...
- يصلح يا شيخ رادع ؟
- يصلح .. فالآية تقول " فلم تجدوا ماء فتيمموا "
- لكن هذا في وضوء الصلاة إنما يصلح لتجهيز ميت ! لنبحث عن الماء ونغسّل الرجل ..
- من أربعين سنة كنت ذاهبا للحج وتهنا في الصحراء يومين حتى جفت قربنا فلم يبق من قربة أحدنا إلا شربات قليلة من الماء ومات أحد المسافرين فيممه الشيخ وصلينا عليه ودفناه فحتى إذا وُجد ماء لا يكفي إلا للشرب فيلزم التيمم والدين يُسر يا جماعة ..
ابتسامة رائقة تزين وجه ميمون وهو يحدق في الشيخ رادع ويطبطب على كتفه وهو يقول ..
- الله يفتح عليك يا شيخنا ..اسمع الكلام يا رزق ونفّذ ما قاله الشيخ وفي الصباح ندفنه.
يحك رزق ذقنه بأصابعه ويلقي عليه ميمون السلام وهو يقود الشيخ رادع وعند الباب يتركه يدخل ثم يذهب ميمون لبيته فتبادره عالية ..
- العوض فيمن ؟
- الشيخ عامر ..
تمسك عالية رأسها بكفيها ويتهدج صوتها ..
- الله يكون في عونك يا زينب ..
- الله يكون في عونا نحن فأولاده رحلوا من القاهرة .. ودفنته بعد الفجر ..
يستلقي ميمون على السرير في نوم متقطع وذهبت عاليه للاطمئنان على الحسن فوجدته يفرد قرطاسا وتقبض أنامله على ريشة وأمامه قنينة المداد .. تقترب منه فتجده يرسم .. يحس بوجودها فتبتسم شفتاه وينحّي القرطاس جانبا .. يفرد أمامها ورقة كبيرة من الطومار رسم عليها صورة لعروسة وحصان يركبه فارس .. يرفع أمامها ورقة صغيرة عليها وجه لفتاة .. تضحك عالية وتميل على ابنها وتقبله وتشير بيدها سائلة فيرد بإشارات إلى أن صاحبة الوجه هي سمحة بنت المقدس يؤنس فتزم عالية شفتيها في حزن وتطبطب على كتف الحسن وتتركه إلى غرفة النوم فتجد ميمون يعلو شخيره من آن لآخر .

*

حين استيقظت عاليه لم تجد ميمون جوارها فتداركت خبر ليلتها الفائتة ونهضت لتذهب لمواساة زينب .. رمقت الحسن فوجدته ينام حاضنا عروسة الطين فوضعت أمامه رغيفا وقطعة جبن وفتحت الباب لتفاجأ بأختها ثريا تقترب باكية خلفها ابنها الأوسط عارف .. استقبلتها عالية بدهشة وباغتتها ثريا بالسؤال :

- فضيل ابني جاء عندك يا عالية ؟
- لا يا أختي .. أين الولد ؟
- من ليلة أمس ولم يعد إلى البيت ..
- يعود بالسلامة يا ثريا .. يمكن يكون مع أخيه الكبير في ..
تقاطعها ثريا بانصرافها السريع يتبعها عارف في وجوم وخوف على مصير أخيه فتغلق عالية الباب وترافق أختها لأول الدرب .. ودّعت أختها التي غادرتها بروح هلهلها الجزع فرفعت عالية صوتها ..
- طمئنيني عليه يا ثريا ..
راقبت ظهر أختها المبتعد ثم اتجهت إلى بيت الشيخ عامر ولفت نظرها خلو الدرب فسألت أول سيدة تجلس داخل المجاز ..
- أين رجال الدرب ؟
- ذهبوا للصلاة على الميت ودفنه ..
لحظت عالية بضع سيدات يحطن بزينب الباكية فجلست بينهن تواسيها وتصبرها ..
- نصيبه أحسن من غيره .. على الأقل وجد من يدفنه .. أما سمعتم عن ناس تموت في البيوت حتى فاحت رائحتها ؟
لفت كلام عالية السيدات القلائل فتجاذبن أطراف الأحاديث عن الوباء وأخبار الموتى وعن الجوع وصعوبة تدبير قوت اليوم فتصمت عالية وهي تشعر في قرارة نفسها بالأمان للزاد الذي يمدهم به خزين جارهم بل وبحظها العظيم الذي أضحى أوفر حتى من حظ أختها ثريا التي شكت في آخر زيارة لها أنها ما عادت تستطيع مقايضة الذهب بالقليل من الطعام لندرته وها هي قد تفقد أحد أولادها ويعجز الذهب الذي اكتنزه زوجها عن إيجاده وبرغم قلقها على مصير ابن أختها إلا أنها تضحك في قرارة نفسها وتسخر من القدر الذي ألقى أختها في طريق تاجر الذهب الثري بينما أصبحت هي لابن عمها تاجر الورق فعاشت عمرها كله من مساتير الناس ولكنها تملك الآن ما هو أغلى من ذهب الدنيا .. الطعام .. تبتسم عندما فاهت في سرها ثم تزم شفتيها فجأة خشية أن يكون قد سمعتها إحدى جاراتها فترمقهن بعين فارقها التذمُّر ومن حين لآخر تزكم أنفها روائح أفواههن الصائمة حتى تدلت أشعة الشمس على أرض الدرب فاستأذنت السيدات الواحدة تلو الأخرى وأخيرا نهضت عالية وبقيت صابحة مع زينب..
تتلفت مستطلعة أبواب البيوت المغلقة وما إن تقترب من البيت حتى تلمح رجلا يجلس على المصطبة بين بيتها و بيت يؤنس فحسبته أحد السائلين عن زوجها أو يريد شراء القراطيس .. وتهيأت لإخباره بأن ميمون غير موجود .. ترمي السلام على الشاب فيرفع وجهه إليها مبتسما ..

- أنا بشير يا خالتي عالية .. ألا تعرفينني ؟
ينتفض قلب عالية في دقات متسارعة وتدور بها الدنيا ونمت تقاسيم وجهها عن دهشة إنسان بوغت برؤية الجن فتغمض عينيها وتفتحهما بسرعة قبل أن تتفوه ..
- بشير بن المقدس يؤنس .. مرحبا يا ولدي ..
- كيف حالكم ؟
- بخير .. الله يرحم أمك .. كان أملها تراك قبل موتها ..
يطرق بشير رأسه ..
- عرفت من خالتي ونيسة ما حدث لأمي وأختي سمحة لكن أبي يا أم الحسن أين هو ؟
- في الكنيسة يا بشير .. اشتد عليه المرض فذهب إلى الكنيسة ..
ينتفض بشير واقفا ويهم أن يمشي فتستوقفه عالية ..
- أحضر لك الطعام يا بشير ..
- شكرا يا أم الحسن .. سأذهب لأطمئن على أبي ..
بقلق ترمق عالية ظهر بشير المبتعد و تتمتم بكلمات متكسرة تخرج من شرنقة الخوف
- كله من خيركم يا ولدي ..
تغلق باب البيت و موجات الحسرة تتقاذفها .. راحت تسير جيئة وذهابا وهي تضرب قبضتها في كفها والعرق يسح من جبينها و تحادث نفسها بصوت مسموع ..
- آه لو أعطى ميمون المفتاح لبشير لخسرت الطعام .. لكنه حقه ونحن الذين أخذنا منه دون استئذان .. ميمون ظن أن بشير لن يعود وعاد بشير وما عندي يكفي نهارنا فقط ..
حسمت أمرها فألقت نظرة على الحسن النائم في مخزن الورق وربطت رأسها بطرحة سوداء وصعدت السلم وعيناها تستطلعان الأسطح من حولها .. خطت لبيت جارتها وبسرعة نزلت السلم .. أبعدت المنضدة من أمام باب الحجرة .. بلهفة فتحت إحدى زكائب الخبز فوجدتها نصف مملوءة فطفقت تغرف من الجبن وترص على الخبز الناشف أعقبته بالسمك المملح ثم المخلل بعد أن صفته من الماء .. بحثت عن إناء تأخذ فيه العسل فلم تجد فربطت الزكيبة برباطها الرفيع وحملتها خارجة من الغرفة .. أعادت إغلاق الباب ورفعت الزكيبة على رأسها وصعدت السلاليم ..
أمام سلم بيتها تلتقط أنفاسها اللاهثة .. تنزل وموجة اطمئنان تريح نفسها القلقة .. تحمل الزكيبة داخل حجرتها وفرحة الظفر تطفر من عينيها ..
استراحت على السرير ممدة جسمها المنهك وهي تثني على صنيعها .. تشعر بالرضا لعدم تواجد ميمون في البيت عند وصول بشير وإلا كان سيسلمه المفتاح ولأنها تعرف طوية زوجها البسيطة فيقينا سيخبره بأمر الطعام قبل أن تأخذ ما يكفيهم لأيام كما فعلت الآن .. تتسع ابتسامة وجهها وطال بها التفكير القلق على المستقبل البعيد .. وعادت تحادث نفسها ..

- آه لو ينكر ميمون معرفته بأمر الحجة والمفتاح .. ربما يعود بشير من حيث أتى و يبقى لنا الطعام ..
تبرق في ذهنها فكرة عزمت على تنفيذها بلا تردد وهي إخبار ميمون بعودة بشير قبل أن يتقابلا وتمنت في قرارة نفسها أن تكلم ميمون قبل لقائه ببشير فنهضت متجهة إلى الباب وخرجت إلى بيت الشيخ عامر لكنها مالت ناحية فتحة الدرب تستطلع القادمين وعند عودتها اصطدمت عينها بصابحة الخارجة من بيت الشيخ عامر فتعجبت من وجود عالية التي لم تتركها تستفسر فسألتها عن رزق وميمون وباقي الرجال فأخبرتها صابحة أنهم عادوا من المدفن ويجلسون أمام الجامع وأن زوجها رزق في البيت وسيعود إليهم بعد قليل ..
استأذنت عالية من صابحة معللة قلقها أنها تريد ميمون في أمر هام وعادت إلى البيت فرأت الحسن خارجا من مخزن الورق وهو يفرك عينيه .. بقليل من الماء مسحت على وجهه وثبتت عينيها في عينيه وهي تلاعب أصابعها أمامه ..
- اسمع يا حسن .. اذهب لأبيك عند الجامع وأخبره أنني أريده حالا في أمر ضروري .. سواء وجدته أو لم تجده تعود بسرعة يا حسن ..
يهز الغلام رأسه إشارة الفهم ووجهه يشرق بالسعادة لأنه أخيرا سيفارق الدرب المسجون فيه منذ شهور ..
تقوده عالية خارج البيت وللحظة انقبض صدرها فشدت على يده الصغيرة عازمة على إلغاء الفكرة لكن الحسن أفلت من قبضتها وانطلق يخطو خارجا من الدرب تصحبه نظرات أمه القلقة حتى انعطف من فتحته الضيقة ..
تغلق عالية الباب وهي تفرد أصابعها على قلبها اللاغط .. تجلس و من حين لآخر تتلهف قدوم الحسن وميمون يمسك يده .. تظل منتظرة وسيوف القلق تنشب أنصالها الحادة في نفسها التي ساورها الندم لمخالفة أمر زوجها ..

***

(25)

سار الجمع القليل إلى المدافن وريان بالرغم من ضعفه يجر عربته التي تحمل جثمان الشيخ عامر خلفه ميمون والشيخ رادع ورزق وجواد المصمودي برغم تعبه إلا أنه أصرّ على مرافقتهم وهو يمتشق سيفة ..

يسحب ريان العربة المتهالكة والشيخ رادع يتأبط ذراع ميمون حتى وصلوا بداية أرض القبور فترجّل ريان فجأة وأطلق صرخة مكتومة فاستطلعت العيون الأمر فتأوه الجميع في أصوات لاغطة ..

- لم توقفت يا ريان ؟ ماذا رأيتم يا جماعة ؟

- لا شيء يا عم رادع .. امش يا ريان ..

يدفع رزق وجواد العربة فيهم ريان في سحبها ملتويا في مدق ترابي ورزق يسعل حين استنشق الغبار المتطاير وميمون قلد الشيخ الكتامي في تغطية أنفه بطرف العباءة ومن حين لآخر يلتفتون وراءهم مودعين هيكلا عظميا ملقى بجوار إحدى المصاطب والكفن ممزق بجواره .. قبل أن يتوغلوا بين القبور يعلو صوت رزق ..

- قف يا ريان .. يوجد قبر مفتوح يا شيخ رادع ..

- انزله يا رزق ..

يخلع رزق جلبابه وينزل يتبعه جواد وتتسابق الكفوف في تجهيز القبر حتى انتصبت قامة رزق ماسحا عرقة ..

- أنزلوا الأمانة ..

يترك ميمون ذراع الشيخ رادع و يسحب الجثة يعاونه ريان فيحملونها ليتلقاها رزق و ويغيب الجسد داخل القبر ولم يلبث رزق أن يخرج يتبعه جواد ويشتركون جميعا في إهالة التراب حتى ساووا الأرض وجمعوا قوالب الطوب النيئة فكومها رزق وريان علامة على القبر ..

قبل انصرافهم الوشيك يرفع الشيخ رادع ذراعه المعروقة فاردا كفه والدموع تبلل لحيته البيضاء ..

- في جنة الخلد يا عامر .. مع الأنبياء والصديقين والشهداء .. سلامي للحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة ..

لا يدري لم برق وجه الحسن أمام ميمون فخفق قلبه وود لو يطير إلى البيت ليحضنه .. يبتلع ريقه الجاف .. يهدئ ميمون من حزن الشيخ رادع الذي يكفكف دموعه في عجالة ويستديرون جميعا عائدين وهم يمسحون عرقهم النازف ويسحب ريان من أسفل العربة قربة بها القليل من الماء فتدور على شفاههم اليابسة كل منهم يبلل ريقه حتى إذا ما ابتعدوا رشقت ظهورهم نظرات العيون الجائعة من خلف أسنمة المقابر .

*

وصلوا للجامع فيقف ميمون والشيخ رادع ورزق تلتهب حلوقهم من شدة الحر .. يسحب ريان القربة ويحركها فتنساب جرعات الماء داخلها .. يقربها من فم الشيخ رادع فيبلل شفتيه وتدور عليهم وكل منهم يقنع نفسه بأنه يشرب حتى إذا ما انتهت لفم ريان رفعها لأعلى يعتصر ما فيها من نقط الماء .. بضيق يلقيها على العربة ويسحبها مبتعدا فيلتفت ميمون إلى جواد ..

- اصطحب الشيخ رادع للدرب وأبقى أنا أنتظر أخي زيدان ..

يخطو جواد فيتوقف الشيخ رادع فجأة ويمد وجهه إليهم سائلا ..

- غدا المتمم لشعبان أم بداية الشهر الكريم يا ميمون ؟

- بداية الصيام يا عم رادع وكل عام وأنتم جميعا بخير ..

يغمغم الشيخ رادع بغضب فيستأنف جواد السير يتبعهم رزق متعللا بوجع في بطنه .. يظل ميمون منتظرا وأشعة الشمس الفتية تصهد بدنه النحيل حتى ضاق بالمكوث فقرر أن يقطع الوقت بالذهاب إلى بيت أخيه في درب القصابين فتحسس اللفة الورقية داخل طيات ملابسة وسار يتلفت فيبصر الحوانيت مغلقة أو محطمة الأبواب وقد نهبت بضائعها والبيوت المتناثرة هُجرت وأبوابها مفتوحة على مصراعيها والشوارع خالية إلا من رجل يمرق من بعيد أو سيدة تسرع الخطا والروائح الكريهة تزكم أنفه بين الفينة والأخرى ..

يشعر برجليه تتثاقلان فهمّ في السير حتى وقف أمام الباب فقرعه وهو يراقب الشق الضيق من خلفه .. يستطيل الوقت حتى هاجمه السأم فقرر أن ينصرف مقنعا نفسه بأن أخاه ليس بالبيت لكنه سمع أزيز الباب الممطوط فأطل زيدان بوجهه النحيل وجحظت عيناه الذابلتان ..

- ميمون .. تفضل يا أخي ..

في سرعة يدخل ميمون ويغلق خلفه الباب .. يزدرد ريقه وهو يتبع أخاه للداخل .. يلحظ المواعين متناثرة والملابس ملقاة هنا وهناك و لا يوجد غير تليس مفرود أمام الكانون .. يجلس زيدان فيتربّع ميمون أمامه مخرجا لفة الطعام ..

- نادي على فاتك ليأكل ..

- فاتك .. الله يهديه .. فاكر اليوم الذي قلت لك أنه عاد و تركته نائما في البيت ؟ رجعت فلم أجده ..

يهز ميمون رأسه أسفا على حال أخيه .. يفرد الورقة أمامه ويقدم له رغيفا لينا حشاه بالجبن فيتناوله زيدان بأصابع مرتبكة ويشرع في قضماته المتسارعة ..

- أين كنت يا ميمون ؟

- دفنا الشيخ عامر ..

تهدأ شفتا زيدان عن تناول الطعام ويخرج صوته ضعيفا ..
- الدوام لله .. لو أعرف لصحبتكم ..
يلاحظه ميمون وهو يتناول الرغيف الثاني فيلتهمه في سرعة و فتافيت الجبن تلتصق بشفتيه .. يجرع الماء ويلف الرغيفين الباقيين في الورقة ويأسرهما بين دفتي الكانون .
- الله يرحمك يا شيخ عامر .. وجدت من يسترك .. تصوّر يا ميمون .. من يومين مات شداد القمّاش وظلت زوجته طول الليل تبكي والرجل ممدد أمامها لا تجد من يدفنه حتى جاءها أخوها وقمت معه بدفن شداد في حوش البيت ..
- عملتم طيب فالمدافن اليوم لم يعد بها أمان ..
- ولا أي شيء في البلد يا أخي .. سمعت المنادي في الصبح يعلن أن الخليفة يتحمّل تكفين الموتى ..
- فيه الخير والله .. ألم تر أحدا من أبناء ثريا ؟
- ولا حتى ثريا نفسها منذ أن باعها عمنا لتاجر الذهب نباش القبور .. المهم ما عاد لنا حياة في القاهرة يا ميمون ..
- مصرّ على الرحيل ؟
- عند أخينا منقذ منه نطمئن عليه ومنه نعيش في أمان ونلم شملنا ..
- نرحل بعد رمضان يا زيدان ..
- سنين و نحن في صيام والذي زاد الوباء الذي يقضي علينا والله يا ميمون أخاف أن أموت ولا يحس بي أحد إلا من رائحتى ..
- الله يسامحك يا فاتك .. من اليوم تأتي لتعيش معي إلى أن نرتب للرحيل ..
يهش زيدان لعرض أخيه وتفتر شفتاه عن ابتسامة الرضا وبكفه يربت على كتف ميمون الذي ينهض في همة وهو يقول ..
- هيا ..
يخرجان وقبل أن يغلق زيدان الباب جالت عيناه في أرجاء بيته الشحيح فانحدرت دمعة تعرجت بين أخاديد وجهه الممصوص .. يسحب الباب ليغلقه بإحكام .. يسيران متجاورين وزيدان يتحسس المدية الصغيرة التي يخبئها داخل ملابسه الرثة تحسبا لهجمات الجياع .. وفي نهاية درب القصابين زكمت أنف ميمون رائحة تعفن فلوى عنقه بحدة تجاه أخيه الذي دعك أنفه بكف يده ..
يستمران في سيرهما والرائحة تضج كلما اقتربا من بيت منزوٍ فوقف ميمون فجأة ليشير إلى الباب المغلق فبادره زيدان بلسان متلعثم ..
- بيت عبد الودود القصاب ..
- يمكن الرجل في حاجه للمساعدة ..

بيده يضع ميمون منديلا على أنفه وبالأخرى يقرع الباب وزيدان يدهش لجرأة أخيه فيحزم أمره ويصدم الباب بقدمه فينفتح ويتقهقران لتدافُع الجرذان من حول الجثة المنتفخة والنمل يمرح عليها ورائحة القيح تفجر رئتيهما فصرخ زيدان وهو يعيد إغلاق الباب ..

- يا لطيف يا رب .. عبد الودود أكله الدود ..

كمسمار مدقوق يمثل ميمون أمام الباب المغلق وقد ألجمت المفاجأة لسانه فلم ينبس بكلمة حتى قبض زيدان على ذراعه ليسحبه مبتعدين عن المطرح الموبوء .

***

يقرع الباب فتقبل عالية من الدخل وهي توقن أن الحسن قد عاد وهيأت نفسها لأن تعاتبه على تأخيره .. تفتح الباب فتجحظ لوجه ابن أختها عارف المبتسم وقبل أن تسأله عن سبب مجيئه يخبرها ..

- أمي تطمئنك يا خالتي عالية بأننا وجدنا أخي الفضيل ..

- ادخل يا عارف ..

- لا .. سأعود الآن ..

- كان تائها أم ..

يتبدّل وجه عارف فيعلوه شيء من الجهامة وهو يخبر خالته ..

- كان مخطوفا يا خالتي وقبل أن يبيعه المجرم الذي خطفه توصّل إليه أخي الكبير سنان وبادله بتماثيل كثيرة من الذهب .. أستأذنك يا خالتي حتى لا أتأخر على أمي .

- بلغ سلامي لها يا عارف واهتم بها وبإخوتك ..

ترقب عالية ظهر ابن أختها المنصرف .. تتلفت في أنحاء الدرب ثم دخلت والقلق ينشب أنيابه فيها على تأخر الحسن لكنها أرجعت الأمر إلى أن ميمون استبقاه حتى يعودا معا .. تجلس وهي تشعر بالغيرة من أختها التي استطاعت أن تنجي ابنها المخطوف من الهلاك في بطون الجياع بالذهب لكنها ابتسمت في قرارة نفسها من أنها تملك الطعام وعندما طفر وجه بشير العائد إلى الدرب إلى ذاكرتها عاد القلق ينهش نفسها لكنها فضلت أن تصبر حتى يعود ميمون وتبحث معه الأمر .. تلتفت بحدة نحو الباب الذي ينفتح أمامها فتنهض في لهفة ويفاجأ بها ميمون أمامه فتبادره بالخبر ..

- ميمون .. بشير بن يؤنس رجع ويريدك ؟

- عاد أخيرا .. سأسلمه حجة البيت والمفتاح ..

يظهر وجه زيدان خلف كتف أخيه فتتراجع عالية خطوتين وهي تضع الطرحة على شعرها ثم تقترب من زوجها لتخبره بما نقلته من الطعام لكنها وجمت وهي ترى زوجها يهم بإغلاق الباب ..

- أين الحسن ؟

- الحسن ؟!؟ أليس في البيت ؟

يتدلى فك عالية ويزداد جحوظ عينيها وحاولت ابتلاع ريقها فخرجت كلماتها مبعثرة ..

- بعثته إليك عندما عرفت من صابحه أن رزق عاد وتركك عند الجامع ..

بهت ميمون وحملق في وجه زوجته واقترب منها والغضب يستشيطه فتراجعت أمامه حتى التصق ظهرها بالجدار .. يصرخ في وجهها وهو يمسك رأسه بين كفيه ..

- لم أقابله ..
في توتر يربت زيدان على كتف أخيه ..
- يمكن لم يجدك عند الجامع فيعود الآن ..
ترتعش شفتا ميمون وهو يكز أسنانه ..
- متى خرج ؟
تضع عاليه كفيها أمام وجهها الباكي ويخرج صوتها مختلطا بدموع الندم ..
- من ساعة ولما تأخر حسبت أنك استبقيته ليعود معك ..
تنتفخ عروق ميمون ويحمر وجهه وهو يزعق ..
- أين الولد ؟
تنهار عالية جالسة على الأرض وهي تلطم خديها ..
- يا مصيبتي .. حسن ..
يضرب ميمون كفا بكف وزيدان يسحبه بعيدا وهو يهدئ من غضبته ...
- حسبي الله ونعم الوكيل .. حذرتك يا عالية ..
يبتر ميمون كلمته وهو يسحب الباب في حدة ويخرج من البيت يتبعه زيدان فتتبعهما عالية وهي حافية وتسبقهما لبيت رزق وتخبط عليه بكلتا يديها حتى يطل وجه صابحه
- نادي على رزق يا صابحه ..
يخرج رزق وبصوت مندفع يسأله ميمون ..
- رأيت الحسن ابني يا رزق ..
- أبدا يا ميمون .. عدت للبيت وتركتكم عند الجامع .. خير..
ينكتم صوت ميمون فيتقدم زيدان إلى رزق ..
- أم الحسن قلقت على ميمون فأرسلت الحسن إليه عند الجامع ولم يعد بعد ..
تصرخ صابحة وهي تحضن عالية ..
- يا نهار أسود .. الحسن ..
يقبل جواد وهو يقود الشيخ رادع الكتامي ..
- من يصرخ يا جواد ؟
- الحسن يا شيخ رادع .. ابني الحسن خرج من الدرب ولم يعد ..
يصمت الشيخ ثم يرفع عكازه أمامهم ويأمرهم بعصبية ..
- وماذا تنتظرون ؟ لنبحث عن الولد ..
وكأن أمر الشيخ رادع هو ما ينتظرهم فهرول ميمون خارج الدرب يتبعه زيدان و رزق .. يسير جواد والشيخ رادع يسألون كل من يقابلونه من المارة القليلين في شارع السوق والخارجين من دروب وحارات الشارع الكبير أما صابحه فقد أتت بخف لعالية

من البيت وخرجت معها حتى دكان الورق المغلق فجلست عليه وهي تضرب وركيها وتهذي بكلمات عبثية ..
تميل الشمس للمغيب لتترك السواد يلف الدنيا .. من بعيد يظهر ميمون وزيدان ورزق قادمين فتتحامل عالية وتنهضها صابحة وبان من انكسارات وجه ميمون أنهم لم يعثروا عليه فانهارت على الأرض وهي تهيل التراب على شعرها الذي تعرّى .. غطتهم سحابة من وجوم حتى أرخى الليل سدوله فدارت عينا رزق تستطلع المطرح فلم يجد سواهم في السوق فوسوس في أذن زيدان الذي هزّ رأسه ووقف جوار أخيه متمتما ..
بيد مرتعشة يسحب ميمون زوجته من ذراعها تساعده صابحه حتى نهضت وساروا منكسي الرءوس تختلط حوقلة زيدان بحسبنة أخيه وإذا أضيف بكاء عالية الممطوط ونهنهة صابحة المواسية فإن ذلك كله عزف لحونا حزينة ظلت ترافقهم إلى أن دلفوا درب الريحان فاستقبلهم جواد والشيخ رادع بلهفة وخرجت سكينة من البيت ودخلت وراء عالية وصابحة ..
- لم نجده يا شيخ رادع ..
قالها زيدان وهو يغالب دموعه فلم يتمالك ميمون نفسه فأجهش بالبكاء حتى اختفى صوته من النحيب المتواصل وجواد وزيدان يحاولان تهدئة روحه المصدومة فابتلع ميمون ريقه وصمت فشاركه الجميع صمته المحزون حتى سمع صوتا يقول له ..
- عم ميمون .. قلبي معك ..
يرفع رأسه ومن بين رموشه المبللة بالدموع يهتز وجه بشير بن يؤنس الذي ينحني مطبطبا على كتفه ..
- كله مكتوب يا ولدي وحمدا لله على سلامتك .. المقدس يؤنس ترك..
يقاطعه بشير وهو يربت على كتفه ..
- فيما بعد يا عم ميمون فيما بعد ..
يتسنّد ميمون على ذراعي زيدان وجواد و ينهض متثاقلا ..
- تعال معي ..
- فيما بعد يا عم ميمون ..
- لا والله لأعطيك الحجة والمفتاح الآن ..
يخطو ميمون حتى يدخل بيته ومن حجرة عالية يتناهى لمسامعه صوتها الباكي وصابحة وسكينة تحاولان تهدئتها .. يدخل مخزن الورق فتسح عيناه للعرائس و الأحصنة التي تركها الحسن مرصوصة على ورق الطومار .. بأنامله يتلمسها والحسرة تنخر روحه المثكولة .. يهز رأسه ومن بين أكداس الورق يسحب كيسا وبكم جلبابه يمسح دموعه و يهم بالخروج فتتوقف عيناه أمام جلباب الحسن المعلق على

المشجب فدفن وجهه يتنشّق رائحة ولده وانخرط في نحيب دخل على أثره بشير وزيدان الذي جاء على صوت أخيه فيطبطب على كتفه ..

- وحّد الله يا ميمون ..

- شد حيلك يا عم ميمون وإن شاء الله يرجع ولدك لحضنك ..

يتمالك ميمون نفسه ويستدير خارجا من الغرفة يتبعه زيدان وبشير إلى أن يقفوا قبالة بيت يؤنس ..

- أنت عرفت أن المقدس يؤنس ..

يقاطعه بشير وهو يطرق رأسه ..

- استراح جنب أمي ..

يسحب ميمون المفتاح والورقة المطبقة ويقدمهما إلى بشير الذي يتناولهما في صمت وهو يحضن ميمون ثم يبعده في رفق ..

- سأستريح ثم أقابلك في الصباح يا عم ميمون ..

يعود ميمون لمخزن الورق .. يجلس ضاما ركبتيه بذراعيه يجاوره زيدان ويظلان صامتين إلى أن أحسّ ميمون بخروج صابحة وسكينة من عند عالية فنهض متثاقلا ولحظ رأس أخيه تميل والنوم يهاجمه ففرد ملاءة وتمدد زيدان عليها متوسدا ذراعه .. يتركه ميمون ويدخل على عالية فيقعي أمام السرير ومن حين لآخر يلحظ خدها المرتعش وهي تئن وتنادي حتى انفطرت حنجرتها فيتناهى لمسامعه حمحمة الحزن الفائرة من قلبها الموجوع فبدأ الصداع يصطخب في رأسه فدفن وجهه في عبه ونام نوما متقطعا بين اليأس والحسرة .

***

(27)

تتسع عيناه مخترقة غيوم الضباب المحيطة به وتنفذ أشعة الشمس مبددة السحب التي تنقشع ليلتمع ضوء فضي رائق ويراه مقبلا عليه بملابسه الخضراء الهادئة فخفق قلب ميمون فرحا و انفرجت ذراعاه وهو يحضن الحسن ثم أبعده في رفق وعيناه تعاتبانه ..

- أين كنت يا حسن ؟
- أبحث عنك يا أبي ..
- لكنك تأخرت .. على كل حال .. حمدا لله على عودتك ..
- أنا لم أعد بعد يا أبي ..

يرجع خطوة وخطوتين وميمون ينقبض قلبه وهو يعجز عن اللحاق بابنه وخرج صوته مخنوقا ..

- حسن .. عد يا حسن .. عد من أجلي ومن أجل أمك ..

تتباعد رموش ميمون ويشعر بجفاف حلقه .. يتلفت فيدرك أنه لم يتزحزح من قعدته .. ترتعش شفتاه ويخرج صوته مخنوقا ..

- عد يا ولدي ..

يفرد ساقه المتيبسة ويشعر بألم ظهره .. يلوي عنقه لصوت عالية الزاعق فيتحامل واقفا ويخطو للخارج فيراها تريد الخروج من الدرب للبحث عن الحسن وزيدان وصابحة يحاولان منعها فقبض ميمون على ذراعها وسحبها في قوة حتى أدخلها مخزن الورق فارتمت على الأرض وهي تقبل العروسة والحصان الطيني وانخرطت في بكاء متواصل إلى أن خرس لسانها وانهارت مغشيا عليها فأحضرت صابحة كوب الماء لإفاقتها ..

يتركهما ميمون والغصّة تكاد تخنق صدره ويخرج خلفه زيدان فيقف رزق المنتظر أمام الباب .. يجلسون على المصطبة وميمون يمسح لحيته الخفيفة التي بللتها الدموع حتى فوجئ بالشيخ رادع الكتامي يقف قبالته هو و جواد ..

- ما في أخبار يا ميمون ؟

يلوذ ميمون بصمت كتيم فيقاسمه المواسون حزنه فأحجموا جميعا عن الكلام ودار في ذهن كل منهم ما يكون قد حدث للغلام لما يصلهم من فواجع يقترفها وحوش الجياع قساة القلوب فيبتلع زيدان ريقه ورحى اليأس تطحن نفسه ولمع وجه فاتك فحنق على غيبته وتمنّى أن يحضر ليشاركهم رزء المصيبة التي حطت على بيت عمه .. ظلوا صامتين إلى أن أقبل عليهم جندي ويمثّل أمام جواد ..

- القائد مرزاق يخبرك سيدي أن الجند عثروا على غلام ولكن ..

ينتفض ميمون واقفا ويلتف زيدان حول الجندي وهو يصيح سائلا ..

- أين ؟
- تعالوا معي ..
يسيرون خلف الجندي إلى أن يصلوا لقرب فتحة الدرب فيترك جواد مهمة قيادة الشيخ رادع لرزق الخارج لتوه من البيت ويتقدم الجندي الذي يهمس لجواد ..
- سيدي القائد إنكم لن تجدوا منه سوى ..
يقاطعه جواد بحركة من يده متجاهلا كلامه وظلوا سائرين في الشوارع حتى انعطفوا إلى أرض فضاء أشجارها اليابسة منتصبة كأوتاد مدقوقة في الأرض وميمون القلق يكاد يقتله مصبرا نفسه بأنه لن تهدأ روحه إلا إذا دفن ابنه بيديه بعد أن فقد الأمل في عودته وزيدان يقبض على سكينته متوثبا لأن يذبح الجناة أيا كانوا ..
يلوح لهم من بعيد جنديان يقفان عند بئر فيجدّون في المشي ورزق يلهث وراء عكاز الشيخ رادع حتى وقفوا جميعا أمام ملاءة كتانية مرقعة والدماء تخضبها ..
تجاسرت يد جواد فسحب الملاءة وتراجع رزق وزيدان وانصعق ميمون لمرأى الغلام الذي لم يتبق منه إلا عظام تعرت من اللحم ووجه شاحب متيبس و بالرغم من هول المشهد إلا أن ميمون مال على وجه الصبي متفرسا شعره البني ووجهه المستدير ثم تراجع زائغ العينين ولسانه معقود ويداخل الشيخ رادع شيء من الشك في أن الولد ليس الحسن بن ميمون .. يهز جواد رأسه لأحد الجنود الواقفين فيعيد الجندي سحب الملاءة لتغطي الغلام المنهوش وكأن ذئاب الدنيا تكالبت علي جسمه الضئيل ولم يترك جواد فرصة للشيخ رادع أن يسأل ..
- ليس هو يا شيخ رادع ..
انفرد جواد بالقائد مرزاق وتنصّت الشيخ رادع عليهما بسمعه الذي لم ينضب بعد ..
- من يا مرزاق ؟
- لا أعرف سيدي القائد فقد شككت في أربعة يسيرون وأحدهم يحمل الملاءة وعندما تبعتهم أحسوا بي فتركوا جثة الغلام عند حافة البئر وهربوا ..
- تقصد ..
- نعم سيدي البئر بها الكثير من الجثث ..
- ادفنهم يا مرزاق والحق بي عند كبير الحرس ..
بدون أن ينبس أحدهم بكلمة استداروا جميعا عائدين والشيخ رادع يفكر فيما سمع وهو يغمغم ..
- لو علمتم الغيب لاخترتم الواقع فلو أن هذا الولد ولدك يا ميمون لعشت طول عمرك روحك مذبوحة ..
يشعر ميمون أن ساقيه لم تعودا تحتملانه لكنه تحامل على نفسه وسار جوار زيدان الذي سمع الكثير والكثير من حكايا الجرائم لكنه أول مرة يرى فيها غلاما بهذه الهيئة

البشعة من الافتراس ومرة أخرى طفرت صورة فاتك في ذهنه فحادث نفسه خوفا من أن يسمعه أحد ..

- يا ترى يا فاتك يا ولدي أنت واحد من الوحوش أم في بطونهم ..

يستفيق من سرحاته على رزق الذي تنحّى جانبا و قاء ما في جوفه من سوائل فوقفوا جميعا حتى ينضم إليهم خائفين من أن يبتعد أحد حتى إذا ما انتهى لف ذراعه على بطنه وسار معهم واستطال طريق العودة وميمون تعتوره مناظر الولد الذي رآه فتخيل عظامه على وجه الحسن فهز رأسه طاردا تلك الصورة من خيالاته ولعن الزمن الذي يؤكل فيه الأطفال وتلقى بقاياهم في العراء لا تجد من يستر رفاتهم ..

يصلون لأول الشارع فيستأذنهم جواد وتابعوا السير حتى وصلوا للدرب فدخل رزق بيته وقاد زيدان الشيخ الكتامي لبيته وبقي ميمون وزيدان أمام البيت يصلهم بين الفينة والأخرى نحيب عالية الذي لم يتوقف منذ الليل ..

- شد حيلك يا أخي وربنا يعوضك عنه بالخير ..

- قدر ومكتوب يا زيدان .. والله لو مات في البيت لغسلته وكفنته ودفنته بيدي لكن يضيع في غفلة ولا أعرف مصيره وقد يكون حدث له ..

يقاطعه زيدان ..

- وقد يرجع لنا بالسلامة ..

ينفتح باب بيت المقدس يؤنس ويخرج بشير حاملا صرة صغيرة فيقف ميمون وزيدان أمامه وفي نفس الكيس يقدم بشير المفتاح وحجة البيت لميمون ..

- إلى أين يا بشير ؟

- أمي وأبي وأختي ماتوا ولم يبق لي أحد هنا .

- وبيتك ودكان النجارة ومخزن الخشب ؟

- أخذت منهم ما أريد وعائد إلى الإسكندرية فإني أعمل في صناعة المراكب والسفن ..

- والطريق يا ولدي ..

- اتفقت مع جماعة من التجار سترحل اليوم إلى الإسكندرية .. قلبي معك يا عم ميمون وتطمئن على الحسن ..

يتحاضنان في دفء وكأن كل منهما يستقي من الآخر زاد الطمأنينة حتى تباعدا فهمس بشير في وجه ميمون ..

- عم ميمون .. حجرة الخزين مملوءة بالطعام .. أرجوك .. خذ منه وإلا سيتعفن وتأكله الفئران ..

يطيل ميمون النظر لوجه بشير ولم يلبث أن طبع على جبينه قبلة أودع فيها كل معاني الحب والاعتذار وطفرت الدموع من عينيه فضمه بشير مرة أخرى وخطا للخلف وهو

يقبض على صرته الصغيرة .. يرفع يده مودعا وآخر ما سمعه ميمون الغارق في حزنه

- سلامي لخالتي عالية وربنا يطمئن قلبها على ابنها الحسن ..

***

(28)

أيام الصيام تمر بطيئة وميمون لا يكاد يقتات إلا كسر الخبز سواء في السحور أو الإفطار يشاركه زيدان حزنه المقيت أما الشيخ رادع فلم يأل جهدا في التخفيف من انكسار قلب ميمون وكثيرا ما شاركه الإفطار وعالية تذبل يوما بعد يوم و لا يدخل جوفها إلا القليل من الماء وما يسد رمقها سوى لقيمات تغصبها سكينة أو صابحة على ابتلاعها وتظل طيلة الوقت تجتر مرارة الندم حتى احتفرت الدموع مجراها على وجنتيها الشاحبتين شحوب الموتى و لا يفارق حضنها عرائس الطين التي كان يلعب بها الحسن ولا جلابيبه التي تتنشق منها رائحته .. قتمت الحياة أمامها وانتابها حنق على كل شئ على أختها وزوجها .. على الخليفة والنهر الذي لم يعد يفيض .. على الطعام الذي من أجله فقدت ابنها وميمون يؤكد لها يوما بعد يوم أنه سامحها لكن عالية أبت إلا أن تعاقب نفسها لتفريطها في الحسن فاحتقرت الحياة واستطعمت مفارقتها فلا يغفو لها جفن إلا وتمنّت ألا تصحو ..

يستهل ميمون صباحا صيفيا معتدلا وهو يستقبل أول أيام عيد الفطر فينهض ليدخل على عالية وهو يمسك في يده آخر كوب ماء في البيت .. يقترب منها .. يسقيها وهو يبعد وجهه جراء رائحة عرقها التي لا تطاق فامتقع وجهه وهو يميلها حتى انتهت من شربتها القليلة و راحت في النوم ..

يخرج مارا بالكنيف فزكمت أنفه رائحته التي قلبت بطنه وجعلته يشعر بالغثيان فأخفى أنفه وغمائم الضيق تطبق على صدره فقابله أخوه زيدان الذي لا يفارقه إلا للعودة إلى البيت والبحث عن فاتك ثم يعود ليقيم مع ميمون ..

يجلس أمام البيت وهو يطرق رأسه ويرمق الزير الفارغ في ضيق حتى فوجئ بالشيخ رادع الكتامي وهو مقدم عليه يتبعه زوج ابنته جواد يحمل على كتفه جرة يركنها أمام ميمون فيبحلق فيها ويفتحها ويرفع رأسه في حدة و صوته يتلجلج ..

- ماء !

يلتقط القعب الفخاري من على الزير ويغترف الماء الرائق ويشرب مبللا جلبابه ثم يناوله لزيدان الذي يشرب بأنفاس متسارعة ويستأذن جواد في الانصراف لكن يد ميمون تستوقفه ..

- ما حال البلد خارج الدرب ؟

- في أسوأ حال يا عم ميمون .. الوباء يحصد كل يوم العشرات والعشرات و لا مغيث .. والناس يتساقطون في الشوارع ولا أحد يدفنهم حتى أمر الخليفة الجند بحفر مدافن جماعية ..

- خذ حذرك يا جواد ..

قالها الشيخ رادع الكتامي وهو يرفع يده لزوج ابنته فتراقبه عينا ميمون حتى يغيب فيلتفت إلى الشيخ رادع مستفهما ..
- ما قصة الماء يا شيخ رادع فمن يوم جنازة الشيخ عامر واختفى ريان ..
- في الأيام الأخيرة .. أتى جواد بحفارين وجنود وحفروا في الحظيرة المجاورة للبيت.
يشير ميمون إلى الباب المغلق المجاور لباب بيت الشيخ رادع ..
- هنا .. في هذا الحوش الخالي .. لقد كنت تستخدمه كـ ..
- كحظيرة لفرسي قبل أن أعمى ..
- أنا لا أقصد يا شيخ رادع ..
- هذه حقيقة يا ميمون .. فقد بعت الحصانين اللذين كنت أمتلكهما بعد أن ضعف بصري و لكن .. كل عام وأنتم بخير ..
تنحدر دمعة على خده فيطرق رأسه ويشعر به الشيخ رادع فيميل رأس ميمون إليه ويطبطب على ظهره المحني وهو يواسيه ثم يبعده برفق فيتمتم ميمون ..
- آه عليك يا ابني .. لو معنا لسعدنا بالعيد ..
يطبع الشيخ رادع قبلة حانية على جبين ميمون وهو يؤكد له ..
- الحسن في الجنة يا ميمون يحيا مع شهدائها الأبرار ..
ران الصمت على ثلاثتهم حتى مرّ الوقت بطيئا إلى أن قطعه الشيخ رادع وهو ينهض من قعدته ..
- هيا إلى البئر ..
يخطو الشيخ رادع يتقدمه العكاز وفتح باب الحوش ودخل ميمون يتبعه زيدان ليقفا أمام دائرة من الطوب تعلو عن الأرض فمال زيدان على فوهتها وهو ينتشي برائحة الماء البعيدة .. يتحسس الشيخ رادع الحبل الليفي الغليظ المدلى نحو العمق فتبادر يد ميمون بالقبض عليه وسحبه .. يساعده الشيخ رادع حتى يظهر الدلو المملوء نصفه بالماء ..
بالرغم من علائم الحزن المحتفرة في وجه ميمون إلا أن البشاشة طفرت بين قسمات وجهه وهو يلامس الماء ..
- بئر .. ماء .. في دربنا بئر ..
تنتصب قامة الشيخ رادع وهو يقول في فخر ..
- حفرناها دون أن يُسمع لنا صوت ..
يتعجب ميمون من تصرف الشيخ رادع الجرئ وزاد اندهاشه لعدم إحساسه طوال الأيام الماضية لوجود غرباء في الدرب ..
يمد الشيخ رادع يده مطبطبا على كتف ميمون وكأنه قرأ ما في نفس جاره المكلوم فمطّ شفتيه وهو يضغط على كتفه ..

- لا تتعجب يا ولدي فقد كنت ذاهبا عن الدنيا .. الله يصبرك يا ميمون
- نحمده يا عم رادع ..
- المهم يا ميمون أنت وزيدان .. لا تخبرا أحدا بأمر البئر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا وتنزاح الغمة التي استطالت وكأنها لا تنتهي ..
يرفع زيدان الدلو فيشرب ويغسل وجهه وتهب على الحوش الصغير ريح خفيفة فتنتعش صدورهم ويخرجون فيغلق الشيخ رادع باب الحوش جيدا ويدخل بيته أما زيدان فيستأذن من أخيه للعودة إلى البيت ووعده بالرجوع بسرعة وينصحه ميمون بالحذر والابتعاد عن المصابين ..
يبتعد زيدان فيحمل ميمون القدر بين يديه ويشرع في سكب الماء في الزير لكنه يعدل عن الفكرة ويخطو داخل غرفة عالية وما يكاد يركن القدر إلا ويتناهى لمسامعه صوت خافت .. يلتفت فيراها منكفئة على جلباب الحسن فيحيط ميمون كتفها بذراعه ويميلها نحوه فيهلع لأنفها التي ترعف الدماء فيمسح وجهها بكم جلبابه وتدور عيناه في محجريهما فثبتت عالية عينيها في عيني زوجها و خرجت كلماتها متكسرة ..
- سامحني يا ميمون .. أنا ضيعت ابننا الحسن ..
يضمها ميمون فيلفح رقبته نفسها الأخير وانفلتت ذراعها فيريحها وهو يظن أنها نامت إلا أنه شحب لبؤبؤ عينها الساكن فهز كتفها وهو يصرخ ..
- عالية .. عالية ..
يرتمي على صدرها وهو يمسح وجهها وشعرها ودموعه تذرف في غزارة ويظل ساكنا جوارها لا يدري ما فات من وقت وهو على حالته من الذهاب إلى أن أتاه صوت زيدان مناديا من الخارج فيرفع رأسه ويزدرد ريقه وأراح رأس عالية على الوسادة وسحب الملاءة الخفيفة ليغطي جسمها .. تراجع إلى أن وقف أمامها وقلبه يكاد ينفطر حزنا .. يستدير مغلقا الباب فوجد أخاه أمام مخزن الورق ايقترب منه جاحظا عينيه وبصوت مخنوق خرجت الكلمات من شفتي ميمون المزمومتين ..
- عالية ماتت ..
ينهار بجوار الزير فيحضنه زيدان ويطبطب على كتفه مواسيا ..
- أمر الله يا ميمون وإنا لله وإنا إليه راجعون .. الله يرحمك يا بنت عمي ..
ينهضه زيدان ويستسلم ميمون ليده الساحبة له خارج البيت ويجلسه على المصطبة ويسرع فيقرع باب بيت الشيخ رادع فلم يلبث أن يفتح الشيخ ويطل بوجهه فينعي له زيدان خبر زوجة أخيه .. ينتفض الشيخ ويتجهم وجهه وهو يخرج من البيت وذراعاه مفرودتان حتى يلامس ميمون فيحضنه ..
- نصيبك يا ميمون .. نصيبك يا ابن الوراق ..

موجة من بكاء تجتاح ميمون فيطبطب عليه الشيخ رادع إلى أن تهدأ نفسه فيبعده برفق وهو يوجه الأمر لزيدان ..
- أحضر رزق و صابحة يا زيدان ..
في شبه هرولة يسرع زيدان ومن بين رموشه المبللة بالدموع يراهم ميمون مقبلين عليه فيرمي رزق سلاما مقتضبا وهو يواسي جاره فيقف الشيخ رادع موجها كلامه لصابحة ..
- نادي سكينة ..
بينما تخطو صابحة ناحية بيت الشيخ رادع إذا بميمون يستعيد رباطة جأشه فيميل رأسه و يهمس في أذن رزق ..
- جهّز التراب الطاهر لتيممها..
يرفع الشيخ رادع أصابعه المفرودة في وجوههم ..
- تيممها ؟!؟ لا يا ولدي فالماء موجود وإذا وُجد الماء بطل التيمم .. وحق فاطمة فلتغسّل أم الحسن بالماء وتكفن بالخسرواني وتدفن معزّزة مكرّمة ..
يصمت الشيخ رادع في اللحظة التي تصل فيها سكينة والدمعة تبلل خدها خلفها صابحة وقبل أن تدخلا البيت يستوقفهما الشيخ رادع ويُسر إليهما بكلمات وسكينة تهز رأسها ثم تغيب هي وصابحة داخل بيت ميمون ..
ران الصمت على الجميع يقطعه قدوم جواد ملقيا السلام على وجوههم الواجمة فيخبره رزق بخبر أم الحسن فيشد جواد على يد ميمون مواسيا حتى يسمع صوت الشيخ رادع
- غيّر ملابسك يا جواد فلدينا عمل كبير ..
بين البابين المفتوحين تتسابق أذرع زيدان ورزق وجواد في حمل مواعين الماء من بئر الحوش إلى بيت ميمون فتحمل صابحة آخر ماعون وتدخل فتجد سكينة تقف واجمة .. تشير إليها صابحة لتعاونها في خلع ملابس عالية والفتاة التي لم تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها قلبها يدق للتجربة التي تخوضها لأول مرة في حياتها فتطيع ما تأمر به صابحة التي غسّلت عشرات السيدات .. تبدأ صابحة بسحب قميص عالية وتساعدها سكينة في تخليص الثوب فيعتريها شيءٌ من الخجل للثديين الضامرين ..
تدور عينا صابحة فلم تجد إلا القميص لتمزقه وتفرد خرقة صغيرة وتبتلع سكينة ريقها ويكاد قلبها يسقط بين ضلوعها واحمرّ وجهها وهي ترى يد صابحة تفك تكة السروال الرفيعة وتدخل خرقة القماش لتستر موضع العفّة ولم تلبث أن تسحب السروال لتظهر الساقين اليابستين ..
تقف صابحة تلتقط أنفاسها وتقرّب ماعون الماء وبيد عركتها الدربة تشرع في تأدية وضوء عالية ثم تهيل الماء على جنبها الأيمن فالأيسر ثم تمر بالماء على كل جسمها وبقطعة قماش طولية تنشف الجسد حتى تنتهي بمسح الشعر جيدا ..

تأخذ نفسا عميقا قبل أن تعطيها سكينة قطعة من الخسرواني الطويل لتلف الجسد به معلنة انتهاء الكفن فتجلسان قبالتها وترفع صابحة يديها لتتمتم بالفاتحة فتقلدها سكينة وتنهضان لإخبار رجال الدرب بأن الأمانة جاهزة للدفن فيطل وجه صابحة من فتحة الباب الموارب وتهز رأسها لرزق فيهمس في أذن ميمون الذي يثبت مكانه وتحتار نظراته وهو يستطلع الوجوه من حوله ثم يعلو صوته ..

- اذهب يا زيدان أنت ورزق لتحضرا نقالة من الجامع ..

- لا يا ميمون .. لن ندفن أم الحسن في مدافن المقطم فينهشها جياع القبور ..

جاءت الكلمات التي نطق بها زيدان لتكشف حقيقة يحاولون تجاهلها فتتكسر نظرات ميمون ويطرق وجهه فيبادرهم جواد ..

- بل ندفنها وسأكلف اثنين من الجند بحراسة القبر لعشرة أيام كاملة أو تزيد ..

يدور رزق حولهم وهو يقول ..

- ندفنها في حوش بيت الشيخ عامر فإنه فارغ ولا ..

يقاطعه زيدان ..

- بل ستدفن زوجة أخي في حوش بيتي أنا فلن أعود إليه ..

- ستدفن أم الحسن هنا...

تتلجم ألسنتهم المهاترة بعد أن علا صوت الشيخ رادع على أصواتهم بجملته الأخيرة وتتجه أنظارهم إلى حيث يشير بيده تجاه حوش البئر ولم يترك لهم فرصة للجدل فينهض يسبقه عكازه نحو الحوش يتبعه الجميع حتى وقفوا وسطه .. يميل ميمون ويهمس في أذن الشيخ رادع ..

- في حوش الخيل يا شيخ رادع ولنا قبورنا في المدافن ؟

- وهل بقيت قبور لم تنبش و نُهشت جيفها ؟ هنا أكرم لك ولها ..

يدور الشيخ رادع حتى استقر نحو جهة اليمين وأشار بيده إلى ركن قصي ..

- هيا يا جماعة الخير .. احفروا هنا .. عندك فأس ومجرفة يا جواد وقفتين .. احضرهم ولتبدأوا الحفر .. هيا .. إكرام الميت دفنه ..

بجوار الجدار يقف الشيخ رادع ويسمع صوت دق الأرض وتتسابق أيدي زيدان ورزق وجواد في إخراج التراب من الشق الطولي ولم يلبث ميمون أن يشاركهم في الحفر حتى انتهوا فنهض الشيخ رادع وجثا على ركبتيه يتحسس الفتحة ونهض مشيرا بيده إلى نقطة في الطرف ..

- وسّع هنا يا زيدان أنت وجواد ..

من جديد يضرب الفأس الأرض وتخرج القفة بالتراب حتى يتم توسيع النقطة التي أشار إليها الشيخ رادع ويقفون صامتين ..

- ما لكم يا جماعة .. ؟ يا رزق .. قل لصابحة تأتي بالأمانة ..

أمـام فتحـة البيت يقفون متراصـين إلـى أن تقبـل صـابحة فـي بطء وهـي تحمـل الجسد الملفوف من الأمـام وسكينة تحمل الرجلين حتـى تقتربـا مـن البـاب فيتلقفهـا ميمـون بـين يديـه ويخطـو نحـو بـاب الحـوش خلفـه رزق وجـواد و زيـدان أمـا الشـيخ رادع فقد بقـي ينتظرهم وهو يتلو آى القرآن حتى دخلوا عليه ففرد جواد تليسا قديما أراح ميمون جسد زوجتـه عليـه وتقـدمهم الشـيخ رادع ليصـلي صـلاة الجنـازة حتـى إذا مـا انتهـى رُفعت الكفوف بالدعاء ونـهض ميمون وحمل الجسد إلى القبر وتبارت الأيدي في إراحتـه علـى جانبه الأيمن وأحضر جواد وزيدان بابا قديما وثبتاه في أسفل فتحة الشق وأهال الجميع عليه التراب حتى تغطّى تماما ..

وقفوا لاهثين فقدم لهم الشيخ رادع الدلو نصف المملوء بالماء فدار عليهم يجرع كلٌ منهم نصيبه ..

- عندك يا جواد جوار البئر ما تبقّى من طوب .. ابنوا المصطبة ..

من جديد تهم عزائمهم التي لم تفتر بعد في حمل قوالب الطوب وبالمجرفة جمع زيدان تلا ترابيا صغيرا دلق في وسطه الماء وجهز الطين وحمله إلى رزق الذي بدأ يرص الطوب حتـى ابتنـى المدماك* الأول وجـواد يأتيـه بـالطوب وزيـدان بـالطين حتـى علت المصطبة فملط رزق قوالبها بالطين المتبقي وشطف يديه بالماء تبعه زيدان وجواد ولـم يلبث أن أمسك الشيخ رادع بذراع ميمون الساكت طوال الوقت يسحبه خارج الحوش يتبعه رزق وزيدان وجواد الذي يغلق الباب بإحكام ..

***

* المدماك : صف الطوب الذي يتم بناؤه .

أربعة أيام مرت على دفن عالية وكل يوم يخرج ميمون من البيت فيجلس على المصطبة ولا يفعل شيئا سوى التحديق في باب الحوش المغلق الذي يستر قبر زوجته وكثيرا من الوقت يظن أنها قد تخرج له من الباب عائدة معه إلى البيت ولكن لم يلبث أن يعود إلى رشده واستسلامه للقدر الذي رتب له أن يعيش وحيدا في حياة البؤس التي تعيشها البلد ولم يفارقة وجه الحسن وكثيرا ما ينام و دُمى العروسة والحصان في حضنه فتندّي طينها بدموعه الذارفة وهو يترحم على ابنه الضائع وفي نفسه أمل أن يعود إليه في يوم من الأيام ..
تنتقل نظراته إلى بيت الشيخ رادع الذي يُكن له كل احترام وتقدير لآرائه الحازمة وتصرفه الحكيم عندما أصرّ على دفن عالية في حوش فرسه ولم يتركهم يخاطرون بالذهاب للقبور التي لم يسلم الأموات من نهش الجياع لأجسادهم فما بالك لو استفردوا بواحد من الأحياء هناك فلن تعتقه أنيابهم المسعورة وشعر في قرارة نفسه بالارتياح فدفنها هنا يضمن له زيارتها في أي وقت والاستئناس بصحبتها وذكريات حياتهما التي يجترها كل يوم وكأن الذي راح هو جسدها فقط أما روحها فتظل مرفرفة لتؤنسة بين جنبات درب الريحان ..
في صباح اليوم الرابع دس يده في كيس الطعام فغاصت إلى آخره لتكبش أصابعه الهواء .. يطلب من زيدان أن يصحبه لبيت المقدس يؤنس ودخلا معا حجرة الخزين وأتيا بالزاد وقسّمه ميمون فأعطى رزق صرة بها الخبز والجبن وعندما أراد أن يعطي زينب أرملة الشيخ عامر وجد أنها رحلت إلى أهلها فأعطى نصيبهم لرزق أما الشيخ الكتامي فقد كان يشاركه دائما في غذائه وبلا اتفاق اقتصد الجميع في الطعام وانقطعوا عن الخروج من الدرب إلا جواد الذي يذهب إلى عمله في حرس الخليفة ثم يمكث أياما مع الشيخ رادع وسكينة حتى يخرج مرة ثانية ..
في تلك الساعة بعد الغروب والدرب تتمطّى ظلال بيوته الواطئة كأشباح تتهامس بأسرار الليل يجلس زيدان جوار أخيه ميمون وهو يميل رأسه إلى الوراء ويتحدّث دون أن يتحرك ..
- أنا مللت يا ميمون من الحياة في القاهرة .. يجب أن نرحل ..
يطرق ميمون رأسه وهو يتحدث بأسى . .
- وعالية يا زيدان .. حتى أختها ثريا لم تعرف بموتها ..
- الله يرحمها ويرحمنا من خنقتنا هنا في الدرب وأخونا منقذ أحق بالسؤال عنه .. سنين ولا نعرف عنه شيئا .. والحال كل يوم يسوء في البلد حتى الخليفة لم يعد قادرا على تكفين الموتى ..

- سفرنا فيه مخاطرة ..
- وبه أمل في الحياة فإني أشم رائحة الميتين وأنا هنا في الدرب ولولا بئر الشيخ رادع لمتنا من العطش وأعدك ألا نسافر بمفردنا و للمرة الأخيرة سأبحث عن فاتك ونرحل معا ..
- تبحث عن فاتك ؟ أين ؟ وربما تصاب بمكروه مما نسمع ؟
- ربك هو الستار وعلى العموم أنا قابلت اليوم أول الدرب شابا يعرفه وأخبرني عن مكان تردده ..
- لكن يا أخي ..
- تخاف عليّ من الجياع ؟
- ومن الوباء الذي حصد بمنجله آلاف الأرواح حتى خلت شوارع بأكملها والطاعون لم يصل لدربنا الذي ستره ربنا بفتحته الضيقة وكأن الوباء عمي عنا ..
يدخل زيدان مخزن الورق ويترك ميمون حائرا فقد ظن أن فكرة الرحيل إلى أطفيح ماتت بموت عالية واختفاء الحسن وهما اللذان كان سيرحل ليضمن لهما الأمان والحياة ولكن بعد رحيلهما زهد في الحياة نفسها فهز رأسه في يأس وعزم أن يعارض أخاه بل ويقنعه بالمكوث معه في كنف الدرب وبئر الشيخ رادع ولكن زيدان خرج وقد بان مقبض الساطور من نطاقه القماشي فوقف ميمون قبالته وبدون أن ينطق رفع زيدان يده ..
- أنا عزمت يا ميمون ولن أتراجع ..
يقبض ميمون على معصم أخيه وهو يهزه ..
- اصبر الليلة وابحث عنه في الصباح ..
- بل الآن فالبيت الذي سأذهب إليه من الأفضل أن أزوره بالليل ..
- بيت ؟ بيت من ؟
تنفلت يد زيدان من أصابع أخيه ويخطو مبتعدا وقلب ميمون يرتجف خوفا عليه .

*

يخرج زيدان من فتحة الدرب حاذرا وأصابعه تقبض على مقبض الساطور الخشبي .. يقترب منه شبح قصير فاقشعرّ بدنه لكنه يكتشف أنها امرأة ويدهش لخروجها في مثل هذه الساعة من بداية ليلة نصف قمرية .. زاغت عيناه في أرجاء الشارع وكأن مصيبة حطت على البلد فالحوانيت جميعها مسلوبة وحركات مريبة تحدث خلف أبواب البيوت المغلقة وروائح تخثّر الجثث تعبق الشوارع والأجساد الميتة تفسّخت أشلاؤها بجوار شجرة في الميدان الكبير وعجب من إصرار ميمون على البقاء هنا والاكتفاء بدرب الريحان الذي ليس بمبعدة عن الموت المحقق ..

دار في ذهنه مكان العطفة التي ذكرها غالب صاحب فاتك الذي قابله مصادفة في الصباح حتى وجم فجأة لنسيانها ولكنه لم يتوقف عن المسير فواصل مارا بدكان جزارته فابتسم لضلفتيه المفتوحتين وأشار إلى وشرة تقطيع اللحم مودعا وانعطف في شارع جانبي و هو يشحذ ذاكرته حتى برق مكان الشارع الذي يؤدي للعطفة .. يظل سائرا حتى يميل في الزقاق الضيق ويقف أمام آخر بيت فيه راجيا من الله أن يكون هو بيت شوق التي أخبره غالب أن فاتك يتردد عليها فلا يهاجمه أحد الجياع فيضطر إلى قتاله ..

بيد مرتبكة يقرع الباب فيطول انتظاره الموجول وتارة أخرى يدق أعلى الباب وعيناه تزيغان في الأبواب المغلقة وينتظر حتى أيقن أنه لن يُفتح وراوده شعور بخيبة الأمل فاستدار موليا الباب ظهره لكنه توقف لدبيب الخطوات التي يعلو في وهن فالتفت في حدة في اللحظة ذاتها التي يُسحب فيها اللوح الصغير وتبحلق العينان منه ..

- فاتك هنا ؟

انفلتت الكلمتان من فم زيدان وهو يرجو أن يكون ابنه في الداخل فيصحبه معه ولا يدع له فرصة لمفارقته مرة أخرى ولكن اليأس نهش قلبه لإغلاق الفتحة وهز رأسه وهو يعطي صاحبة العينين الحق في الشك في أي غريب لكن الأمل ينير صدره لسحب مزلاج الباب ويوارب أمام عينيه فيقترب محملقا في الجسم الصغير الواقف أمامه بوجهه الشاحب ..

- من ؟

- أبوه يا ابنتي وأبحث عنه ..

تقاطعه شوق في تبرم ..

- لم يأت فاتك من أيام ..

وكأن طعنة انغرزت في قلب زيدان فلا يدري بعد أن يفارق هذه العطفة أين يبحث عنه بين شوارع القاهرة وبيوتها التي أمسى معظمها قبورا مغلقة على أصحابها إن نجوا من أنياب الجياع فهزّ رأسه في يأس ورمق شوق بنظرة رأت فيها كل معاني الانكسار فحنّ قلبها و وضعت كفها على كتفه لتستوقفه فاستدار إليها ..

- قال لي آخر مرة أنه يعيش مع أصحابه في بيت مهجور بأرض الطبالة ..

- أرض الطبالة ؟ لكن البيوت هناك كثيرة ..

- أمام البيت شجرة جميز يابسة .. فاتك بنفسه وصف المطرح لي وطلب مني أن أعيش هناك وأنا رفضت ..

- يحفظك الله يا ابنتي ويتوب عليك ..

- ربنا يتوب على الجميع ..

يدس زيدان يده داخل عباءته فتوارب شوق الباب لكنها اطمأنّت للفة التي يقدمها لها وهو ينظر إليها في طيبة فتناولتها منه وفضتها ورأى الفرحة تطفر من عينيها وهي تشم رائحة الخبز والجبن فنظرت إليه في امتنان وفتحت الباب قائلة ..

- تفضل واذهب إليه في الصباح ..

- لا يا بنيتي وأغلقي أنت على نفسك الباب ..

ترنو شوق إلى ظهر زيدان المبتعد حتى خرج من العطفة الضيقة وقلبه يتوجس من البيوت الغارقة في الظلام واحتار بين أن يعود للدرب مؤجلا البحث عن فاتك إلى الصباح وبين أن يغامر في الذهاب إلى أرض الطبالة البعيدة فسار في طريق مظلم لا أنيس له سوى ظله وأنات القاهرة التي تتوجع في مسائها الذي بات بلا صباح.

***

القاهرة تتدثر بعباءة من السواد أحالت سماءها إلى قبة ترتعش النجوم في جنباتها والبيوت غطتها وحول الظلام المضمخ برائحة الجثث المنتفخة داخلها ولا يُسمع إلا صدى آهات بعيدة وخلت الشوارع تماما إلا من الموتى على قارعة الطريق فتحاذر قدما زيدان أن تدوس على إحداها مبتعدا قدر الإمكان عن أبواب البيوت وأبت نفسه الحانية إلا أن تذهب إلى أرض الطبالة للبحث عن شجرة الجميز اليابسة والعودة بابنه حتى لو قاتل جيشا من الجياع ..

يصل إلى أول الشارع فيدق قلبه للشجرة المنتصبة من بعيد تهتزّ أمامه لكن شكلها ظهر كلما تقدّم منها ويده على مقبض الساطور حتى رأى فرعيها اليتيمين وكأنهما كفان يتضرعان إلى الله أن ينزل غيثه على الدنيا وأن يبعد الضحايا التاعسين من المرور أمام البيت ..

يقترب بخطى وئيدة فإذا بالعيون المسهدة تتطلع إليه من السطح الواطئ فيفح أحدهم كلماته الرعناء المعتادة ..

- رزق الليلة يا رفاق .. استعد يا كاشر ..

كحية يزحف كاشر على بطنه حتى يلتصق كتفه في كتف غراب وهو يهمس في أذنه ..

- لكن ساطور زيد ليس معنا ..

- وسنفاجئه عندما يعود بطعام العشاء ..

يزر كاشر عينيه ..

- ما له يتلفت كأنه يبحث عن شيء ..

وكأن غراب لم يسمع ما قاله كاشر وبدون أن يحرك رأسه ..

- اسمع يا كاشر .. نحن اثنان ولا يمكن أن نرفعه بالكلاليب فلننزل ومن وراء الباب نلقي عليه الشبكة ونسحبه للداخل ..

يتسحّبان نازلين ويجثمان وراء الباب الذي واربه كاشر وبعين صقرية يرى فريسته تقف وتمد يدها لتقرع الباب عندها ألقى غراب الشبكة على زيدان وسحب مربطها فتكوّم على الأرض ولم يعطه كاشر الفرصة فدق رأسه بالعصا الغليظة حتى همدت حركته ..

يستكملان جره لوسط البيت ويقفان لاهثي الأنفاس يتبادلان ابتسامة الظفر ويمد غراب يده ليخلص الجسد الغارق في الدماء من شبكة الليف العنكبوتية ويغمز لكاشر أن ينهي الموقف فيخرج مديته الحادة ويميل العنق الرفيع وبحركة واحدة خاطفة كانت الدماء تنفر من الوريد للوريد فحاول أن يشخب أنفاسه الأخيرة من الحنجرة المذبوحة فضرب الأرض بقدمه ثم سكنت حركته فيكمل كاشر فصل الرقبة فيسيل خيط الدماء القانية

ويقلد فاتك في القبض على شعرها ورفعها لأعلى ثم يلقي بها في القفة وغراب يمزق القميص فيسحب الساطور وعيناه تلتمعان ..

- يا لحظ الليلة .. اللحم يأتي حتى بابنا بل ومعه ساطور ..

يضحك كاشر فتظهر أنيابه الصفراء المنتصبة ..

- وكأنه يساعدنا ..

ينهمكان في تخليص اللحم من الفخذين والساقين والساعدين وكاشر ينظر إلى غراب في تأفف ..

- بالرغم من أن اصطياده كان سهلا إلا أنه نحيل ..

- الجوع .. الجوع يا عزيزي كاشر جعل اللحم خفيفا

يظلان في كشطهما للحم ورص الشرائح في الزنبيل حتى بقيت العظام والأشلاء الباقية فهمّا في تعبئتها في الزكيبة التي تيبس قماشها من الدماء المتخثرة وجرّها كاشر للغرفة الخلفية ..

يدلف فاتك من الباب الذي تعجب لمواربته ويمسح المطرح بعينيه اللتين تستقران على زنبيل اللحم فيقطب حاجبيه وهو يغمغم ..

- يا للأوغاد فعلاها بدوني .. ولكن أين هما ؟

تأتيه الأصوات مختلطة من حجرة الدفن حتى خرجا فتراجع كاشر خطوة من فرط المفاجأة أما غراب فحضن فاتك وهو يمد يده مشيرا إلى الزنبيل ..

- تلاميذك يا معلم زيد ..

- إذن هيا فالجوع يقتلني ..

- أكيد بعد يوم آخر مع شوق ..

يبتسم فاتك وهو يشعل نيران الكانون ويغذيه بأقراص الجلة ..

- لم أكن عند شوق .. هيا .. قرّب القفة ياغراب ..

يتربّعون أمام الكانون ويرفع فاتك شريحة أمام عينيه ويهز رأسه وهو يمددها وسط النيران التي ازدادت توهجا وعلا حسيسها حتى بعّد فاتك وجهه من أمام لسان النار الذي أوشك أن يلفح وجهه ..

لزم كاشر الصمت وغراب يتمتم بأغنية كلماتها عبثية حتى رمقه فاتك بعينه المتسائلة فيرد ..

- إنها أغنية الموت .. أغنيها كلما اصطدنا ..

تخرج كلمات فاتك حازمة ..

- ولن نسمعك تنعق ثانية يا غراب ..

- ماذا قلت ؟ هل أغضبناك يا زيد ؟

- لا ولكن يجب أن نتوقف عن صيد البشر ..

يميل كاشر بجذعه وهو يتحدث باستهزاء ..
- وماذا نصيد ؟ الظباء الراعية في خضرة النهر ؟
يبتلع فاتك ريقه فيشعر بمرارة حلقه ويرفع إحدى الشرائح ويعطيها لغراب الذي يتلقفها ويشم رائحة الشواء في تلذذ ..
- اسمعاني .. يجب أن نرحل .. إلى الإسكندرية وهناك البحر ويمكن أن نصيد السمك وسمعت أنه توجد فاكهة تزرع بماء البحر ..
يرد كاشر وهو يلتهم إحدى الشرائح ..
- ماذا يجبرنا على الرحيل ونحن نصطاد هنا ولا نأمن الطريق .. انس الأمر يا زيد واستمتع بعشائك ..
يهز فاتك رأسه يائسا وهو يرفع شريحة اللحم التي استوى شواؤها ويلجها في فمه ثم يسحبها في سرعة بعد أن لسع اللحم الساخن لسانه وسقف حلقه .. ينتظر حتى تبترد قليلا ثم يجزها بين أسنانه ويلوك قضمته لكن قطعة اللحم كانت قوية فلم يطحنها فاتك بضروسة .. يتوقف عن المضغ فتستنشق أنفه رائحة نفاذة وكأنه يشم رائحة عرقه .. يظل يمضغ إلى أن يبتلع اللحم الذي مزقته أنيابه مقررا عدم مجادلتهما في أمر الرحيل الآن .. تحدث مغيرا دفة الحوار ..
- ولكن كيف سحبتماه ؟
- لم نسحبه .. وجدناه يقترب من البيت حتى ظننت أنه يريد أن يخبط الباب و..
- وألقيت أنا عليه الشبكة وأخمدنا صوته والباقي بين يديك وأسنانك ..
- ورأسه ؟
- كما علمتنا .. أمامك في القفة ..
ينهي فاتك طعامه ويشعر بالتعب يدب بين أوصاله فأوصى غراب أن يطفئ نار الكانون قبل أن يناما وتمدد على التليس القديم مغمضا عينيه فيشعر وكأن أحجار الدنيا حطت على صدره فضاقت رئتاه وسحّ العرق من جبينه وجحظت عيناه لأبيه الواقف قبالته مادا يديه لاستقباله ويسعد فاتك بمقدمه لكنه يفاجأ به يستأسد وينشب أظافره في بطنه فيسحب أمعاءه وفاتك يتلوّى من الألم ويجزع لخيوط أمعائه التي تصير شبكة تلتف حول أبيه ..
تجحظ عيناه لسقف الغرفة الواطئ فينهض جالسا ويجرع ماء القلة دفعة واحدة وأنفاسه تتلاحق وهو يتمتم ..
- يا للكابوس الفظيع ..
يلف ذراعه حول بطنه ويشعر بغثيان وشيك فوقف ليرى رفيقيه نائمين .. سار نحو الكنيف ضاربا القفة بقدمه فتدحرجت الرأس خارجة منها .. استطال أمد مكوثه وأمعاؤه تتقطع حتى بزق ما في جوفه دفعة واحدة .. يشعر بعدها بالراحة فنهض

وأحس بحلقه جافا .. يرفع غطاء الزير ويغترف الماء الباقي في جوفه ويجرع لامحا بطرف عينه الرأس المنكفئة ذات الشعر الأشيب فيهز رأسه وهو يمد أصابعه ليميل الوجه ناحيته فيسحب يده كأن عقربا نفثت سمها الزعاف فيها ..
يحملق في العينين الذابلتين اللتين تعلوهما آيات الرعب والعتاب .. قشعريرة تتملك جسمه ويلتصق لسانه في حلقه.. يهبط قلبه بين أضلاعه ويشعر بطقطقة شعر رأسه .. ينتابه شعور بأن ما يراه كابوسا ينتظر بين لحظة وأخرى أن يستفيق من شره ..
يرى تململ كاشر وجلوسه وهو يفرك عينيه لكن فاتك يعجزعن الالتفات إليه .. يريد أن يتكلم فترتعش شفتاه ويصيبهما اعوجاج يصاحبه ارتعاشة خديه ..
و دون أن يلتفت تطلق حنجرته صرخة تهز جنبات البيت فيتراجع كاشر على أثرها وينهض غراب وهو لا يدرك ما يحدث .. يقبض على يد الساطور ويصوّب لهما نظرات الجنون .. تعلو ذراعه وتهوي فيتراجع كاشر وغراب متفاديين الضربة في الهواء ..
يرفع الساطور ويضرب كاشر فيتفاداها ولكن الضربة أسرعت لتخترق كتفه فصرخ وهو يبرك على الأرض وبقفزة واحدة يجثم على غراب ويطرحه أرضا وينهال سن الساطور على رقبته وصدره ويده الممدودة لاتقاء الضربات حتى سكنت حركته ولم يتوقف حتى استحال وجهه إلى كومة من اللحم المفري ..
يلوي عنقه في حدة لكاشر الذي يزحف نحو الباب وهو يقبض على لحمه النازف فينهض إليه وكاشر يصرخ في وجهه ..
- زيد .. أرجوك ..
صُمّت أذنا فاتك فلم يسمع إلا صوت الساطور وهو يهوي على رفيقه فالقا هامته حتى نفذ بين عينيه ورفعة ثانية ليفصل رأس كاشر التي تتدحرج حتى تصطدم بباب البيت ..
يدور حول نفسه وقد تخضب وجهه وقميصه الرث بالدماء وهو يطلق صرخات الندم حتى شُلت يده اليسرى والتصقت بجنبه .. يخرج من البيت والشمس الحامية تتعالى في السماء .. يسير والدماء تنقط من جسمه النحيل .. يركض مخترقا أرض الطبالة .. يرفع يده اليمنى بالساطور فيضرب الهواء وهو يطلق خوارا مرعبا فتحاشاه كل من يقابله ويفرّ الناس من أمامه ويظل هائما على وجهه حتى اقترب من حافة النيل فتعثرت قدماه بفصوص الطين الناشفة .. انقلب متدحرجا حتى تمدد في بركة بين الماء واليابسة فنهض واقفا وسط المياه الضحلة يضرب بالساطور يمينا ويسارا حتى احتبس صوته واحمرّت عيناه وشعر بألم كبده وهو يتقطع فانفقأت مرارته وقاء من حلقه الدماء القانية وانكفأ على وجهه ولا تزال أصابعه تقبض على الساطور .

***

علـى بسـاط مخملـي مـن حريـر موشـّى بخيـوط ذهبيـة تجلـس عاليـة وهـي مرتديـة الخسرواني النـاعم ورائحـة السوسن تعبق الجنينـة .. تستظل تحت شجرة من أشجار الكـافور يجاورهـا الحسـن يلـبس ثيابـا مـن سندس وإسـتبرق عليـه شـال مـن الحريـر الأخضر ويلهو بعرائس وأحصنة بلورية شفافة أمامهما طاولة كبيرة رُصّت عليها كل صنوف الطعام فتمد يدها بفخذ خروف مشوي فيتناولـه ميمون ويبتلعه فـي لحظـة حتـى أنهى ما على الطاولة من طعام وشراب فمدت لـه يدها والنور يفيض من بين أسنانها اللؤلؤية وتخرج كلماتها ذات صدى رنـّان ..

- أكمل طعامك مني ..

يرنو لذراعها البيضـاء عليهـا أسـاور مـن ذهب فيقترب من عالية ويحضنها في قوة ويدور في دوامات من رائحة المسك .. يفتح عينيه ليشعر بذراعيه تلتفان حول صدره ويدرك أنه في حلم فيجاهد ألا يستيقظ منه ..

يحملق في عروق الغرفة الكئيبة وسعف النخيل اليابس يتخلل جريدها المسقوفة بـه .. تتـأرجح نظراتـه بـين فلـوق السقف التـي نخـر السوس معظمهـا فـنهض جالسـا وأبعـد الوسـادة الزنخـة مـن قلـة التشـميس .. ينقبض صـدره لكن ذكرى رؤيتـه تـراوده فيبتسم لحلمه القوي كأنه الحقيقة .. يترحم على زوجتـه وابنـه .. يـنهض منـتعلا القبقـاب ويسير خارجا من الغرفة ليطمئن على زيدان فرأى مخزن الورق مغلقا فأيقن أن أخـاه عـاد فـي الليل ولم يرد أن يزعجه وربما يكون قد أحضر فاتك معه وينام بجواره ..

يرفـع غطـاء القفـة الكتـاني ويسـحب رغيفين ومـن الـبلاص يلـتقط قطعتـين مـن الجـبن ويضـعهما علـى طاولـة صـغيرة ويسير نحـو المخـزن ويفتح البـاب فتـوجم عينـاه لخلـو المطرح من أخيه .. يبتلع ريقه ويسند الطاولة على ورق الطومار ويقف محتارا والقلق يأكل صدره وشعر بالتقصير في حق أخيه لأنه لم يمنعـه مـن الـذهاب فـي الليـل .. ينتابـه شيء من الراحة حين راوده إحساس بأن زيدان سواء وجد ابنـه أو لـم يعثـر عليـه يكون قد ذهب لبيته وأقنع نفسه بهذا الرأي وانتظر بين لحظـة وأخرى أن يقبل عليـه ليستعدا للرحيل إلى أخيهما منقذ ..

يخرج من البيت فتنتعش رئتاه للهواء الطازج وبـالرغم مـن لهيـب الشمس إلا أنـه جلس على المصطبة وهو يطيل النظر ناحية فتحة الدرب منتظرا أن يطل عليـه وجـه زيـدان .. يـنهض متمشـيا إلـى أن يقـف أمـام حـوش الشـيخ رادع فرفـع كفيـه ليقـرأ الفاتحـة والصـمدية ثـم طفق يـدعو لعاليـة بـالرحمـة والغفـران ودموعـة تنثـال علـى خده فمسحها وشرد ذهنه في ابنه وزوجته وسطع وجه زيدان أمامه فضرب كفا بكف ويعلو صـوته ..

- ربنا يرجعك بالسلامة يا زيدان ..
- وأين ذهب أخوك يا ميمون ؟
يلتفت للشيخ رادع الذي يقف عن يمينه فيقوده إلى ظل الجدار ..
- زيدان .. خرج في الليل من الدرب ..
يتغير وجه رادع وهو يضرب الأرض بعكازه ..
- وتركته يخرج يا ميمون ؟
- أصرّ يا شيخ ولم أستطع منعه في الذهاب للبحث عن ابنه ..
- البحث عن ابنه وفي الليل .. أين ؟
- لا أعلم .. كل ما قاله لي أن صديقا لفاتك عرف مكانه ..
يصمت الشيخ رادع و مرة أخرى الشعور بالتقصير يراود نفس ميمون القلقة .. يقود جاره إلى المصطبة التي يستشعران حرارتها فيفتح باب بيته ويدخلان اتقاء الشمس التي اشتدت ألسنة لهبها .. يقرّب ميمون الخبز والجبن والماء من جاره ..
- شاركني يا شيخ رادع ..
يركن الشيخ العكاز وتمتد يده لتناول الطعام في حين تتوقف أسنان ميمون عن المضغ لانقباض قلبه والجزع الذي ينشب أنيابه في نفسه المهزومة التي تنوء من وطأة الثكل وكعادة الشيخ رادع الذي يخترق نفس من معه يطبطب على ركبة ميمون ..
- أكمل إفطارك يا ميمون وقبل العصر إن شاء الله سيعود زيدان وفاتك ..
يساور الشيخ رادع شئ من القلق ودار في خلده أن زيدان لن يعود فحتى لو نجا من أنياب الجياع فالوباء الذي تغطّي رائحته سماء القاهرة يقضي على المرء في ساعات قلائل فلزم الشيخ رادع الصمت راجيا من الله أن يخيب ظنه ويعود زيدان إلى الدرب سالما..
- في داهية فاتك والله ما يستحق أن يبحث عنه زيدان ..
يتفاجأ الشيخ رادع بصوت ميمون الزاعق فتحسس عكازه ونهض ليعود إلى بيته وأمام الباب يقول له ..
- اهدأ يا ميمون وسيعود زيدان إن شاء الله ..
ينقضي النهار و قد نخر القلق تفكير ميمون حتى جن الليل بأرقه وملله ونومه المتقطع وميمون يتقلب على فراش من جمار الخوف على أخيه من أن يكون قد أصابه مكروه وطفق يعض إصبعه ندما على تركه يخرج من الدرب حتى بزغ الضوء فرفع غطاء صندوق قديم ساحبا خنجرا ودسّه بين طيات ملابسه عازما على البحث عن زيدان وما إن يخرج من البيت إلا و يوقفه عكاز الشيخ رادع المرفوع أمامه ..
- لن تذهب يا ميمون ..

هدأت حماسة ميمون وكأن الماء انصبّ على جذوتها المتقدة فابتلع ريقه وهو يستكمل خروجه من البيت ويقف أمام جاره ..
- أخي يا شيخ رادع ..
- وننتظر رجوعه فإن عاد خير وبركة ..
ينتفض ميمون وهو يدور حول جاره ..
- وإن لم يعد ..
- ربنا يعوّض علينا ولا تضيع أنت الآخر ..
- لم أستطع منعه من الخروج ..
- وأستطيع أنا منعك .. أتعصي أمري يا ميمون ؟ اخز الشيطان يا ولد ..
يمسك ميمون يد الشيخ رادع ويقبلها ويُريح الشيخ على المصطبة ويجلس جواره ويخرج صوته مختلطا بالدموع ..
- حاشا لله أن أخالفك يا شيخنا ..
يلف الشيخ رادع ذراعه على كتف ميمون ويقرّبه بحنو وهو يطمئنه..
- لا تقلق فجواد على وشك الحضور وقد كلفته بالبحث عن زيدان ..
برق الأمل في قلب ميمون وقبّل جبين الشيخ رادع وطفق يمسح دموعه الذارفة حتى ملأ ضوء النهار أرض درب الريحان فنهض ميمون ليدخل البيت فاستوقفه رادع سائلا ..
- إلى أين ؟
- أحضر لك الطعام ..
- عندي ما يكفي .. اجلس ..
- أحضر رغيفين وجبن لرزق وصابحة ..
- رحلا أمس و حاولت إبقاء رزق لكنه أصرّ على الذهاب لرؤية أبيه المريض ..
همّ ميمون أن يقول شيئا لكن قدوم جواد السريع جعله ينتفض ناهضا .. يحس به الشيخ رادع فينهض مستقبلا زوج ابنته في لهفة ..
- لم أعثر عليه لكن ..
- لكن ماذا يا جواد ؟
يفرد جواد قطعة قماش مبلولة ويرفع الساطور أمام ميمون الذي يهبط قلبه بين ضلوعه
- ساطور زيدان ؟ أخي مات ؟
- لا أدري فقد عثر جنودي على جثة شاب موحولة في برك النيل ويقبض على ساطور وتعرّف عليه أحدهم بأنه فاتك بن زيدان القصّاب ..
دارت الأرض بين عيني ميمون ولم يقو على الوقوف فشعر بأن روحه تفارقه وغاب عن الدنيا فحمله جواد لمخزن الورق يتبعه الشيخ رادع الذي جلس جواره يحاول إفاقته

ولما لم يستطع تركه يستريح وعاد جواد للبيت تاركا كوب الماء جوار الشيخ رادع فتحسس الأرض ليسقي ميمون فقبضت أصابعه على الحصان الطيني فقرّبه من أنفه يشم بقية من عبق الأرض ودمعة ذارفة تتعرج على خده المرتعش .

***

لم يصدّق ميمون أنه لن يرى أخاه زيدان مرة أخرى وبنفس مهشّمة يظل لأيام يخرج من درب الريحان يسأل كل من يقابله و يتسمّع الأخبار وجرؤ مرة وذهب إلى بيت أخيه فوجده منهوبا وأثاثه الشحيح مبعثرا في كل مكان فألقى اليأس شباكه على روحه المكلومة وأمسى هو والحلم بعودة أخيه متلازمين فاستسلم وهو يتجرع للمرة الثالثة مرارة الثكل حتى إذا زحف مساء يوم تمدد على سريرة فأغفى فبرق وجه زيدان أمامه يوصيه بالرحيل إلى أخيهما منقذ ..

ينهض ملتقطا أنفاسه والعرق يتصبب من جبينه .. خرج من البيت ووجه أخيه لا يفارق خياله .. يطرق باب الشيخ رادع وجاءه الصوت يدعوه للدخول و بدون أن ينطق جلس بجوار جاره وأتت ابنته لهما بطعام العشاء فعافت نفس ميمون أن يتذوق الزاد فحلف عليه الشيخ رادع ..

- والله لتأكل معي يا ميمون ..

- ميمون ؟ اسم على غير مسمّى .. فلا يُمن ولا بركة في زمننا الذي نعيشة ويضيع منا أولادنا وإخوتنا ..

- يا ولدي .. سهم الله ونفذ .. سلم أمرك له ..

- ونعم بالله .. المهم يا شيخ رادع .. نويت الرحيل ..

تسقط اللقمة من بين شفتي الشيخ المرتعشتين ويضرب كفا بكف ويخرج صوته محزونا ..

- لم يا ميمون ؟ فلم يبق إلا أنا وأنت في الدرب ..

- يجب أن أذهب لأخي منقذ في أطفيح فلم يبق لي غيره من أهلي ..

يميل الشيخ رادع إلى الوراء ويشبك أصابعه خلف رأسه ..

- تماما كأبيك فظل حتى وفاته لا ينقطع عن أهله في دقهلة ..

- وأنا مصرّ أن أطمئن عليه حتى لو أن هذا آخر شيء سأفعله في حياتي و من الفجر سـ ...

يقطعه الشيخ رادع بحدة ..

- لا .. يجب أن ترتب لسفرك فالطرق محفوفة بالمخاطر ..

- تخشى عليّ من الجياع ؟ لست أفضل من أخي زيدان أو ابني الحسن..

قالها ميمون وهو يغالب إجهاشه بالبكاء فطبطب الشيخ رادع على كتفه وخرجت كلماته في عطف ..

- الله يرحم الجميع يا ولدي .. لكن اعتبر يا ميمون وقديما قالوا : السعيد من يعتبر بغيره والمأفون من يعتبر بنفسه وأنا لا أريد أن أفقدك ..

يكفكف ميمون دموعه عندما رأى جواد قادما حتى إذا ما اقترب منهما وضع بين ساقي الشيخ رادع صرة كبيرة ..

- خير يا جواد .. ذهبت وعدت بسرعة ..

يلتقط جواد أنفاسه ويمسح العرق المتصبب على رقبته ..

- صرّة أخرى من ثياب القصر .. كنا أنا وزملائي نجد مشقة في بيعها واليوم عجزت عن التخلص منها ولا أدري ماذا أقول للقائد ..

- أدخلها يا جواد وتعال .. أريدك في أمر ..

يغيب جواد داخل البيت ولم يلبث أن يعود فيجلس وإمارات الاكتئاب ترتسم على وجهه فسأله ميمون ..

- أراك حزينا يا جواد ؟

يزفر جواد أنفاسه الحارة ويرفع قبضته أمام وجهه ..

- واحد من زملائنا عاد لبيته ولم يحضر في اليوم التالي وعندما ذهبت أنا وثلاثة من القواد وجدناه مذبوحا في بيته ونُهش لحمه فلم يبق إلا ...

- كفى .. كفى ..

بعصبية يقاطعه الشيخ رادع وهو يهز رأسه في تأفف فشاركه ميمون وجواد الصمت وتركا له وقت قطعه حتى زام الشيخ زوما ممطوطا وهو يوجه قوله لجواد ..

- عمك ميمون يريد الرحيل يا جواد ..

- السفر خارج القاهرة خطر يا أبا الحسن ثم إلى أين ؟

- إلى أطفيح ..

- بمفردك لا يمكن فالناس تخطف و ..

يطرق ميمون وتنثال دموعه لتبلل لحيته غير المشذبة ويتمتم ..

- حسبي الله ونعم الوكيل .. لكني سأرحل ..

يسير جواد جيئة وذهابا وهو يضع يديه خلف ظهره وفجأة يتوقف وهو يرفع ذراعه ..

- سترحل إن شاء الله يا عم ميمون ..

يكز الشيخ رادع أسنانه وتخرج كلماته بطيئة ..

- كيف يا قائد يا همام ؟ هل سترسل معه فرقة من حرس الخليفة لتحرسه ؟

- اثنان من زملائي علمت أنهما سيرحلان لأهلهما في الجنوب وبالتأكيد سيمران على أطفيح ..

ينتفض ميمون واقفا وإشراقة الخبر تمحو غمائم الحزن من وجهه ..

- إذن هيا لمقابلتهما .. أنا مستعد للرحيل من الآن ..

- بعد يومين يا عم ميمون .. سفرهما بعد يومين ..

يظهر صوت الشيخ رادع فرحا وهو يردف ..

- حتى تستعد يا ميمون وستسافر في حراستهما ..
يرفع ميمون أصابعه المتشابكة في ارتياح وهو يعقب ..
- الحارس هو الله يا شيخنا ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ..
- معك حق يا ميمون ولكن لنأخذ بالأسباب والحيطة أولى .

*

وكأنهما دهر بأكمله مرّ اليومان و لا عمل لميمون غير الجلوس أمام باب الحوش أوالمكوث جوار قبر زوجته يبثها أشواقه ويتعزّى عن فقد زيدان والحسن بها وشعر باحتياجه الشديد للبُعد عن القاهرة التي لم يعد يطيق ما يسمع من أخبار تأتيه من خارج الدرب وإذا أضيف مشهد الطفل الذي رآه مذبوحا عند البئر فإن ذلك كله جعل الغصّة لا تفارق حلقه فتمنّى الخلاص من كل ذلك بالرحيل حتى ولجت مغربية اليوم الثاني جاءه جواد ليخبره أن زميليه سيمران مع اهتلال الفجر لمرافقته ففرح ميمون أيما فرح واستبشر خيرا في يُسر السفر فشكر جواد و مكث في البيت تراوده الخيالات للقاء أخيه منقذ وأهل بيته الذين لم يرهم منذ سنوات وسيعيش في أمان بعيدا عن القاهرة وما يحدث فيها ويشم رائحة الريف العليلة وتتخلص رئتاه من روائح الموت الذي صار مألوفا والجثث المتناثرة التي لا تطاق ..
نام نوما متقطعا حتى إذا اقترب الفجر نهض نشيطا وعلى ضوء المصباح الزيتي سحب ورقة كبيرة من الطومار ورص عليها الخبز بعناية وفي ورقة أخرى لف قطع الجبن والأسماك المملحة بعد أن انتزع زعانفها الحادة حتى لا تمزق الورق و لف كل ذلك في كيس كتاني وربطه جيدا ثم وضعه في مخلاة لها حزام من حبل الليف وملأ قربة صغيرة بالماء حتى إذا ما تنفس الصبح دخل الكنيف واستحم وانتعل خفا متينا من الجلد وهيأ نفسه للسير الطويل ..
زاغت عيناه حتى وقعت على ساطور أخيه فنظفه وثبته بحبل رفيع بين طيات ملابسه وجلس على أحر من الجمر ينتظر وأشواك القلق تغرز نفسه وهمّ أن يخرج لولا أن آتاه صوت جواد مناديا فحمل المخلاة وقربة الماء وخرج مغلقا الباب فسلم عليه وأخبره أنه على أهبة الاستعداد للسفرلكنه استأذن جواد للحظة فاستدار جواد عائدا لزميليه تاركا ميمون يدلف الحوش ..
يدخل الشيخ رادع الحوش فوجد ميمون يقرأ الفاتحة أمام قبر زوجته فطبطب على كتفه وتحاضنا في حرارة وأصرّ الشيخ برغم حزنه على رحيل ميمون على مرافقته حتى فتحة الدرب وأمام البيت أخرج الشيخ رادع من بين طيات عباءته الخنجر القديم ورفعه أمام ميمون الذي لفته غمائم الاستغراب وقبل أن ينطق بادره الشيخ ..
- أغلى ما عندي يا ميمون .. احفظه يحفظك ..

يميل ميمون ويقبل يد الشيخ رادع ويثبت الخنجر بجوار الساطور .. يسيران وأصابعهما متشابكة حتى إذا ما وصلا أمام بيت عبد البر الغزال سمعا أصواتا بالداخل فظن ميمون أن عبد البر قد عاد فارتاحت نفسه لوجود أحد بجوار الشيخ رادع.. ينادى عليه ليودعه لكن الخطوات الوئيدة انتهت بظهور رجل آخر من البيت وجم ميمون لمرآه فاقترب من الوجه الممصوص ذي الأنف المعقوف واللحية الرفيعة التي تشبه لحية التيس ..

- من أنت ؟

خرجت الإجابة من الفم الأبخر رفيعة كوجه صاحبها ..

- أنا لاوي بن بنيامين ..

يرفع الشيخ رادع عكازه ويرتفع صوته ..

- لماذا أنت هنا يا لاوي ؟ ألا تسكن درب اليهود ؟

ينضم جواد العائد من خارج الدرب لهم وهو يتعجب من الغريب الذي يعطلهم .. يرفع لاوي ورقة مطوية أمامهم ويخرج صوته من بين منخاريه الضيقين ..

- باع عبد البر الغزال البيت مقابل كيس دقيق قبل رحيله وهذا عقد البيع الذي كتبه القاضي لنا و لن أسكن هنا الآن أنا فقط جئت لأخبر الجميع بجواري معكم ..

يسحب ميمون الورقة ويفردها أمامه وعلى الضوء الباهت يرى العقد ممهورا بتوقيع القاضي فيعيده إلى لاوي والضيق يكبس على صدره ثم مال على أذن الشيخ رادع ..

- لن أرحل يا شيخي .. سأبقى معك ..

- بل سترحل يا ميمون ولا تقلق فهو أوهن من أن يؤذي ذبابة ..

- لكن يا شيخ رادع ..

- ارحل يا ميمون فمعي جواد ومن قبله الله ..

يستديرون تاركين لاوي اليهودي يقبض على عقد شراء بيت عبد البر وهو يزر عينيه اللتين تمسحان بيوت الدرب المغلقة ثم يثبت نظراته في وجه ميمون ..

- لا تخف على جارك الأعمى فسأطمئن عليه من وقت لآخر .. وإن احتاج الطعام أو الدواء فأنا رهن إشارته ..

يغمغم ميمون و نظراته تخترق وجه لاوي ..

- الطعام والدواء .. والله لأنت الداء لا الدواء ..

يفسح جواد الطريق لميمون ليخرج فخطا وأصابعه تتشابك مع أصابع الشيخ رادع وخارج الدرب رأى ميمون ما جعله يشعر بالراحة ويتحقق من يسر الرحلة بالرغم من المفاجأة التي حدثت قبيل السفر فالجنديان معهما عربة يجرها بغل فقدمهما جواد لميمون ..

- أبو شجاع والحارس يا شيخ ميمون سيوصلانك ليس إلى أطفيح فحسب بل لبيت أخيك إن أردت ..
سلم عليهما ميمون ومرة أخرى حضن الشيخ رادع وطبطب على ظهره المحدودب وأوصى جواد به وحذره من وجود لاوي المفاجئ في الدرب فطمأنه جواد بأنه سيسوّي الأمر معه ولم يطل حديثهما حتى سمع ميمون أحدهما يستحثه على المضي قبل شروق الشمس فركب العربة ولسع أبو شجاع ظهر البغل بجريدة ناشفة فتحركت من أمام درب الريحان وميمون يرفع يده مودعا الشيخ رادع ولم ينزلها إلا بعد أن انعطفت العربة تجاه الشارع الكبير ..
يميل بوجهه يتفرّس الجنديين بظهريهما العريضين و ملابسهما الحربية وقد امتشقا السلاح ومن شدة الحر خلع الحارس خوذته أما أبو شجاع فما زالت الخوذة على رأسه وملفوفة بشال أبيض رفيع خلفهما صرّة صغيرة يستقرتحتها طبرزين* حاد بيد خشبية عريضة فتحسس ميمون ساطور زيدان وخنجر الشيخ رادع مزهوا أنه ليس أقل سلاحا منهما وندم على أنه لم يترك خنجر الشيخ رادع معه بعد أن فوجئوا بتسرّب لاوي إلي الدرب فهز رأسه في قلق لكنه طمأن نفسه بوجود جواد مع الشيخ فأغمض عينيه وضمّ مخلاة الزاد إلى صدرة وهو يهتز مع العربة التي يقودها أبو شجاع بمهارة محاذرا ألا تدوس حوافر البغل على الجثث المتناثرة في الشارع حتى انعطف في أرض فضاء واستقبل ركبهم الصغير الطريق إلى خارج القاهرة .

***

---

* الطبرزين : آلة حربية تشبه البلطة .

تتراقص العربة في الطريق الدائري ورائحة الموتى تزكم الأنوف فالتفت الحارس إلى ميمون وأشار بيده أن يفعل مثله فسحب ميمون منديلا عريضا وجعله مثلثا وأخفى به نصف وجهه رابطا إياه من الخلف بإحكام وبقيت عيناه تستطلعان البيوت والحوانيت الخربة فأغمض عينيه برهة حتى اهتزت العربة بعنف ففتحها مبحلقا و فرد كفه أمام عينيه ليرى أحد أشياخ جامع القاهرة يقف مكمما بعباءته حوله لفيف من الجنود يرصون الأجساد الميتة في خندق عريض واتسعت عيناه و خرجت آهة ممطوطة من خلف المنديل عندما رآهم يشعلون النيران في البوص والأحطاب المتناثرة حول الجثث .. تبتعد العربة وتودع عيناه الأخدود وأوارالنيران تتوهج ورائحة الشواء تتصاعد .. يلتفت وراءه ومن بين رموشه التي بللها العرق يرى شبح الشيخ يبتعد عن المطرح تاركا الجنود يزكّون النيران في كل بقع الشق الطويل .. يلوي وجهه للأمام ويتناهى لمسامعه تعليقات أبي شجاع والحارس ويتعجب من عدم اكتراثهما لما يحدث بل سمع الحارس تعلو ضحكته من خلف المنديل وهو يشير نحو الخندق فعلا صوته متعمدا أن يسمعاه ..

- يا للأهوال التي تعيشها القاهرة !

يلتفت أبو شجاع وهو يهتز مع اهتزازات العربة ويعلو صوته ..

- أنت لم تر شيئا يا شيخ ميمون إنه المعتاد ..

- عفوا فنادرا ما أخرج من درب الريحان ..

استرعى رد ميمون انتباه الحارس فسأله بحرفية الجندي المتدرب على جمع المعلومات ..

- وكيف كنتم تدبرون الطعام ؟

يرتبك ميمون ويتلعثم لسانه .. يتشاغل في فك المنديل المربوط حول وجهه ماسحا به حبات العرق المنزلقة على لحيته .. يلتقط أنفاسه ويبتسم ..

- بعنا كل ما نملك نظير حفن من الدقيق ..

في لا مبالاة يهز الجندي رأسه وكأن الأمر لا يعنيه و ينشغل في محادثة زميله ومن بين ظهريهما يراقب ميمون فخذي البغل اللذين يتراقصان في إيقاعات رتيبة وذيله ينش الذباب الحائم حول مؤخرته وتعجب في قرارة نفسه من وجود البغل وأخذ يغمغم

- بغل ؟!؟ في القاهرة بغل ؟ أيوجد حيوان يمشي على أربع يعيش إلى اليوم ؟

يرفع أبو شجاع يده ويضرب ظهر البغل الذي يراه ميمون ضامرا من قلة العليق والغذاء الأخضر لكنه يركض بحمولته نشيطا وهو يطحر ويطلق شحيحه من آن لآخر للتبّة التي يرتقيها حتى انتهى من بيوت القاهرة ليستقبلوا المدق المؤدي إلى حلوان

فالتفت ميمون إلى الخلف ليطالعه شروق الشمس على قصر الخليفة التي تتشامخ أبراجه وسط بيوت القاهرة المتقازمة من حوله ..
تعلو الشمس وتتوهج أشعتها الفتية فسحب أبو شجاع لجام البغل مائلا به نحو طريق جانبي وقاد العربة مسافة ليست بالقصيرة حتى أوقفها تحت شجرة سنط عجفاء أغصانها تعرّت من اللون الأخضر واهمين أنفسهم بطراوة ظلها الشحيح فنزل الحارس وربط اللجام في الجذع اليابس يتبعه أبو شجاع الذي تفل بصاقا مختلطا بالغبار ..
يسحب الحارس الصرّة داعيا ميمون إلى مشاركتهما فتربع أمامهما وانشغل ثلاثتهم في تحضير الطعام وفرد أبو شجاع القماش لتظهر الأرغفة الناشفة وشرع يجرش قضمته بين أسنانه فابتسم لهما ميمون وهو يفرد الطومار وتتسع عيناهما للخبز المبلل والجبن والسمك المملح فازدرد الحارس ريقه وحدج ميمون بنظرة وضع فيها كل معاني الدهشة واستفاقا على صوت ميمون وهو يقرّب منهما الطعام..
- تفضلا ..
بأصابع مرتبكة لامس أبو شجاع القرصة اللينة والجبن وبادر بدفعها داخل حنكه الواسع وهو يهز رأسه وينظر إلى الحارس الذي تشجّع وتناول لقمة كبيرة في شهية لم تواتيه من قبل حتى باداه أبو شجاع ..
- لأول مرة منذ سنوات يدخل جوفي سمك ..
يهز الحارس رأسه علامة التصديق على قول زميله وفوجئ به ميمون يضيف ..
- والله يا حاج ميمون أنا نسيت طعم الجبن .. لكن كيف وفرت الزاد ؟
لم يرتبك ميمون هذه المرة ورد في سرعة ..
- هذا آخر طعام في البيت وما دمت انتويت الرحيل فلا داعي لتركه لئلا يصيبه العطب
يهزان رأسيهما ويبتسم الحارس وهو يردف ..
- يا سلام .. برغم ما يحدث إلا أنه لا يزال في القاهرة خير ..
يرفع ميمون يده ويرد عليهما بجد ..
- الخير كل الخير في قاهرتنا ولولا سفري للاطمئنان على أخي الذي لم أره منذ أعوام ما تركتها إلى أن يرفع الله عنها الغمّة ..
يتبادلان الابتسام و يبتسم لهما ميمون وهو ينهي طعامه وفجأة برق وجه لاوي أمامه وداخلته هواجس القلق من أن يراقب لاوي الشيخ رادع أو جواد وهما يأتيان بالطعام من بيت يؤنس فيخطط للانقضاض عليه لكنه طرد الفكرة فقد أوصى جواد بشدة على الاحتراز من افتضاح أمر خزين الطعام .. يمسح بأصابعه الفتافيت العالقة بلحيته ثم رفع القربة وشرب وسحب أبو شجاع الزمزمية المربوطة أسفل العربة وارتوى ثم تركها للحارس ونهض ليفتح كيسا صغيرا به القليل من العليق أمام البغل الذي شاهده

ميمون من أول جلستهم يلتقط بمشفريه أعواد الشجر الجافة من بين الصخور المتناثرة حوله .. يفرد الحارس ملاءة قديمة ويتمدد يجاوره أبو شجاع وميمون حائر من استراحتهما الفجائية ويراوده شيء من الضيق لتعطل الارتحال لكنه أقنع نفسه بحقهما في الراحة لاستكمال السفر بل ورأى حاجته أيضا للنوم بعد قلق ليلة أمس ومفاجأة الصباح التي لم تخطر على بال أحد ومرة أخرى طرد القلق الذي يخامر فكره على الشيخ رادع فتوسّد ذراعه واقتنص فرصة قبل أن يغطا في النوم وسألهما ..

- أين نحن الآن ؟

بدون أن يلتفت إليه الحارس أجابه وهو يغطي عينيه بذراعه ..

- تركنا حلوان وبعدها سنتجه جنوبا على ضفة النيل ..

يسمع ميمون أصوات أنفاسهما المنتظمة فيغمض عينيه ناشّا بيده الذباب الحائم حول وجهه حتى ضاق به ففرد المنديل عليه يستحث النوم الذي أبى أن يراوده لكنه اطمأن قلبه ليسر الرحيل ورفقة الجنديين وهمس بالدعاء للشيخ رادع الذي أصرّ ألا يرحل بمفرده وتخيّل نفسه يتنقل من مكان لآخر دون أن يدله أحد على الطريق أو هاجمه أحد من كواسر البشر فابتسم لرفيقيه وشعر بالأمان لأسلحتهما التي سترافقه حتى أطفيح ويود لو يكافئهما بكل ما يملك من مال لكنه أقنع نفسه بأن الطعام خير هدية ..

لم ينم ميمون وأيضا لم يفطن طوال الطريق لمثانته التي انتفخت وألحّت عليه فسحب المنديل من على وجهه ونهض ليستطلع البقعة النائية من حوله .. قرر أن يفعلها خلف الشجرة لكنه استحى من نوم الشابين فجالت عيناه و أبصر أسفل التل أجمة من جذوع السنط الناشفة فاستحسن أن ينزل إليها وتمشّى نحوها وهو يملأ رئتيه بالهواء الخالي من روائح الموت وكلما خطا لأسفل التل الصغير ازداد هجوم الذباب عليه حتى وصل إلى أول الأشجار فأقعى يراقب خط الماء بصفرته الداكنة ينثال أمامه وهو يصنع نهره بين الحصيات ..

يضرب بكفه الذباب ولم يلبث أن نهض مندهشا من توافده بهذه الكثرة فأرجع ذلك إلى وجود جثة ذئب أو كلب ميت خلف التل وصدق الهواء الذي يحمل رائحة التعفن الخفيفة ظنه فدعك أنفه وتراجع لكن فضوله جعل قدميه تسيران بين السنط نحو الذباب الذي يتكاثر كلما تقدّم وما إن مال حتى جحظت عيناه واقشعرّ شعر رأسه لعظام الآدمي الملقاة أسفل إحدى الأشجار يرعى النمل حولها والذباب يعلو طنينة حول ذراع سوداء تتدلى بحبل رفيع من غصن الشجرة ..

يحتبس صوته وتمنّى ما يراه يكون كابوسا ينتظر بين لحظة وأخرى أن يستفيق منه لكن هجوم الذباب على وجهه جعله يجأر بصرخة رجّ صداها الفضاء العريض من حوله .

***

ينتتر الحارس من رقدته وينهض ساحبا السيف من غمده .. يهرول يتبعه أبو شجاع رافعا الطبرزين وأبصرا ميمون أسفل التل واقفا بلا حراك فنزلا حتى وصلا جواره و أبو شجاع يتلفت يمنة ويسرة واندهشت عينا الحارس من عدم وجود كائن يهدد خلوتهم لكن أصابع ميمون جعلتهما يحدقان في العظام الساجية فألقيا نظرة سريعة على الجثة وسحبا ميمون الذي تأبّط ذراعيهما وصعدوا التل الصغير عائدين إلى مكمنهم فاستراح ميمون على الأرض ونهضا يستعدان لمواصلة الرحلة .. تهدأ نفس ميمون فبادره أبو شجاع بلهجة أقرب إلى التهكم ..

- خفت يا شيخ ميمون ؟

يلتفت إليه ميمون وهو يهوّم برأسه ..

- والله يا ولدي ما أخافتني العظام فإنها تدعو للشفقة وقد رأيت في القاهرة ما هو أفظع .. إنما فزعت لظني الذي أقنعني بأنني لن أرى أو أشم رائحة الموت مرة أخرى ..

وكأن الجندي لم يفهم الكثير مما قاله ميمون فانصرف إلى حمل أشيائهم داعين ميمون للركوب فوضع المخلاة على العربة ورفع القربة ليشرب فلمح بطرف عينه البغل وهو يحمحم وأنفاسه تثير زوبعة صغيرة حول منخاريه ولسانه يلحس الزلط من شدة ما لحقه من العطش فدارت عيناه تستطلعان المطرح ورآه الجنديان يسير نحو ماعون فخاري ذي حواف تهتّمت فعاد يحمله بين يديه ونفض ما به من تراب واضعا إياه أمامه وسكب القليل من ماء القربة وقرّبه من البغل الذي هزّ أذنيه طربا وطفق لسانه ومشفراه في الشرب حتى لحس قعر الماعون ..

- ماذا تفعل يا شيخ ؟

يرفع ميمون وجهه لأبي شجاع القابض على لجام البغل و ركب العربة خلفهما ..

- أدخل الله رجلا الجنة عندما سقى كلبا فأنقذه من هلاك العطش ..

ينفض ميمون ما علق بثيابه من تراب ويرتقي العربة التي يبدأ البغل في التحرك فتعود إلى المدق الترابي والحارس وأبو شجاع ينشغلان في حديث خفيض وميمون لائذ بالصمت يلحظ البقعة التي تتعرج فيها العربة حتى برز النهر ..

يعتدل ميمون في جلسته وتشوّق إلى رؤية النيل واستراح عندما استوى المدق على الحافة وسارت العربة في أرض وطيئة وانفسح النهر الشحيح أمامه فجزع للنيل الذي استحال إلى برك صغيرة حول الجزر الطينية اليابسة والأرض العطشى من حوله تتشهّى الماء فالجفاف جعل الأرض وما حولها خرابا .. مرت عيناه بحيوانات ميتة ملقاة في البرك وقد كفتنت طحالب النهر رفاتها فأضحت خمائر من جثث غائصة في المياه الضحلة ..

يقترب المدق أكثر حتى سار بمحاذاة النيل فتنخفض عينا ميمون للكائنات التي لمحها بالأسفل فأطل وجه ممصوص من أعلى جثة جمل ويرفع بين يديه قرموطا يهتز وزميلة يخوض وسط عظام الجمل العريضة وهو يبحث في المياه السوداء .. تتخطاهم العربة وفجأة يلتفت ميمون لصيحة أحدهم فرآه يرفع قرموطا آخر يتلوى بين يديه وضحك ميمون لحظهما الباسم الذي ضمن لهما طعاما من بين أحشاء الجمل فمرق وجه ريان السقاء الذي روى له مرة أنه اصطاد قرموطين من داخل رمة جاموسة ..
يتكئ بكوعه على كيس العليق شبه الفارغ ومد أصابعه ليحرر قدميه من النعل السميك وتذكر جاره نصيف الذي خاط له هذا النعل المتين منذ عامين .. تدحرجت المخلاة فقبض ميمون على رباطها وبرق وجه عبد البر الغزّال الذي نسجها له في الصيف الفائت وعض شفته لبيع عبد البر بيته وامتعض وجهه لوجه لاوي الذي برق أمامه فهوّم رأسه طاردا قلقه فأغمض عينيه والاهتزازات المتتابعة تجعله يستحث النوم فأغفى بعد أن وضع السبحة التي أهداها له الشيخ رادع بعد عودته من الحج في جيبه ولم يلبث أن فتح عينيه لرجرجة العربة المفاجئة وعندما عاود الإغماض يرى على البعد رجالا ينتشرون في الأرض فاعتدل في جلسته وعيناه تندهشان للجنود الذين يعملون في الأحواض القريبة من النهر فيرفعون المياه القليلة بالشواديف التي تسكب الماء في جرار يحملها آخرون إلى المجرى الصغير وغيرهم يعزق الأرض .. جاءه تفسير ما يراه عندما آتاه صوت الحارس يؤكد لأبي شجاع ..
- أمر الخليفة المستنصر أن يفلح الجند الأرض لتوفير القمح ..
- والفلاحون ؟!؟
يلتفت الحارس لميمون ..
- وأين الفلاحون ؟ هلك معظمهم بالوباء والآخرون هربوا بعد جفاف النيل تاركين الأرض التي استعصت زراعتها ..
يهز ميمون رأسه وخيبة الأمل تطبق على صدره وراوده إحساس بالغم الذي ينتظره لكنه أقنع نفسه المهمومة بأن الجند يستزرعون الأرض القريبة من القاهرة والتي ستدر الغلال لقصر الخليفة أما البلاد البعيدة فيزرعها أصحابها .. ثبت عينيه على الكادحين من الجند حتى انحرفت العربة بعيدا عن النهر الذي محل حوله الزرع .. يظل ميمون يتابعهم حتى بدوا كالنمل واهتزت صورتهم البعيدة مع اهتزازات العربة فاختفوا عن ناظرية .. يقرر قضاء الوقت المتبقي في النوم الذي لم يذقه منذ ليلة أمس وما إن يغمض عينيه إلا ويفتحهما على توقف العربة و تارة أخرى يغزو الضيق صدره لتأخر الوصول إلى أطفيح وقبل أن يستفسر نزل أبو شجاع يتبعه الحارس ..
- لحظات يا شيخ ميمون .. نقضي حاجتنا ونعود إليك ..

مشى الجنديان نحو البربا* القريبة ولحظ ميمون أنهما تركا السيفين فانتعل خفه ونزل بدوره من على العربة وبين الفينة والأخرى ينتظر أوبتهما واستطلعت عيناه البقعة المترامية نحو المدى الفسيح وظهره يُساط بأشعة الشمس المحرقة .. يفرد كفه أمام عينيه فرأى السراب يموّه الأشياء .. يظل محدقا إلى أن حملق في الحارس الذي يقع على الأرض و رجل غريب يصوّب السيف إلى رقبته فجحظت عينا ميمون وأيقن أن رفيقي سفره في كمين أطبق عليهما فلم يضيع الوقت وحمل السيفين والطبرزين والتف حول البرابي المهجورة وتسحّب حتى وصل خلفهم فرأى أربعة من الجياع بيدهم السيوف والعصي الرفيعة يقودون أبا شجاع والحارس الأعزلين نحو العربة ولم يفطنوا لميمون الذي سار خلفهم وما إن اقتربوا حتى ركض أحدهم نحو البغل يبغي أسره ففاجأهم ميمون بالانطلاق نحوهم وهو يجأر بصياحه ويقترب راميا السيفين لرفيقيه ويشهر هو الطبرزين والساطور في وجوههم فأربكتهم المباغتة وبمهارة الجند المدربين بدأ أبو شجاع الهجوم فأوقع أحدهم بعد أن أطار سيفه و التفت فرأى الحارس يضرب آخر بمقبض السيف على رأسه فيبتعد برأسه المجروح أما ميمون فيرفع الطبرزين ويهوي به على صدر الرجل فيبادر أبوشجاع بصد الضربة بسيفه الذي يشهره في وجه الرجل فيفر جاريا هو والباقون تاركين أسلحتهم الهزيلة على الأرض .. ينزل ميمون الطبرزين لاهثا وهو يتعجب من تصرف أبي شجاع الذي حرمه من الانتقام من الجياع الذين ربما يكونون سببا في ضياع ابنه الحسن وأخيه زيدان لكن الحارس يطبطب على كتف ميمون وهو يبتسم ..

- مجرد جماعة من خلاة البطون يعجزون عن حمل السيف ..

يرفع ميمون صوته منفعلا ..

- لكنهم كانوا سيقتلوننا ويذبحون البغل ..

- كنا سنمنع ذلك بمجرد وصولنا إلى الأسلحة .. المهم .. أنت فارس شجاع يا شيخ ميمون ..

- تلتف حولهم و تهاجمهم من الخلف يا لك من مخطط ..

تهدأ نفس ميمون وهو يركن الطبرزين على العربة ويعيد دس الساطور.. يطمئن لوجود الخنجر .. يرفع القربة ويجرع الماء ..

- تعرفان أني ورّاق كما قال لكما جواد لكن الذي لا تعرفانه أني حاربت التمرّد في جزيرة صقلية قبل أن تولدا .. يلتفت الجنديان لبعضهما في دهشة وبادره أبوشجاع ..

- أنت ؟!؟

---

* البربا : بقايا معابد المصريين القديمة

- نعم وكنت في فيلق القائد غافق الصنهاجي ولكني أصبت في فخذي وعدت مع الجرحى إلى الإسكندرية وانتهت خدمتي في الجيش ..

يهزالحارس رأسه متعجبا ويعتدل أبو شجاع لقيادة العربة وهو يردف ..

- على كلٍ نشكر لك شجاعتك أيها القائد ميمون الورّاق ..

يتضاحكون وبالرغم من توتر ميمون إلا أنه شاركهما الضحك وتحركت العربة نحو الجنوب حتى ظهرت مئذنة قصيرة لا تكاد تظهر حتى تختفي فالتفت إليه أبو شجاع مشيرا ..

- ها هي أطفيح يا شيخ ميمون سنصلها إن شاء الله بعد قليل .

***

(35)

بدا النهار في نزعة الأخير عندما توقفت العربة فالتفت الحارس إلى ميمون وهمّ أن يقود العربة نحو المدق المؤدي إلى بيوت القرية لكن ميمون اعترض بشدة فنزل أبو شجاع وهو يمسك سيفه ..

- نصحبك لبيت أخيك يا شيخ ميمون ..

- لا .. فالبيت ليس بعيدا .. ها هي مئذنة المسجد في أول الشارع الذي يسكن فيه أخي منقذ ..

- ألا تريدنا معك ؟

- أشكركما وأخشى أن أقول تفضلا فسفركما ما زال طويلا ..

- إذن نلقاك على خير يا عم ميمون ..

يهم الحارس في قيادة العربة فيستوقفهما بجدية مقدما لهما ما تبقى من الخبز والجبن والسمك فتمنّعا ولكن ميمون أصرّ على إعطائهما الطعام معللا ذلك بأنهما سيحتاجان الزاد في رحلتهما الطويلة أما هو فقد وصل لبيت أخيه ولن يحتاجه واستبقى معه المخلاة الفارغة وقربة الماء فشكراه على الطعام ولسع الحارس مؤخرة البغل الذي استجاب للضربة وانطلق في المدق الترابي حتى انعطفت العربة و لم ينتظرها ميمون لتغيب عن ناظريه فولاها ظهره وبدأت خطواته تدب نحو البيوت وكلما تقدّم زكمت أنفه رائحة الأرض اليابسة التي تتشقق من تحت خفه ..

جال بعينيه فرأى الغروب يتمطّى بظلاله الحمراء على الغيطان الخاوية من أي خضرة فأوجس في نفسه خيفة ولكنه أقنع نفسه أنه وصل بعد موسم الحصاد والفلاحون يستعدون لحراثة الأرض وتهيئتها للزراعة فابتلع ريقه وخطا نحو البيوت الواطئة فمر بالساقية الساكنة فرأى القواديس الفارغة يغطيها التراب وعريشة العنب اليابسة تكسرت أغصانها ونثرتها الريح حول الساقية .. تجاورها خلايا النحل الطينية وقد تهشمت وتبعثر الشمع الناشف حولها أما النخلات المتناثرة عجفت وتدلى جريدها الكالح والعراجين الميتة ملقاة هنا وهناك وعلى البُعد الشادوف المنصوب على حافة الترعة الجدباء يطيح الهواء الخفيف حبله الليفي والدلو ملقى بجانبه ..

يتلفت عله يستأنس بكلب شارد لكنه يجد كل ما حوله خاليا من أنفاس حياة فيستمر في تقدمه وبقي أن يتخطى مجرى الماء الذي جف وغطته الحشائش الصفراء الميته ليكون في مواجهة المسجد وبعده ببيتين دار أخيه منقذ أمامه ثلاث أشجار من السنط .. يتذكرها جيدا منذ آخر مرة زاره فيها من عشر سنوات ..

*

خليل البستاني فلاح الجنوب الذي كان يأتي إلى القاهرة بعد مدخول المحصول فيشتري منه عمال الوزير أبي محمد اليازوري معظم ما لديه من غلال وتُخزن في مخازن ضخمة وما يتبقى لدى خليل يبيعه في أسواق القاهرة و في إحدى مرات مجيئه هو وباقي مزارعي و تجار الغلال نزل ضيفا لدى صادق الوراق وكانت تربطهما صداقة منذ مقايضتهما الغلال بالورق الذي يحتاجه في حساب محصوله واصطحب خليل البستاني في هذه المرة زوجته وابنته ليزورا القاهرة ويشتروا ما يحتاجونه من ملابس و نعال وأقمشة فاخرة وطلب صادق الوراق من خليل يد ابنته عائشة لابنه الأكبر منقذ الذي كان يعمل في مخازن غلال الوزير اليازوري فوافق خليل البستاني لكنه اشترط أن يعيش معه منقذ ليعاونه في زراعة أرضه بأطفيح وبعد أن مات ورثت عائشة ابنته الوحيدة أرض أبيها ومنذ ذلك الحين التصق منقذ بالحياة في أطفيح ويعود في مواسم مدخول الغلال بالخير لأخويه الأصغرين زيدان وميمون الوراق .

من بين تلافيف ذاكرته تدفقت هذه الخواطر وهو يقف أمام المسجد الصغير فمد بصره من بابه الموارب ثم تجاسرت يده وزق الضلفة التي أصدرت صريرا ممطوطا قبل أن تستقر فرأى باحة المسجد خاوية والتراب يغطي حصرها المفروشة فازدرد ريقه وتراجع .. يرفع عينيه فيرى أبراج الحمام المقببة تشمخ بفتحاتها المظلمة ..

يضيق صدره وهو يسير فيتخطى أول بيت قبل بيت أخيه فتزكم أنفه تلك الرائحة التي يشمها عندما يسير بين المقابر.. يمضي متخطيا باب وشباك البيت الثاني .. يتوقف وكأنه يسمع شيئا وتتنصّت أذناه فيجيبه رنين الصمت المطبق على المكان .. يصل إلى أول شجرة سنط عجفاء بعدها باب البيت .. يقف أمامه .. بكفه يخبط .. يرفع صوته بالمناداة .. ينتابه قلق ممزوج بالغضب وخيبة الأمل .. يزيح الباب فيجده مفتوحا .. يتراجع للخلف فيتسرب ضوء شحيح لينير مجاز البيت الفارغ ..

- يا منقذ .. يا أبا صادق ..

يجيبه صدى صوته ويضرب كفا بكف فترن الطرقعات في خواء المطرح .. يتلفت يمينا ويسارا فيجد الظلام ينسج شباكه على الشارع الضيق .. يجد الأمان في أن يدخل بيت أخيه .. يخطو للداخل فتطالعه حجرة الضيوف كما هي منذ أن رآها من عشرة أعوام بلا باب والسرير الجريدي في وسطها .. دارت عيناه في الحجرة الخاوية إلا من أحرمة مطبقة وحشايا ملقاة هنا وهناك ..

يتمشى قاطعا المجاز إلى صحن البيت .. الغرف أبوابها مفتوحة وتزداد تلك الرائحة كلما تقدم نحو الحوش الذي يستره باب خشبي كبير .. على يمين باب الحوش التفت إلى حجرة الخزين فيلحظ القرب الناشفة مبعثرة وبلاليص الجبن فارغة ومقلوبة ورائحة المش الجاف تفوح منها والذباب يحوم حول الفتحات العفنة والجرار خاوية من الزيت ومشنة الخبز ملقاة والفأر يرفع هامته منها ..

يراوده إحساس بفراغ البيت من أخيه وزوجته وأولاده فترتعش شفتاه والدمعة تتحجّر في عينه وود لو أنه سمع نصيحة الشيخ رادع الكتامي وبقي في درب الريحان مسلما أمره لله والكارثة الأكبر هي كيف سيعود إلى القاهرة بمفرده وقد حضر برفقة جنديين قويين ألقت بهما الصدفة ليصطحباه في السفر ..
انفتاح باب الحوش يبدد غمائم الهواجس التي أطلت على ذهنه فأكملت يده فتح الباب وهو يهيئ عينيه لرؤية الجواميس والأبقار التي كان الحوش يزدحم بها منذ عشر سنوات والبئر في وسط االفناء تفيض بالماء والغنم ترعى في حظائرها ومن حين لآخر يلقي منقذ أمامها العيدان الخضراء وتحلب زوجته عائشة لبن الفطور ..
يشعر بحلقه جافا فيرفع القربة ويتواتر الماء على فمه إلى أن اعتصرها ليبلل شفتيه بما تبقى بها من قطرات .. يخطو لداخل الحوش وتجحظ عيناه للخراب الذي يضرب بأطنابه المطرح وتمر عيناه على الأواني الفارغة من التبن والعليق والأعلاف والأوتاد المدقوقة في الأرض حبالها الليفية الغليظة ملقاة كأفاع ميتة هنا وهناك أما البئر فقد اقترب منها ومال نحو فتحتها الموحشة فاستنشق رائحة بقايا الماء الغائض منها .. يسحب الحبل فيتناهى لمسامعه أصداء خبطات الدلو في جنبات البئر إلى أن يصل فيرى خيوط العنكبوت منسوجة على فتحته ..
تلفه دوامات من تساؤلات مفزعة مختلطة بالظلام الذي أطبق على الحوش عن مصير أخيه منقذ وأهل بيته أغادروا أطفيح مثلما فعل الكثيرون من أهل القاهرة عندما حل الجوع والوباء أم افترسهم المرض وماتوا أم .. أم ..
يظل ساكنا مغمض العينين وظهره إلى حائط البئر وطنين الندم يصم أذنيه ومرة أخرى يبرق وجه الشيخ رادع وكل أهل درب الريحان وود لو أنه بقي في الدرب المعزول والمغلق عليهم بعيدا عن الجياع والوباء مستأمنا بطعام المقدس يؤنس وماء بئر الشيخ رادع مستأنسا بقبر زوجته راضيا بالحياة مع الشيخ رادع وبخاصة بعد أن انحشر دخيل في الدرب بحجة شراء بيت عبد البر الغزال والذي لم يسعف ميمون الوقت ليتأكد من صدق عقد البيع .. يهز رأسه ويقرر تدبير أمر عودته التي لم يفكر فيها وهو يغمغم ..
- كيف سأعود وبم سأعود ؟
يستطيل أمد مكوثه في الحوش ولكنه حزم أمره وهو يمسح دمعة تعرجت على خده ..
- الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. فإن أراد الله لي العودة سأرجع وإلا فلن أكون أحسن حالا من عالية والحسن وزيدان أو حتى فاتك الذي مات غرقا في النهر ..
يائسا يستدير لليمين فيثبت مكانه متخشبا وتجحظ عيناه ويتدلى فكه .. تنفرط ذراعه فتسقط المخلاة والقربة منها وهو يرسل نظراته إلى تلك الأكوام بجوار الجدار بعدها مصطبة صغيرة مبنية بالطوب المملوط بالطين المتشقق تجاورها مصطبة أصغر منها

يريد ميمون أن يتكلم فتذوب الحروف من بين شفتيه ويشعر وكأن الدماء انسحبت من وجهه فيتهالك جالسا أمام الشواهد الكائنة أمامه والتي لم يتنبه لوجودها إلا في تلك اللحظة ..
يظل واجما والدموع تتسابق على خديه وألقت هواجس الموت بسياجها السوداء على نفسه الثكلى فها هو آخر أمل له في الحياة والذي رحل من أجله يسكن بطن الأرض ..
- أخي منقذ .. جئت لأطمئن عليك وأجد فيك عوضا عن ابني وزوجتي وأخينا زيدان أجدك مقبورا في بيتك ..
يتردد صدى بكاء ميمون في جنبات الحوش إلى أن انتابته رعشة فرفع رأسه إلى السماء فوجد القمر التم يرسل أشعته الهادئة فتمددت ظلال القبور الأربعة أمام مقلتيه الذاهلتين .. يمسح دموعه مقررا العودة ويراوده إحساس قوي برجوع أخيه زيدان فيروي له ما رآه ومصير أخيهما منقذ ..
- منقذ يا زيدان .. يسكن باطن الأرض التي راهنت على خيرها عندما أقنعتني بالرحيل إليه ..
يقف ميمون ويمسح خده ويرفع كفيه إلى السماء وشفتاه المختلجتان تتمتمان بالفواتح والصمدية ويمسح على وجهه .. يرفع المخلاة والقربة و يثبتهما على كتفه .. تراجع خطوتين دون أن يوليهم ظهره وعند الباب ألقى عليهم نظرات الترحم والوداع ثم أغلق باب الحوش ويسير متخطيا المجاز المعتم إلى أن خرج من باب البيت مالئا رئتيه بهواء المساء المضمخ برائحة الوحدة ..
يقف أمام الباب المغلق فتهب ريح الخواء تنبئه بخلو البلدة من ساكنيها فقرر تدبُر أمر الطريق فثبت المخلاة والقربة الفارغتين وتحسس الخنجر ومقبض الساطور على جنبه .. ألقى نظرة على المدق فرأى ضوء القمر ينير الدرب المؤدي إلى خارج القرية فاستدار وتراجع فجأة حتى التصق ظهره بجدار البيت وابتلع ريقه وهو يشخص بعينيه للكائن الماثل أمامه .. يتمالك نفسه ويخرج صوته متلعثما ..
- من أنت ؟

***

كلاهما يتفحّص الآخر فمرّ ميمون على رأسه الحاسر وشعره الأسود المختلط بالبياض وجبهته العريضة وخديه المغضنين وأنفه المقوس ونزل بعينيه إلى صدره بعظامه البارزة من بين ملابسه الرثة وبطنه الضامر وأخيرا ساقيه الثابتتين كمسمارين ..

يخفق قلب ميمون وترتجف روحه وتزداد رغبته في البكاء لليد المتربة التي تمتد له ويفرد كفه مسلما ..

- مرحبا .. أنا مالك ..

لم تنبس شفتا ميمون بكلمة وشعر برعشة للصوت الرفيع والذراع الممتدة .. يريد أن يبلل حلقه الجاف لكن الريق غادر فمه فمد يده مسلما ولم يلبث أن سحبها في سرعة فتتوقف رئتاه عن سحب الهواء ويسكن قلبه .. يوقن أنه أمام ملك الموت الذي جاءه على هذه الهيئة ليقبض روحه في هذا المكان الموحش وأنها النهاية بعيدا عن الدرب وأهله فشعر بارتخاء ساقيه وهبوط روحه التي وقعت في مهب الظنون فأغمض عينيه مستسلما ونطق الشهادتين واستعد لرحلة الآخرة التي لم يحسب لها حساب ..

- رأيتك تخرج من بيت منقذ .. أنت أخوه ؟

تباعدت رموش ميمون وتسارعت دقات قلبه واحتقن الدمع بعينيه وتارة أخرى تفرّس في وجه الرجل فرأى الطيبة تنضح من بين قسماته فتمالك روحه المهلهلة وهو يجيب :

- نعم .. أنا ميمون أخو منقذ .. وأنت ؟

- مالك ..

يستنفر ميمون أنفاسه العميقة و داخله شعور بالاستئناس لمقابلة إنسان في القرية التي ظن أنها أرض للموتى فمسح العرق من رقبته وهو يزفر..

- ماذا حدث لهم يا مالك ؟

يهز مالك كتفيه ويجيب في بساطة ..

- ماتوا .. الوباء حصدهم .

يطرق ميمون وهو يهز رأسه في أسف ..

- رأيت في الحوش مصطبة و..

يقاطعه مالك ..

- هي لزوجة أخيك .. عائشة وقد قمت أنا وأخوك منقذ بدفنها ..

ينتفض ميمون وتتجاسر يداه فيهز كتفي مالك وهو يجأر بصوته ..

- ومنقذ أخي ؟

- بعد أن مات ابنه صادق وابنته صفية دفنهما وبنينا المصطبة الثانية وبعدها بأيام أصيب منقذ بالطاعون و برغم حرارته وألمه حفر قبره بنفسه وفي صباح أحد الأيام وجدته ممددا داخل القبر فدفنته وأقمت عليه كومة الطوب ..
ينهار ميمون جالسا وهو يسند رأسه بكفيه ويهزها ثم يقف أمام مالك..
- و متى مات أخي ؟
- منذ ثلاثة أيام ..
- آه يا منقذ .. كنت نفسي أحضنك وأودعك ..
- يا أخي .. إكرام الميت حضن أمه الأرض وصدقني حظه أحسن من كثيرين لم نعرف بموتهم إلا من رائحتهم ..
يتعجب ميمون من كلام مالك الموزون الذي خاف منه أول الأمر فأغمض عينيه والندم يعصر نفسه وطفق يلومها على عدم الإسراع بالرحيل إلى منقذ ولم يشعر إلا بيد مالك التي تقبض على معصمه آمرا إياه ..
- تعال معي ..
- إلى أين ؟
- إلى أختي فإنها تنتظرني ..
- أختك ؟
- لم يبق في البلد إلا أنا وهي ..
حمل ميمون المخلاة والقربة .. يرفع رأسه إلى السماء المظلمة ثم خفض عينيه إلى الدرب ومن بعيد أبصر الساقية التي يلفها الظلام كشبح يفغر فاه فاستحسن فكرة البقاء للصباح وسار خلف مالك الذي اعتبره المنقذ له من شرور الرحيل ليلا .. يظل يتبعه حتى نهاية الشارع الذي يزداد إظلاما كلما أوغلا فيه حتى وصلا إلى سقيفة منخفضة تحتها باب خشبي صغير فدعاه مالك للقعود على المصطبة المجاورة للباب ..
- اجلس حتى أخبرها ..
يغيب داخل البيت فيجلس ميمون ويشعر بتعب رجليه وبرغبة عميقة في النوم الذي لم يذقه منذ أن غادر درب الريحان ولم ينقض وقت طويل حتى سمع أزيز الباب ومالك يخرج منه ويدعوه للدخول .

*

يقف أمامها وعلى اليمين يجاوره مالك والمصباح الزيتي خلفها ينير البقعة التي تتربع فيها السيدة .. ران عليهم صمت حتى حسبه ميمون أنه لن ينتهي فقطعه بأن تفرّس في هيئة السيدة الوقورة الجالسة على كرسي من الخشب له ظهر من حشية عريضة .. استدارة وجهها تحده التلفيعة التي تخفي شعر رأسها .. حاجباها رفيعان يحدان جفنين عظيمين .. عيناها حادتان والبؤبؤ الرائق ينبئ عن استكانة وهدوء فرأى فيهما طيبة

وعفاف .. أنفها نازل في استقامة تزين آخره شفتان مكتنزتان أسفلهما الذقن المدبب وقد بهت الوشم المنحوت في وسطه .. العباءة السوداء تلف الجسم الممتلئ فلا تظهر إلا يدها الممسكة بعصا رفيعة ..

البيت ذو طراوة أحسّها ميمون منذ وقوفه أمام السيدة فانتعشت رئتاه وظل مستجيرا بالصمت حتى رآها تبتلع ريقها وتنفرج شفتاها العقيقية عن صوت ناعم رصين ..

- أخو منقذ ؟

- نعم ..

- زيدان ؟

- ميمون يا سيدتي ..

- الورّاق ..

دهش من معرفة العجوز له ولزيدان فهزّ رأسه ومرة أخرى تظللهم سحابة الصمت تبددها بالالتفات إلى مالك ..

- انتهيت من دفنه ؟

- حفرت القبر ثم قابلت الشيخ ميمون .. وسأعود الآن لأدفنه ..

ينسحب مالك للوراء ويخرج من الغرفة تاركا ميمون واقفا أمام السيدة وتمنّى أن يتبع مالك لكنه وجد في نفسه الجرأة ليسأل السيدة ..

- يدفن من ؟

تفرد السيدة كفها لميمون إشارة لأن يجلس فاستجابت ساقاه وجلس متربعا أمامها وشعر براحة فارتخت عضلاته وقدمت له السيدة القلة فجرع الماء في دفقات كبيرة حتى ارتوى وما إن ينزلها إلا وتقدم له طبق مملوء بالبلح فتناول بلحة كبيرة واستطاب حلاوتها فثبتت السيدة عينيها في عينيه وهم أن يكرر سؤاله لكنها أجابت ..

- ذهب مالك ليدفن الحسن بن مسعود ..

يرن اسم الحسن في أذن ميمون فنكأ جرحه .. يتوقف عن مضغ البلح ووهج وجه ابنه أمامه فأطرق رأسه وسمعها تتمتم ..

- الموت علينا حق ..

يرفع رأسه ليطالعه وجهها الرائق الذي كلما نظر إليه رأى فيه جمالا لم يلحظه من قبل ودار بخلده أن يسألها عن نفسها لكنها مالت برأسها إلى الأمام وهي تجيب عن خواطر نفسه ..

- أنا مريم .. خالة زوجة أخيك منقذ ..

- وأخي منقذ وزوجته عائشة وابنه صادق وأخته .. ماذا حدث لهم ؟

تلتقط نفسا هادئا وهي ترفع هامتها ..

- أخوك منقذ رجل شهم عاش طوال عمره يحفظ جميل خليل البستاني ومات شريفا لم يتخل عن البلد أبدا ولم يرد فقيرا أو طالب صدقة عن بابه ..
- كان معنا كذلك وغرقنا بخيره ولكن انقطعت أخباره منذ نقصان النيل ..
- معظم أهل أطفيح هجروا أرضهم ورحلوا إلى الجنوب بحثا عن الماء إلا هو وقلة من الشرفاء الذين رفضوا ترك الأرض للخراب فبقي إلى آخر نفس يجاهد ..
- يجاهد ؟!؟
- في نقل الماء من النهر وحفر البئر وزراعة الأرض وأخيرا عندما هجم الطاعون كان أول إنسان يستر من يموت إلى أن ماتت زوجته ابنة أختي ..
- أخبرني مالك بما حدث ونحن في الطريق ..
- الله يرحمهم جميعا ..
- نعم يا أمي .. يرحمنا ربنا ..
- وأنت ؟ هل أتيت لتأخذ أخاك وأسرته إلى القاهرة ؟
يطرق ميمون ويهز رأسه في أسف وهو يجيب ..
- لا يا سيدتي الكريمة .. فقد مات أخي زيدان وابنه وماتت زوجتي وابني الحسن ولم يبق لي غير أخي منقذ فجئت أطمئن عليه وأعيش معه ..
- تحملت مشاق السفر و خطر الطريق من أجل الاطمئنان على أخيك و أولاده ؟
- حتى لو كان في آخر الدنيا ..
تتكسر الحروف من بين شفتي ميمون وهو يغالب ارتعاشات وجهه فتمد السيدة أصابعها مشيرة ..
- أكمل طعامك ؟
- أشكرك فقد أكلت ما يكفي ..
تزيغ عيناه يريد أن يلقي بنوى التمر فتأمره ..
- احتفظ بالنوى و ازرعه فإن بعد العسر يسرا وسيأتي عام فيه يغاث الناس ..
يضع ميمون النوى في المخلاة ويهم بالوقوف وهو يقول للسيدة ..
- ولكنني سأعود ..
- تعود ؟ الناس هجرت القاهرة هربا من الجوع والوباء وتريد أن تعود ؟
- نعم .. ما دام قد ستر الله أخي دنيا وآخره فيجب أن أعود فلي صديق أعتبره كأبي تركته في درب الريحان يحتاج لرعايتي وحمايتي ..
يرتفع حاجبا السيدة مريم وتفتر شفتاها عن ابتسامة هادئة تفجر جمال وجهها الذاهب وتهز رأسها في هدوء ..
- تماما كأخيك .. استرح الليلة وغدا نتدبر أمر عودتك ..

لم تكد تكمل عبارتها حتى انتفض وجه ميمون وتخشبت قسماته لرؤية الحنش الزاحف خلف كرسي السيدة .. ارتعشت أصابعه وهو يدس يده داخل ملابسه فيقبض على خنجر الشيخ رادع .. يسحبه في اللحظة التي تنتصب فيها رأس الثعبان العظيمة ويخرج لسانه المشقوق ليهجم على ظهر السيدة التي ذهلت مقلتاها ليد ميمون التي ارتفعت وكسهم مرق الخنجر أعلى رأس مريم ليخترق رأس الثعبان وينغرز في الجدار لكنه يتلوى ضاربا بذيله الطويل ظهر الكرسي والسيدة في مكانها لا تتحرك فيسحب ميمون الساطور وتتسابق خطواته ويهوي به فيشق الرأس نصفين وذيله الثائر يصفع وجه ميمون الذي توالت ضرباته إلى أن همدت حركة الحنش تماما ..

يرفع رأسه فإذا بوجه مريم المضطرب يلتفت إليه فاستدار ميمون وسار ليقف قبالتها ويده على عينه وهنا أقبل عليهما مالك ورأى الثعبان المهشمة رأسه خلف كرسي أخته وبجسارة سحب ذيله وجره أمامهم ثم التفت إلى ميمون واقترب منه وباعد بين كفه وعينه وهو يقول ..

- إصابة بسيطة إن شاء الله ..

فرفعت إليه السيدة وجهها وأمرته بصوتها الرنان ..

- خذ ميمون ليغسل وجهه و يستريح ..

يسير ميمون خلفه تاركا القربة والمخلاة وقرب باب البيت يهم مالك أن يفتح باب الغرفة لكن ميمون يطبطب على كتفه و يبدو عليه التوتر..

- أستأذنك في قضاء حاجتي ..

يشير مالك إلى باب خشبي صغير مغلق يقابل باب غرفة الضيافة وتعجب ميمون من وجود الكنيف في هذا المكان فعادة ما يكون أسفل السلم أو آخر البيت ..

يدخل مالك الرواق تاركا ميمون أمام الحمّام فأزاح الباب وتهيأت أنفه للرائحة الزنخة .. خطا للداخل واندهش للغرفة المربعة في اتساع ولفت نظره الضوء المنبعث من مصباح زيتي مثبت في مشكاة بأعلى الباب وأيضا لم يشم أي رائحة تنبئ بأنه في محل قضاء الحاجة وأرجع ذلك للفتحات المثلثة أعلى الجدار لتسمح بتيار الهواء المتجدد داخل الكنيف ..

رأى زيرين متجاورين والبخار يتصاعد من أحدهما .. يدس يده ثم ينتشلها بسرعة وطفق يسكب من الماء البارد على الحامي ثم غسل وجهه ولم يلبث أن تحرر من ملابسه وأهال الماء على كل جسمه فأذاب الماء الفاتر عناء الساعات الفائتة .. ينشف جسمه ويرتدي قميصه ويخرج .. يدخل غرفة الضيوف فيسمع صفير أنفاس مالك الذي يغط في نوم عميق وشعر بامتنان لهذا الرجل الذي فكر في استحمامه .. أراد أن يرتدي ملابسه لكنه شم منها رائحة العرق .. يلقيها على جنب ويتهالك على مرتبة سميكة واضعا رأسه على وسادة عريضة .. يتحسس إصابه عينه فشعر بألمها الخفيف .. يدب

الارتخاء بين أوصاله وعضلاته فانتظمت أنفاسه و لفت رأسه نسمة هواء منبعثة من كوة أعلى الباب فاستطاب الراحة بعد طول عناء .. تهاجمه جحافل النوم فيشعر كأن غمائم من ظلام تزحف متباطئة من أسفل قدميه حتى اجتاحت كل جسمه وأخيرا يصل دبيبها إلى رأسه الثقيل وتطبق على عينيه الناعستين .

***

شعاع الشمس النافذ من كوة الجدار يداعب وجهه فصحا وهو يتهيأ للقاء الشيخ رادع الكتامي ويقرأ الفاتحة على قبر عالية ويكمل يومه في تحسس أخبار القاهرة وطاعونها الذي فتك بأهلها لكن انفراجة جفنيه جعلته يحدق في الغرفة الغريبة التي يستلقي فيها فنهض وهو يفرك عينيه وأيقن حقيقة وجوده في بيت مالك وأخته مريم بأطفيح التي جاءها ليبحث عن أخيه منقذ فوجد الثرى واراه هو وعائلته واستضافته السيدة الكريمة لحين تدبر أمر عودته إلى القاهرة ..

نهض جالسا وظهره للجدار .. ووهج الثعبان أمام عينيه فتواترت معركته التي قضى فيها عليه .. يتلفت بحثا عن ملابسه فلم يجدها .. يقف متثاقلا وقبل أن يخطو خارجا من الغرفة يطالعه وجه مالك بعينيه الجاحظتين ويحادثه بصوته الرفيع ..

- نمت جيدا ..

- الحمد لله .

- إلى الحمام .. وأعتذر لأني لم أجهز لك الحمام أمس ..

يثبت ميمون عينيه في وجه مالك الهادئ ثم يردف ..

- لكن ما عندي ملابس .

يمد مالك يده بسروال وقميص خفيف فيتناولهما ميمون ويسير خلفه وبدون أن يتكلم يمد يده إلى الحمام ويذهب .. يدخل ميمون مغلقا خلفه الباب وأول ما يطالعه وجود ماء قليل بالزيرين فتعجب وهمّ أن يخرج ليسأل مالك عن الماء فوجده ما يزال واقفا .. تتسع ابتسامته وهو يشير ..

- هنا في الأعلى خزان نملأه بالماء والقادوس المخرم أسفله فإن سحبت قطعة الخشب ينزل الماء من فتحاته ..

يهز ميمون رأسه مندهشا مما يسمع ويرى .. يرفع عينيه لأعلى ليطالعه سقف الحمام الواطئ والقادوس الفخاري ذو الفتحات يتدلى منه .. وضع السروال والقميص على المشجب ونشط في خلع ملابسه .. بأصابع مستطلعة يسحب قطعة الخشب فانثال الماء البارد المعبق برائحة النعناع عبر فتحات القادوس ليغمر كل جسمه واستطاب الحموم حتى دندنت روحه بلحن الرضا فلم يكن يتصوّر بعد وصوله إلى هذه القرية الخربة أنه سيجد فيها أيضا ما يريحه ..

يظل الماء ينزل وتمنّى ألا ينتهي حتى بدأ يقل فأفاق على انتهائه .. استنشق نفسا عميقا وفتح عينيه المغمضتين .. سحب المنشفة ونشّف جسمه المبلل وارتدى السروال والقميص النظيفين .. يخرج واضعا المنشفة على شعره الذي ينقط الماء ..

دخل الغرفة فوجد مالك يقف أمامه مبتسما ويمسك بقنينة زجاج صغيرة ففرد ميمون كفيه و سكب مالك القليل منها ومسح ميمون وجهه وهو يملأ رئتيه بروائح الأعطار التي لم يشمها من قبل .. يمد يده بالملابس النظيفة ويجيب على عيني ميمون الدهشتين
- غسلتهم قبل الشروق ونشرتهم وفي الصيف الملابس تنشف أسرع..
يرتدي ميمون العباءة ويربط النطاق حول وسطه .. ينتعل حذاءه الجلدي وهو يتهيأ للقاء سيدة البيت .. يسير مالك يتبعه ميمون حتى الغرفة الداخلية فوجد مريم جالسة مكانها وكأنها لم تغادره ولا أثر لجثة الثعبان فرحّبت به بابتسامة هادئة تزين وجهها الرائق وتحدثت بنبرة أرادت أن تجعلها صارمة ...
- أشكر لك حمايتك لي يا ميمون ..
لم ينطق ميمون فقدمت له السيدة الساطور فتناوله ميمون ووضعه داخل ملابسه وقبل أن يسأل عن الخنجر وجدها ترفعه أمامها متأملة وهي تهز رأسها متعجبة ..
- إنه خنجر صديقي ..
- الذي تريد أن ترحل لحمايته ..
- أتمنّى يا سيدتي لو أبقى معك طوال العمر ..
- عمرك ملك لمن ستعود إليهم .. لصديقك الذي تريد العودة إليه ؟
- الشيخ رادع الكتامي .. يحبني كابنه وأعتبره كأبي فقد شملني برعايته وعطفه من مطلع شبابي وهو رجل وقور وحكيم .. لا يختلف عنك سيدتي ..
يطرق ميمون أمام السيدة المهيبة ويكمل كلماته في هدوء ..
- أشكرك على ما فعلتموه بأخي وأهله ..
- يا ولدي كلنا لها وهم السابقون ونحن إن شاء الله اللاحقون .. على الأقل وجدوا من يسترهم .. ولولا مجيئك للحقت بهم ..
وجم ميمون وتلاقى حاجباه في تقطيب وخرجت الكلمات من بين شفتيه المزمومتين ..
- ربنا يسترك دنيا وآخره يا ست مريم والله لم أجد عندك غير الخير كل الخير ..
يتكلم مالك الصامت طوال الوقت ..
- تفضل الطعام ..
- وأنتما ؟
- نحن نفطر بعد الشروق مباشرة ..
يكسر ميمون الخبز الناشف ويتناول الجبن والبلح .. يظل يأكل في صمت إلى أن أنهى ما في الطبق فقدّم له مالك شرابا باردا فاستطعمه ميمون وقبل أن يسأل عنه أجابته مريم والابتسامة لا تفارق وجهها ..
- شراب التوت ..
يمسك ميمون بالكوب ونهض ليجلس على الكرسي المقابل للسيدة ..

- أنت إنسانة كريمة يا سيدتي ولو بقيت معك سأبقى لإكرامك ..
- وأنت رجل عظيم يا ميمون فالذي يرحل ويغامر بروحه للاطمئنان على أخيه لحمه ودمه ثم يعود لصديقه يكون أفضل الناس وأكرمهم ..
يتعجب ميمون من كلام السيدة التي تضفره في سلاسل من لباقة أعجب بها وهو الذي تخيل أول ما رآها أنها فلاحة .. تشير بإصبعها
- والآن يا ميمون .. استعد للعودة وهذا زادك ..
تنخفض عينا ميمون فيرى المخلاة مكتنزة بالبلح والقربة الصغيرة مملوءة بالماء فينهض أمامها ويمد يده مسلما ويفاجأ بمريم تنهض من مكانها وكجبل تفرد قامتها وتقترب منه حتى تقف قبالته فيبحلق في طولها وهو الذي تصوّر أنها لا تبرح أريكتها .. تباعد بين ذراعيها وكجناحي نسر تنفرد ملابسها الفضفاضة وتحضن ميمون فيغوص في سواد جلبابها .. يشعر بخده يلامس صدرها الناهد ويتنسّم عبق رائحتها الياسمينية .. تدور رأسه فيطفر وجه عالية والحسن وزيدان والشيخ رادع وكل أهل درب الريحان يدورون في فلك واحد ومرت حياته كأنها الطيف فيشعر أن سنوات عمره الفائتة حلم يوشك أن يصحو منه إلى حيوات أخرى مقدم على العيش فيها وأن الدنيا كلها تلفه بذراعيها فتاقت نفسه أن يبقى في دنيا مريم الحنون ما بقي له من عمر فأغمض عينيه برهة ولم يلبث أن فتحهما على ذراعيها القويتين تبعده في رفق وتطبع على جبينه قبلة أودعت فيها كل معاني العطف فوقف وعيناه لا تفارق وجهها الملائكي وعادت لجلستها ومدت يدها بمنديل كبير ..
- خذ هذا يا ميمون .. افرده على رأسك ..
تناول ميمون المنديل في اعتزاز ودسه داخل عباءته بجوار الساطور والخنجر وقبض على كفها واضعا فيه سبحة ..
- اقبليها مني .. إنها هدية من الشيخ رادع ..
تهز السيدة رأسها وتتدلى السبحة بين أصابعها فيرفع ميمون يده بالتحية ..
- أستودعك الله يا سيدتي .. لن أنساك ما حييت ..
طفرت من عينه دمعة تعرجت بين أخاديد وجهه الخمسيني فمسحها وتراجع حتى وصل إلى باب الغرفة فاستدار خارجا وآخر ما رآه يد مريم المرفوعة بالتحية .

***

(38)

يسير ميمون وأمامه مالك حتى وصل لبيت أخيه منقذ فوقف أمام الباب المغلق فهمس مالك في أذنه ..

- أتريد الدخول ؟

هز ميمون رأسه رافضا و فرد كفيه وهو يتمتم بصوت مرتعش وخرجت كلماته مخلوطة بدموع الفراق .. بكفيه يمسح وجهه .. يعتدل ويبدأ السير مارا بالجامع إلى أن انكشف الطريق الخارج من أطفيح فيعبر مجرى الماء المجدب وتودع عيناه الساقية الساكنة وعند المدق الترابي يتوقف وهو يمد يده إلى مالك ..

- اهتم بأختك .. إنها سيدة عظيمة ..

- وبها شيء لله والله يا شيخ ميمون لقد رأتك أختي في منامها . .

- رأتني أنا .. كيف ؟

- لست أنت بالذات ولكنها استيقظت يوما وأخبرتني أنها رأت غريبا جاء إلى هنا ودفع عنها الشر ورحل .

تجحظ عينا ميمون وهو يستمع لما قاله مالك وشعر برغبة ملحاحة في أن يعود ويبقى في كنف تلك السيدة الحنون يرعاها ويدفع عنها كل ثعابين الدنيا لكنه رأى مالكا يمد إليه يده ..

- مع السلامة يا ميمون وستجد من يرافقك إلى القاهرة ..

يفتح ميمون ذراعيه ويضم مالك إلى صدره ويطبع بين عينيه قبلة أودع فيها كل معاني الامتنان فدس مالك في نطاقه قنينة زجاجية صغيرة وابتسم لميمون الذي بادله الابتسام واستدار مستقبلا الطريق إلى أن انعطف يمينا ولوهلة التفت ليلقي نظرة أخيرة على مالك لكن عيناه اتسعتا لعدم وجوده فزاغت نظراته بحثا عنه فلم يظفر إلا بحفيف الأغصان العارية من الأوراق فألقى نظرة على بيوت القرية الغارقة في بحر من الصمت وهي تستقبل يومها الوليد وثبت عينيه على برج الحمام وفغر فاه دهشة للحمائم البيضاء التي تطير حول فتحاته العديدة ويتناهى لمسامعه رفيف أجنحتها فابتلع ريقه وعدل من وضع القربة والمخلاة المنفوخة ويهم في السير إلى أن لمح على مرمى البصر أشباحا تترامح مقبلة عليه في الطريق المتشابك فأيقن أنه سيلقاهم بعد قليل وعزم في قرارة نفسه أن ينتظر قدومهم ليدلوه إلي الطريق وجد في المشي حتى اقتربوا وظهرت معالم الركوبة الذي يمتطيها شاب وآخر يجر لجامها الرفيع ..

على قيد أمتار يتوقف ميمون لاهث الأنفاس حتى هدأت خطواتهم ونزل شاب أبيض الوجه من على الحمارة فألقى ميمون عليهما السلام وهو يتفرّس في وجهيهما وتعجّب من بياض وجه أحدهما وسمرة الآخر فبادأهما ..

- أنا ميمون الورّاق .. عائد إلى القاهرة .. وأنتما ؟
يتبادل الشابان النظرات وانتظر ميمون ردهما إلى أن هزّ الأبيض رأسه ..
- أنا مشرق وهذا أخي غارب وطريقنا هو طريقك ..
يتراقص قلب ميمون فرحا للرفقة الجديدة ويعلو صوته ..
- إلى القاهرة ؟!؟
يهز غارب رأسه ويدعو ميمون إلى ركوب الحمارة لكنه يعتذر بشدة مكتفيا بمرافقتهما التي أثلجت صدره لكن مشرق يؤكد لميمون ..
- أنا وأخي نتناوب ركوبها و لم نتعب والآن دورك ..
يذعن ميمون لإصرارهما فيساعده غارب على اعتلاء برذعة الحمارة الهادئة فيشد مشرق لجامها وغارب يسير من الخلف .. تتحرك في خفة لم يتوقعها ميمون من عجفاء اهترأ ظهرها من تبادل الركوب عليها فهز رأسه عاجبا وهو يحادث نفسه ..
- مشرق وغارب .. يا للأسماء الغريبة ! على كلٍ يجب ألا أطمئن لهما تماما فمن مأمنه يُؤتى الحذرُ كما كان يقولها لي دائما الشيخ رادع ..
تسرع خطوات الحمارة في حركة رتيبة فأغمض ميمون عينه اتقاء الشمس الساخنة وفتحهما فاندهش لرؤية غارب يقبض على لجام الحمارة والتفت ليجد مشرق في الخلف واحتار في أمر تبادلهما الأماكن وانقلبت حيرته رهبة عندما استعاد كلمات مالك وهو يودعه بأنه سيجد من يرافقه واختشع قلبه عندما راودته الهواجس وطفق يتمتم ..
- أيكون من قابلني بعد وصولي إلى أطفيح من الجن الذي سخره الله ليساعدني في العودة إلى القاهرة وأن القرية بأكملها حصدها الطاعون فمريم وأخوها مالك لم يأكلا معي والجن لا يأكل من طعام الإنسان وتلك الرائحة العطرية التي لم أشمها في حياتي وما تزال ترطب ثيابي ..
انفلت حبل خيالاته إلى أن نهايته قد تكون على يد هذين الغريبين وبحركة لا شعورية تقبض أصابعه على يد الساطور وامتدت إلى خنجر الشيخ رادع فاستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وعند تلاوته للمعوذتين تتعثر الحمارة في أحد فصوص الطين فيوشك ميمون على الوقوع لكن مشرق يساعده على استعادة توازنه وتشرع الحمارة في معاودة سيرها المنتظم وتارة أخرى يتعجب لمشرق الذي يقود الحمارة وغارب يعود للخلف فينقبض صدره ويبتلع ريقه في صعوبة و تصاعدت الغصّة حتى كادت أن تخنقه لكنه خضع لمصيره حتى رأى مشرق يسير في مدق آخر مبتعدا تماما عن الدرب الذي يتذكر بعضا من معالمه التي لحظها أثناء قدومه فيعلو صوته ..
- ليس هذا هو الطريق ..
يوقف مشرق الحمارة و يلتفت لميمون ولم يلبث أن اقترب منه ..
- سنسير في الطريق الصحراوي ..

يهلع قلب ميمون و يعلو صوته معترضا ..
- الصحراء .. لماذا ؟!؟
بدوره يواجهه غارب ..
- الصحراء أمان يا عمّنا وطريقها أقصر من دروب الوادي الذي يمتلئ بذئاب البشر ..
لم يجد ميمون بدا من الرضوخ لرغبتهما وأيضا لم يدهش من قيادة غارب للحمارة وتراجع مشرق و ظلوا سائرين إلى أن انقطعت الحياة من الوادي المقفر ولم ير ميمون سوى التلال البعيدة وكثبان الرمل تجاورها وجزع في قرارة نفسه من نوايا هذين الغريبين لكنه آثر الصمت و يتمتم في قرارة نفسه ..
" لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا " وأيقن أنهما ليسا من أهل الإنس فلم يبد عليهما التعب وتعجب من تعاقبهما على قيادة الدابة دونه فلم يطلب أحدهما منه تبادل الركوب فقرر أن يبدأ هو بذلك ..
- انتظر يا غارب ..
تتوقف الحمارة وينزل ميمون وهو يرمقهما بقلق ..
- دور أحدكما في الركوب .. فمنذ تقابلنا وأنا راكب والشمس تقترب من العصر ..
- لا عليك يا شيخ ميمون فلم نتعب ..
- لا .. فأحدكما يجب أن يركب ..
- إن كنت مصرا فلا بأس ولكن بعد أن نستريح ونتناول معا الطعام ..
رنت كلمة الطعام في أذن ميمون كالسحر و داخله شيء من الطمأنينة لتوجيه غارب الحمارة نحو صخرة كبيرة فجلسوا متقابلين في تجويفها وأخرج مشرق من بين ملابسه كيسا صغيرا فرده ليكشف عن خمسة أرغفة من الخبز الناشف لكن ميمون دس يده في المخلاة لتخرج بالبلح فتبادل غارب ومشرق نظرات السرور وطفقوا يأكلون ودقق ميمون نظراته في الشابين ..
- أنتما أخوان ؟
- نعم فقد ولدنا في ساعة واحدة ..
يطرد ميمون هواجس الخوف منهما بعد أن شاركاه الطعام وحمد الله أنه يرافق هذين الشابين الطيبين وتعجب من حكمتهما في السير في الصحراء الهادئة بعيدا عن النهر المجدب والجياع الذين يتصيدون الناس فيبتسم لهما ويهم بسؤالهما عن تغير لون البشرة لكن غارب يمد يده طالبا قربة الماء فيعطيها له ميمون .. يرفعها ليشرب وما إن ينزلها إلا و تنقبض سحنته السمراء الهادئة إلى فزع وشارك مشرق أخاه رعبه الذي ارتسم على وجهه الأبيض فقطب ميمون حاجبيه مستفسرا فأشار غارب إلى نقطة بعيدة في الصحراء .. يلتفت ميمون وتتسع عيناه للأفق المسيّج بسحب الغبار القادمة نحوهم وضربت الحيرة أسوارها حول روحه الفزعة لكنه رأى مشرق ينهض في

سرعة ويقرّب الحمارة نحو تجويف الصخرة وغارب يحرر البرذعة من على ظهرها .. يشد مشرق اللجام لينيخها أمام التجويف فتبرك الحمارة المطواعة على الأرض ويعقد غارب المربط بحافريها الأماميين ويعلو صوت مشرق بالأمروهو يرفع البرذعة أمامه ..

- اخف وجهك يا عم ميمون ..

يتعجب ميمون من كل ما يحدث حوله ويسأل غارب الذي يقترب من أخيه محتميا بظهر الحمارة وتجويف الصخرة ..

- أكل هذا خوفا من زوبعة رمال ؟

يضعان البرذعة على رأسيهما وينكمشان متلاصقين ويأتيه صوت أحدهما من تحت البرذعة ..

- ليست عاصفة رمال فقط يا رجل لكنه الجراااااااااد ..

يحدق ميمون في السحابة الصفراء ولم يلبث أن تتبين عيناه الكائنات الطائرة المقتربة في ضراوة فاحتار أيخفي رأسه بجوار مشرق وغارب أم يتكوّر على نفسه وهو يحمي وجهه .. يبتلع ريقه وهو يرى العاصفة قاب قوسين أو أدنى منهم فسحب المنديل الذي أعطته له مريم وفرده في سرعة وغطّى به وجهه ولف العباءة على كل جسمه وتكوّم بجوارهما وتهب العاصفة حولهم مصطدمه بأجسادهم المستحصنة بظهر الحمارة وتجويف الصخرة وتصم آذانهم خترشة الجراد الصائتة وضرباته على ظهورهم وظلوا متكورين حتى استطال أمد الهجمة الكاسحة وميمون يعاوده الحنق على فكرة طريق الصحراء ويحادث نفسه المهلهلة بأن المدقات على حافة النيل مهما تكن آمنة فلو نجوا من العواصف ربما تاهوا أو هلكت دابتهم فيموتون وتفترسهم ذئاب الصحراء وضباعها ويمسون مرعى للطرائش والحيات الجاسية في كل مكان فبلل شفتيه مستحلبا ريقه الممزوج بعرقه المالح وامتكث حتى تنتهي هبّة الريح الصرصر قابضا على حبال الصبر حتى شعر بالزوبعة تبتعد رويدا ولم يرفع رأسه إلا بعد أن همد الصوت فأحس برفيقيه يتلحلحان بجواره فرفع هامته في توجس وفك رباط المنديل فطالعه وجه مشرق المشرّب بالحُمرة يمسح العرق الناز من جبينه وغارب يتفل الرمال من فمه وعشرات الجراد الميت تتناثر بجوار الحمارة التي فتحت عينيها وحمحمت فرحة لانكشاف الغمة فتنفس مشرق بملء صدره وغارب ينفض شعر رأسه من حبات الرمال الملتصقة به ..

يحرر مشرق ساقي الحمارة من مربطها وينهضها غارب واضعا على ظهرها البرذعة ونهض ميمون ينفض الرمال من عباءته وألقى نظرة حانية على الحمارة التي أنقذتهم من هجمة عاصفة الجراد فطلب من غارب أن يفرد كفيه أمام مشفريها وسكب فيهما الماء وبلسانها الباهت لحسته وكررميمون صب الماء حتى استحثه غارب على

الركوب فركب وخطت الحمارة وحوافرها تنغرز في الرمال الناعمة وفرد مشرق كفه أمام عينيه ثم أشار إلى جهة معينة وظلوا سائرين وميمون يتعجّل الوصول والشمس في طريقها إلى الغروب .. يقتربون من بناء مهجور فانعطف مشرق نحوه وهو يقول لميمون ..
- نحن الآن بالقرب من حلوان .. سنستريح الليلة ونكمل في الصباح..
يصدع ميمون لرغبتهما في قضاء الليل في الصحراء ويتعجّب من سرعة غروب الشمس وهو يراقب شفقها الباهت ساجيا على ظهر الرمال ولم يلبث أن خفت النور حتى غطتهم قبة السماء المظلمة فتمدد بجوار رفيقي السفر وشعر بألم بين فخذيه فأرجع ذلك لركوب الحمارة المتواصل .. ظل يتقلب على جنبيه و رأى النجوم الساهرة تشاركه الأرق المضني وترسل له من حين لآخر نتفا من التماع ضوئها الهادئ ويتناهى لمسامعة من حين لآخر وعوعة الذئاب البعيدة فتعتصر أصابعه مقبض الساطور ..
تمر تلك الليلة بطيئة وميمون يغفو في قلق وهو يتحصن بالدعاء الهامس ويصبّر نفسه بقرب انفراج ضيقته حتى انتصر على وحش العزلة وضراوة الارتحال وانقضى الليل وهو يتسامع أنين الريح المحمّلة بالغبار و يتذكر أحداث رحلته حتى إذا ما ومض مالك استعسر عليه تذكر وجهه فاكتفى بوجه مريم الذي ملأ قلبه انشراحا وومض وجه الشيخ رادع وشعر بالحنين إلى أن يرتمي بين ذراعيه .. مرّ الفجر فانكفأت الذكريات داخله حتى زحف الضوء على الدنيا فنهض عندما أحس بحركة رفيقيه ينفضان التراب فثبت القربة والمخلاة على كتفه استعدادا لمواصلة العودة ..
تسير الحمارة وقرص الشمس يرتقي التلال في طريقه إلى البزوغ .. يقودها مشرق في طريق طويل انتهى بهم إلى حافة النيل ففرح ميمون وأيقن أن نهاية الرحلة وشيكة ..
ظلوا صامتين وفجأة رفع ميمون هامته وود لو وقف على ظهر الحمارة وهو يرى أبنية القاهرة العالية تتماوج مع السراب وكلما اقتربوا سمق قصر الخليفة حتى انعطفوا في الدرب المؤدي لمدخل القاهرة الجنوبي وتمنى ميمون أن تطير به الحمارة ليرتمي في حضن خليلة الجليل ويروي له كل ما مرّ به وشاهده في تلك الرحلة المثيرة ..
يوغلون في المدق الكبير وبدأت البيوت تتضح تحت شمس الصباح حتى دخل ركبهم الصغير القاهرة التي تتضوّع برائحة الموت فالتقطت أنف ميمون تلك الرائحة التي تسربت إلى رئتيه فلف المنديل حول أنفه وهو يتعجل الوصول إلى درب الريحان .

***

خمسة أيام انقضت منذ أن فارق ميمون القاهرة التي أصبحت من سبايا الموت إلا أنه وهو يسير في شوارعها الكبيرة فور عودته لحظ أنها ازدادت فراغا و كأن الوباء سحق المدينة بمطارقه الرهيبة وترك الجثث مرعى لأرتال النمل تفح روائحها العفنة في أفضية البلد التي أضحت أبنيتها أطلالا خالية من الحياة ..
يسير في أرض السوق ويتوقع أن تقع عيناه على أناس يبحثون عن أي شيء يقتاتون به إلا أنه فوجئ بثلة من الجند تلقي بالجثث في خندق كبير وابتعد ميمون حتى لا يرى النيران تلتهم الموتى كما رآهم عند خروجه من القاهرة إلا أن قائد الجند بنظراته الصارمة التي تظهر من خلف المنديل يأمرهم فيهيلون التراب في سرعة وميمون واجم أمام العشرات من الوجوه التي اختطف الموت منها بريق الحياة وهي تختفي تحت التراب..
تسرع خطواته المعوجة فما يزال الألم يهصر فخذيه .. يبتعد عن شارع السوق الكبير وفجأة طفر وجها مشرق وغارب اللذين رافقاه من أطفيح حتى أول السوق بالقاهرة ثم استأذناه في الانصراف وغابا عند أول منعطف وآخر ما لحظه أن غاربا ركب الحمارة ومشرق يشد مقودها واحتار في القدر الذي ألقى بهما في طريق عودته في الوقت الذي يفر فيه الناس رعبا من الجياع و الوباء الذي حصد بمنجله معظم أهل القاهرة وامتد تفكيره في مالك وأخته مريم الجميلة وتارة أخرى يراوده الشعور بأنهم جميعا ملائكة أو جن صالح أرسلهم الله لرعايته فهز رأسه وهو يتمتم ..
- ملائكة .. جن .. أذهب عقلك يا ميمون ؟!؟
يصل إلى أول الشارع الكبير وفي نهايته الشارع الجانبي وأحد روافده الصغيرة هو درب الريحان فجدّ في السير يتخطى الأشياء المهملة في كل مكان ويزداد عبق روائح العفونة وشعر ميمون برئتيه تكاد تنفجران واستحال سيره إلى هرولة حتى بانت فتحة الدرب فدلفها وسحب نفسا عميقا وهو يقف أمام بيت الشيخ عامر..
يقف أمام بيت عبد البر الغزّال فيعض شفتيه وهو يرى المغلاق الخشبي يوصده وتمنى أن يعيد لليهودي ما أخذه عبد البر ويخرجه من دربهم العزيز على نفسه .. يسير وقلبه مفعم بالحنين للقاء خليله العجوز وهمّ أن يقتحم عليه البيت ويرتمي بين ذراعيه لكنه شعر بثقل مثانته وجلبابه يتصاعد منه رائحة العرق ونعله الجلدي يطبق على قدميه فقرر أن يتحرر من ذلك كله ثم يذهب لبيت جاره ففتح باب بيته وسار في المجاز متخطيا مخزن الورق .. ألقى بالمخلاة من على عاتقه تجاورها القربة الفارغة .. خلع عباءته وركن الساطور .. يقلب خنجر الشيخ رادع .. يفرد المنديل الكبير ومن النطاق

سحب القنينة الصغيرة وابتسم لوجه مالك الضاحك الذي أعطاها له عند فراقهما .. يهز رأسه لذهاب هذا الوجه الذي انمحى من ذاكرته ..
يدخل الكنيف فينخلع صدره من رائحته التي لا تطاق وكأن جثة تعفنت داخله .. يخرج و الغصّة تتصاعد في حلقه لظلامه وقلة تهويته .. يسير إلى الداخل وعند صحن البيت وجم أمام القامة الممددة على الأرض ولفته دوامات الحيرة للجندي النائم ووجهه للجدار والسيف والخوذة مركونان جواره فشرع يتفرّس الجسد الساكن أمامه وهو يحادث نفسه القلقة من وجود غريب في البيت ..
- أيكون هذا الجندي عرف بمخزن الطعام فاحتل البيت أم أنه ينتظرني ليتقبّض عليّ .. أم ..
بإصبعه يحك ذقنه وهو يقترب مقررا إيقاظ هذا الضيف الغريب فمد يده وهزّ كتفه وإذا بالجندي يعتدل ويفتح عينيه ثم ينهض جالسا أمام ميمون الذي ألجمته المفاجأة لوجه أخيه المنحوت في هذا الشاب فحدّق كل منهما في عيني الآخر والتصق لسان ميمون بسقف حلقه وهو يغالب ارتعاشات شفتيه ..
- مصـ .. مصعب .. مصعب ابن أخي ..
- عمي ميمون ..
يتحاضنان ويشم ميمون رائحة زيدان فيقبّل وجه مصعب .. تنثال دموعه غزيرة وينخرط في بكاء محموم بالفرحة وهو يضم ابن أخيه حتى كاد أن يدخله بين ضلوع صدره .. يبعده في رفق وهو يكفكف دموعه ومصعب يقبل كف عمه فيربت على كتفه
- متى عدت يا ولدي ؟
- فجر اليوم وعندما ذهبت إلى البيت وجدته خرابا في خراب .. أين أبي يا عمي ؟ أين أخي فاتك ؟
يبتعد ميمون عن ابن أخيه وهو يمسح دموعه ويضرب كفا بكف .. يخرج صوته محزونا ..
- وأين زوجة عمك و ابن عمك الحسن الذي لم تره منذ أن كان رضيعا ؟
يهم مصعب أن يتكلم لكنه أحجم لانقباض وجه عمه ..
- بل وأين عمك منقذ وأهل بيته ؟ إنه الوباء يا ولدي .. وباء القحط الذي حصد الجميع
شعر مصعب أن عمه ميمون يهذي بكلامه فأطرق رأسه و هو يستعيد ما رآه من خراب القاهرة والفسطاط وكل البلدان التي مر بها وفاجأه ميمون بنهوضه ..
- أنت جائع ؟ يوجد ماء بالزير .. اغسل وجهك وسأعد لك الطعام ..
يتركه ويدخل غرفة النوم ورمق الزكيبة الصغيرة وسحب الطاولة الخشبية ووضع عليها الأرغفة الناشفة وأخرج قطع الجبن الباقية دفعة واحدة وحمل الطاولة إلى ابن أخيه الذي زامت معدته لرؤية الطعام ..

- كل يا مصعب و احك لي عن غيبتك ..
يتناول الطعام في شهية المحروم ..يشاركه ميمون والسعادة تغمره لابن أخيه الذي وجد فيه عوضا عن أهله الذين فقدهم ومن بين شفتيه يحدثه مصعب ..
- كنت في صقلية يا عمي و ..
تتسع عينا ميمون وهو يقاطعه ..
- صقلية ؟ يا لها من جزيرة رائعة خدمت فيها وأنا شاب قبل أن أتزوج وبها مسجد جميل شاركت في توسعته قديما ..
يتوقف مصعب عن المضغ و يرتسم الحزن على قسمات وجهه الجهمة ثم عاود ابتلاع الطعام إلى أن أنهيا كل ما في الطاولة وجرع ميمون الماء مقدما القلة لابن أخيه الذي أراح ظهره للجدار فنهض ميمون إلى الكنيف وأهال على رأسه ما تبقى من ماء الزير ونشف وجهه ووقف أمام مصعب ..
- هيا لنذهب إلى الشيخ رادع الكتامي فإني مشتاق لرؤيته ولولا مجيئك الغالي ما فكرت في أكل أو شرب ..
ينهض مصعب وهو يستند على الجدار ..
- وما أخبار زوج ابنته جواد ؟
- تعرفه ؟
- منذ أيام تدريبنا معا ..
يلحظ ميمون تقطيبا ملازما وعبوسا في وجه مصعب وأرجع ذلك لإجهاد السفر و لاختفاء أبيه وأخيه فربّت على كتفه وخرجا من البيت إلى الشيخ الكتامي فيقف ميمون هنيهة أمام باب الحوش ويقرأ الفاتحة ويرد على عيني ابن أخيه المستفهمتين ..
- زوجة عمك تسكن هنا ..
يقرع باب جاره فينفتح وكعادته يجلس الشيخ وبصوته الجهوري يسأل :
- من ؟
- شيخ رادع ..
ينتفض الشيخ السبعيني في قعدته ويهم بالوقوف فيرتمي ميمون في حضنه تسابقه الدموع ويلثم وجه جاره ويده ويتنسّم منه رائحة الأمان وذراعا الشيخ القويتان تضمانه بشدة .. يطبطب على كتفيه كمن وجد شيئا ثمينا ضاع منه ..
- ميمون .. حمدا لله على سلامتك ..
- كيف حالك يا أبي ؟
- بخير يا ولدي .. بخير ما دمت عدت ثانية وكيف حال أخيك منقذ ؟
يبتعد ميمون ويخفي وجهه بكفيه فيتسمّع الشيخ رادع صوت بكائه المكتوم فيزفر نفسا ساخنا وهو يطرق ..

- الوباء ..
يكفكف ميمون دموعه وهو يقبض على معصم ابن أخيه ..
- تصوّر يا شيخ رادع .. أفتح باب البيت وأفاجأ بمن ؟
- بأخيك زيدان ؟
- فيك الخير يا شيخنا .. بمصعب ابنه ..
يرتفع حاجبا الشيخ دهشة ..
- مصعب الغائب حضر .. الله يرحم أباك .. كان يتمنى أن يراك ..
يقبل جواد من الداخل وهو في كامل هيئته وما إن رأى مصعب حتى ترجّل لحظة ثم علا صوته ..
- مصعب ؟ لم أرك منذ أن خرجت مع الفيلق إلى الإسكندرية ..
يطرق مصعب فيقترب منه جواد ويضع كفيه على كتفيه في إعزاز فيستدير مصعب خارجا من البيت ويتبعه جواد ..
- لم أبق في الإسكندرية أكثر من سنة واحدة بعدها ركبنا البحر إلى صقلية وبقيت هناك إلى أن طردنا ولن نذهب مرة ثانية ..
- طردتم .. ماذا تقصد يا مصعب ؟
تدمع عينا الجندي المنهار ويلوذ بالصمت ويكرر جواد المصمودي عليه السؤال وحين همّ أن يتفوّه تراجع لخروج ميمون بجوار الشيخ الكتامي ..
- أما رحلة يا ميمون .. تصوّر يا جواد .. رحل ميمون مع الجنديين أبي شجاع والحارس وعاد مع شابين يدعيان مشرق وغارب ومن قابلهم عندما وصل أطفيح كان أعجب ..
يمد الشيخ رادع رأسه للأمام وهو يسأل ..
- ما لكم سكتم فجأة ؟
يستدير ميمون حول ابن أخيه ..
- ماذا حدث يا مصعب ؟ منذ أن رأيتك وأنت مهموم .. ارم أحمالك على الله وربنا يرحم الجميع ..
يطرق الشاب وترتعش شفتاه ..
- استولى النورمان على صقلية يا عم ميمون ..
ران على أربعتهم صمت ثقيل حتى قطعه الشيخ رادع بانهيار ساقيه وسقط وسطهم فالتفت الأيدي لتساعده على النهوض وخطوا نحو المصطبة أمام بيت ميمون وأجلسه جواد والشيخ يهذي ويتمتم بكلمات عبثية حتى جأر بصوته وهو يرفع عكازه لأعلى ..
- قم يا جوهر من قبرك .. بلدك سقطت في أيدي الفرنج .. ليت أذني صُمّت أو مت قبل أن أسمع بهذه الفجيعة ..

يهز ميمون كتف ابن أخيه بعنف ..
- متى حدث هذا يا مصعب ؟
لم يدع الشيخ رادع الفرصة لمصعب أن يجيب فرفع كفيه ووجهه إلى السماء وهو يهز رأسه ..
- يا لزمن الانهيار الذي تعيشه يا رادع ! ألهذا الحد تنهار دولتنا وتضيع أملاكها ؟ كيف ؟ كيف انتزع النورمان صقلية من أيديكم يا مصعب ؟
- هذا قصة طويلة يا عم رادع .. المهم .. بعد تسليمها بقينا أسابيع ثم حُشدنا إلى الإسكندرية وبقيت هناك أعاني المرض حتى شفيت ورجعت إلى القاهرة لأجدها ..
- حمدا لله على سلامتك يا ولدي .. لكم تمنّى أبوك أن يراك ..
- وماذا حدث له يا عمي ؟
- عندما انتوينا الرحيل إلى عمك منقذ .. ذهب للبحث عن أخيك فاتك ولم يرجع ..
- وفاتك ؟
- الله يرحمه ويرحمنا ..
- أستأذنكم يا جماعة فالقائد يطلبني ..
قالها جواد وهو يقبض على معصم مصعب ويسيران نحو فتحة الدرب تاركين ميمون والشيخ رادع معا وخارج الدرب ..
- ربنا يسهّل وتنفرج الشدة يا مصعب فالسماء أمطرت رذاذا ليلة أمس وأنا .. تكتم السر ؟
- لا تقل ذلك يا جواد فأنا وأنت من جنود الخليفة وسرك سري ..
يميل جواد على أذن مصعب ويهمس..
- أنا ذاهب في سريّة من جند الوزير ابن الفرج محمد بن جعفر ..
- الوزير جعفر المغربي ؟ لماذا وإلى أين ؟
- ذاهب برسالة إلى بدر الجمالي والي عكا يدعوه الخليفة المستنصر فيها للقدوم إلى مصر ليقلده الوزارة فالخليفة يعول عليه أملا كبيرا في إصلاح أحوال البلاد ..
يشرق وجه مصعب ويزداد انشراحا وهو يقبض على يد جواد ..
- وفقك الله يا جواد وسأنتظر عودتك في صحبة بدر الجمالي فيجب أن تنهض البلد من جديد وكفانا خسارة ..
- إن شاء الله يا مصعب ولكن حذار أن يعرف أحد بهذا الأمر وإلا أنت تعرف ما قد يدور بين الجند والسود والخليفة بينهم لا حول له ولا قوة ..
- أعلم يا صديقي ..

يفرد مصعب ذراعيه ويحضن جواد ولم يلبث أن يفترق عنه عندما يلمح جنديين مقبلين عليهما فيؤديان التحية لجواد ويصحباه تودعه عينا مصعب الدامعتان ثم يستدير عائدا للدرب حيث يجلس عمه ميمون بجوار الشيخ رادع الكتامي فيقف صامتا قبالتهما ..

- ومنذ متى ترك لاوي الدرب ؟

- بعد يوم من سفرك جاءني وعرض عليّ ترك البيت مقابل الدقيق لكن جواد رفع السيف في وجهه وهدده بأن يلزم بيت عبد البر الذي يدّعي أنه قايضه بالطعام أو يرحل

- أهذا هو يا عمي ؟

يلتفت الشيخ رادع في حدة ويدقق ميمون النظر في الرجل الواقف أمام البيت بأول الدرب .. ينهض ميمون ويسير وهو يقود الشيخ رادع ويتضح وجه الرجل فيجهر ميمون باسمه ..

- عبد البر ؟ حمدا لله على سلامتك ؟

بدون أن ينطق يفتح عبد البر ذراعيه ويعانق ميمون والشيخ رادع مرة واحدة وهو يجهش بالبكاء حتى هدأت نفسه فسأله الشيخ رادع ..

- بعت البيت لليهودي يا عبد البر ؟

- سامحني يا عم رادع فما إن خرجت من القاهرة في طريقي لأهل زوجتي حتى هاجمني اثنان من الجياع فتغلبت عليهما ولكن زوجتي جرحت فحملتها وظللت أسير حتى قابلني لاوي وضمّدت راحيل زوجته جرح زوجتي وعرض عليّ الدواء والدقيق مقابل حجة البيت هنا وأقنعني بعدم فائدة البيت ما دمت سأرحل فكتبت له عقد البيع وما إن سرت بضع خطوات حتى رأيته يقف مع من هاجمني وهو يضحك ويعطيهم الدنانير ..

- دبّر لذلك إذن ؟ آه هو و زوجته كانا طوال الشدة يستغلان الحاجة والعوز و يجمعان ذهب أهل القاهرة مقابل حفن الدقيق ..

- نعم يا ميمون .. لكني عدت ومعي ثمن الدقيق والدواء الذي خدعني بهما وسأسترد بيتي ..

يسحب مصعب السيف من غمده ويشهره أمامهم ..

- نعم يا عم عبد البر وأنا سأحميك وكفانا خسائر ..

- المهم أين هو ؟ أين لاوي لتعيد له نقوده ؟

- لا أعلم وسأنتظره مهما طال الزمن ؟

يحاول عبد البر زحزحة المغلاق لكنه يأبى أن يتحرك فيسحب مصعب بلطة من خلف ظهره ويهوي بها على القفل فينكسر ويفتح عبد البر باب بيته ويدعوهم للدخول لكنهم يعتذرون له داعين له بألا يفقده مرة أخرى ..

عندما يستديرون عائدين يستوقفهم ظهور لاوي المفاجئ من فتحة الدرب فيسحب عبد البر كيس الدنانير ويلقيه في وجه لاوي ..

- أحسنت أن جئت الآن .. هذه الدنانير ثمن الطعام والدواء .. هيا.. أعطني عقد البيت

بيد معروقة يلتقط لاوي كيس النقود من على الأرض وبنفس متلهفة يخبئه داخل ملابسه ثم يزر عينيه ويمسح لحيته الرفيعة ..

- لكنك بعته لي يا حبيبي ..

- والآن ثمنه معك .. هيا .. هات العقد وإلا سألوي عنقك ..

- العقد ليس معي .. إنه في البيت الثاني ولكني لا أنوي الرجوع في البيع ..

يتقدّم مصعب منهما ولا تزال يده تقبض على البلطة فيتراجع لاوي ويخرج صوته مفعما بالمسكنة ..

- حسنا .. سأذهب الآن وأعود لك بالعقد ولا داعي للعنف فأنا مسكين كما تروني ..

يرفع مصعب البلطة ثم يعيدها لجرابها خلف ظهره فيسرع لاوي بالخروج من الدرب وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة ..

يدخل عبد البر البيت ويغلق خلفه الباب .. يقود ميمون الشيخ رادع لبيته حتى يقف أمام الباب فيلمح سحنته الموسومة بالحزن ..

- أخشى يا ميمون أن يأتي أحد أبناء أو أحفاد لاوي ومعه حجة البيع ويطالب ببيت عبد البر..

- لا تخف يا شيخ رادع وإن حدث سنقف كلنا بجوار الحق فعبد البر أعاد النقود إلى لاوي ..

- لكن العقد ما زال معه وأشد ما أخشى ألا يعود الآن ..

- يعود أو لا يعود المهم البيت ليس بيته .

***

(40)

يخرج ميمون لتوه من الحمّام ينثال الماء من شعره المبلول فيسحب المنشفة ويغطي بها رأسه .. ينظر إلى الكنيف الذي اختفت منه رائحته الزنخة ويرفع وجهه فيبتسم للقادوس الفخاري المعلق أسفل سقف الحمام والماء ما زال ينقط من فتحاته الكثيرة والمصباح الزيتي ينيره والفتحات المثلثة أعلى الباب تجدد الهواء ..

ينهي تنشيف شعره و من القنينة الصغيرة يسكب القليل من العطر ويمسح وجهه وبرق وجه مالك الذي أعطاه تلك الرائحة الطيبة فهنئت نفسه لتذكره .. يكمل ارتداء ملابسه ويضع على رأسه المنديل الذي أهدته إياه مريم ويخرج من البيت إلى حوش الشيخ رادع .. يفتحه ويخطو مقتربا من قبر عالية فيتمتم بالدعاء ويستدير إلى البئر فيسحب الحبل ليخرج الدلو.. يرفعه ليشرب فاستعذب الماء البارد ويحمله ليسقي النخلات الصغيرة التي انبثقت بجوار البئر وهو يتمتم ..

- لك الله يا مريم .. يحفظك الله يا سيدتي الحكيمة .. هذا نوى تمرك الحلو نبت نخلا صغيرا وسأرعاه حتى يظللنا ..

يشعر بحركة عند باب الحوش فيلتفت ليطالعه عكاز الشيخ رادع يدخل ..

- ميمون ..

- نعم يا شيخ رادع .. سقيت النخلات ..

- نخلات مريم ؟

- آه لو تراها يا شيخ رادع .. إنسانة حكيمة ووجهها يخفي طيبة و جمالا عجزت السنون عن محوه ..

- أراها ؟ فيك الخير يا ميمون ..

- أقصد تتعرّف عليها يا شيخنا ..

- يكفي أنك عرفتها ..

- عرفتها يا شيخ رادع وكأني عرفت الدنيا معها .. بالحق يا عم رادع .. الخنجر .. لم أرد لك خنجر جدك ..

يرفع الشيخ رادع كفه ..

- مني لك يا ميمون .. احتفظ به ..

يبتر عبارته صوت آذان العصر البعيد فيرفع الشيخ رادع رأسه متعجبا ..

- سمعت يا ميمون ؟

- أحدهم يؤذن .. هيا ..

يخرجان من الحوش فيطالعهما وجه صبي صغير يضع قربة على ظهره تعجب ميمون لوجوده ..

- لم توقفت يا ميمون ؟
يفيقه سؤال الشيخ رادع الذي نغز كوعه جنب ميمون فيلتفت إليه وهو يوضح ..
- إنه ..
- غيث يا عم ميمون ابن ريان ..
تهتز ذراع الشيخ رادع وهو يمد كفه متحسسا رأس الصبي الذي تحدث بصوت رفيع .. يدفعه في رفق داخل الحوش ويأمره ..
- هيا يا غيث .. املأ قربتك من البئر لمن يحتاج الماء ثم أغلق خلفك باب الحوش ..
يلقي الصبي الدلو في جوف البئر ولم يلبث أن يسحبه في صعوبه ويضعه على الحافة ريثما يفتح فم قربته ثم يسكب الماء حتى تمتلئ القربة .. يربطها ويثبتها على كتفه ويخرج من الحوش الذي يغلق ميمون بابه بإحكام ويقود رفيقه خارجين من الدرب ويتعجب من ظهور غيث المفاجئ الذي لم يره قبلئذ وشعر بحنين لإبقائه معه فهمّ أن ينادي عليه لكن الغلام ابتعد خارجا من الدرب ..
يمران ببيت عبد البر الذي يخرج منه وفي يده المغزل فيسلم عليه ميمون ويخرجون من الدرب منعطفين نحو جامع القاهرة .. يتوقف ميمون فجأة للسحب المتراكمة في السماء والرذاذ يتطاير حول وجهيهما ..
- الغيث قريب يا شيخ رادع ..
- الله يأخذ بيدنا يا ميمون .. بقي اجتهاد أولي الأمر في إصلاح الأحوال وعودة الناس للعمل ..
- والله إنها البشارة يا شيخي الجليل .. قالتها لي السيدة في أطفيح.. ألم أخبرك عنها ؟
- بلى .. سيأتي عامٌ فيه يُغاث الناس ..
- وفيه يعصرون .. هو ذا يا شيخ رادع ..
ينشرح قلب ميمون وهو يقود الشيخ إلى الجامع فيلف عبد البر المغزل ويضعه داخل العباءة .. يدخلون ليجدوا المصلين اصطفوا خلف الإمام و ما إن سلموا حتى يتناهى لأسماعهم جلبة في الخارج فينهض ميمون وهو يتأبط ذراع الشيخ رادع ويخرجان مع لفيف المصلين إلى الشارع الكبير ..
- ماذا ترى يا ميمون ؟
- إنهم طوائف مختلفة من رجال ونساء وشباب وشيوخ وأيضا جند ..
- معهم يا ميمون ..
- إلى أين يا شيخ رادع ؟
- أنا أعرف إلى أين .. هيا ..
يلحق ميمون والشيخ رادع يتبعهم عبد البر بالسائرين الذين تتكاثر أعدادهم من الشوارع والأزقة والشقوق إلى أن انعطفت الجموع اللاغطة في الطريق المؤدية إلى

قصر الخليفة المستنصر بالله ومصعب يقف بجوار جواد ومن حولهم جند الخليفة يحرسون تلك الجموع المتقدمة من الفوضى التي قد يثيرها الرعاع و الزُعر وهناك .. تقدمت سيدة وارتقت مصطبة عالية وحولها الجماهير الصائحة .. فعرفها ميمون على الفور .. إنها أخت زوجته وابنة عمه ثريا التي نظرت إليهم ثم أخرجت قرصة صغيرة من بين طيات ملابسها ولوّحت بها وهي تصيح ..

- أيها الناس .. فلتعلموا أن هذه القرصة كلفتني ألف دينار فادعوا معي لمولانا السلطان

تمت

أيمن رجب طاهر

٢٠١٠ ـ ٢٠١١ م

*** اعتمدت الرواية في كتابتها على عدة مصادر منها :**

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . ابن تغربردي الأتابكي . جزء (٥) الهيئة العامة لقصور الثقافة . ط : ٢٠٠٨م
- البداية والنهاية . لأبي الفدا اسماعيل ابن كثير . جزء (١٢) دار الصفا . ط: ٢٠٠٣م
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية . محمد عبد الله عنان . مكتبة الأسرة ط : ١٩٩٨م
- تاريخ الجامع الأزهر . محمد عبد الله عنان . مكتبة الأسرة ط : ٢٠١٢م
- أشكال العديد في صعيد مصر . درويش الأسيوطي . سلسلة الدراسات الشعبية . الهيئة العامة لقصور الثقافة ط : ٢٠٠٦م
- فضائل مصر وأخبارها وخواصها .ابن زولاق . تحقيق د/ على محمد عمر . مكتبة الأسرة ط : ١٩٩٩م
- سيرة القاهرة . استانلي لينبول . ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن ، د/ علي إبراهيم حسن . مكتبة الأسرة ط : ١٩٩٧م
- حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعتر . مكتبة الأسرة ط : ٢٠٠٠م

المؤلف

أيمن رجب طاهر
قاص وروائي
مواليد أبنوب بأسيوط ١٩٧٣/٦/٢٣م

عضو اتحاد كتاب مصر
عضو مجلس إدارة بنادي أدب أسيوط
عضو مجلس إدارة نادي القصة بأسيوط

الأعمال الصادرة :

التابوت (قصص)
مدونة الأساطير (قصص)
موت برئ (رواية)
شرنقة الجسد (راوية)
وني .. حكيم الحروب (رواية)
من أنتم ؟ (قصص)
إبور .. ناصح الفرعون (رواية)
بنتاور .. الساقي الأمين (رواية)
بيت الحكمة (مسرحية)
كتاب الموتى (نصوص)
حم إيونو .. عظيم الهرم (رواية)

الجوائز:

جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في أدب الطفل ٢٠٠٩م
جائزة أحمد بهاء الدين الثقافية في الرواية ٢٠١٠م
جائزة أخبار الأدب ومؤسسة المصري في القصة القصيرة ٢٠١١م
جائزة القصير للإبداع الأدبى في القصة القصيرة ٢٠١١م
جائزة تحكيم مسابقة أحمد بهاء الدين في الشعر والقصة القصيرة ٢٠١٢م

المؤتمرات :

المشاركة في مؤتمر أدباء مصر بالقاهرة ٢٠١٠م
المشاركة فى مؤتمر الكلمة نغم الأدبى بالقاهرة ٢٠١١م
المشاركة في مؤتمر مئوية نجيب محفوظ بالأقصر ٢٠١١م
المشاركة في ملتقى الصعيد الثقافي الأول بأسيوط ٢٠١٢م

المشاركة في المؤتمر الأول لنادي القصة بأسيوط ٢٠١٣م
المشاركة في مؤتمر أدباء مصر بأسيوط ٢٠١٤م

للتواصل مع المؤلف :

Ayman_Rt73@yahoo.com

01008749979